نظرات في

مقارنة الأديان

د . عصمت نصار

كلية الآداب جامعة القاهرة

فرع بنى سويف

طبعة ٢٠٠٥

دار الهداية

للطباعة والنشر والتوزيع

تليفون : ٧٩٥٤٣٧٩ - ٠٢

محمول: ٣٢٤٨٧٨٩ - ٠١٢

رقم الإيداع ٨٩٧٣ / ٢٠٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N

٨ - ٢٢٤ - ٢٢٢ - ٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

العلاقة بين الدين والفلسفة

لا غرو في أن محاولة إيجاد العلاقة بين الدين والفلسفة تعد من أصعب وأدق القضايا المعاصرة ، ويرجع ذلك للمشكلات التي تقف أمام الباحثين عائقاً دون إيجاد نسق واحد يجمع بينهما.

منها مشكلة التعريف :- ما الدين ؟ هل بالمعنى الاصطلاحي أم الفني أم الإجرائي ؟ وما الفلسفة ؟ هل هي الحكمة العقلية المجردة ، أم صنيعة الأديان ، أم وليدة الثقافة المطروحة ؟

وقد أجمع جل الباحثين على أن الأجواء الثقافية السائدة وطبيعة الخطاب الفلسفي أو الديني المطروح على مر الأحقاب التاريخية المختلفة قد ساهمت بقدر كبير في تحديد العلاقة بينهما فعندما ينتصر الفكر الديني تصبح مهمة الفلسفة تفسيره وتبريره وعندما تنتصر الفلسفة تنحصر مهمة الدين في نقضها أو الانطواء تحت مبحث القيم والكمون في الأخلاق .

وإذا ما توازنت القوى بينهما تبدو العلاقة بينهما في صور عديدة ؟ تصالح وتوافق ، تصارع وتناظر ، أو تجاور .

وعلى الرغم من احتدام الصراع بينهما في بعض الحقب التاريخية فلم يستطع أحد الطرفين إزاحة الآخر أو القضاء عليه بل أضحي الأمر على العكس من ذلك تماماً فهناك ديانات من وضع الفلسفة ، وهناك فلسفات من صنع الأديان .

وإذا ما نظرنا إلى مباحث فلسفة الدين ولا سيما مبحث فلسفة الإلحاد فنجد أن معظم الحركات الإلحادية لم تكن نقضاً لفكرة الألوهية فحسب بل كانت ضد الفكر الديني بوجه عام ، الأمر الذي يبرر المساجلات والمناظرات التي حفلت بها الثقافة الإنسانية منذ قديم الأزل .

ولما كان الجمع بين الفلسفة والدين في سياق واحد من الأمور

التي يصعب تحقيقها فكان لزاماً على رجالات الفكر والدين التحلي بالتسامح في النقد والالتزام بآداب التناظر في النقاش حتى يتحقق التوازن المنشود في ثقافات الأمم.

أما مبحث مقارنة الأديان الذي نحن بصدده يعد من أعرق العلوم التي انبثقت عن فلسفة الدين فإذا ما نظرنا إلى أطوارها الساذجة فسوف نجد للمسلمين فيها إسهامات لا تنكر نذكر منها الملل والنحل للشهرستانى ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، وإن كان يؤخذ على مثل هذه الأعمال تعصبها الملي وافتقارها إلى عدة البحث العلمي في الوصف والتاريخ والنقد والتحليل .

أما الأبحاث العلمية الحديثة في مقارنة الأديان فلم تظهر إلا في أخريات القرن السابع عشر وقد اعتمدت في دراستها على العديد من العلوم منها التاريخ ، الجيولوجيا ، الآثار وذلك لتحديد نشأة الديانات والتعرف على مراحل تطورها وكما تجولت بين علوم اللغة للوقوف على دلالات الكلمات في البيئة التي نشأت فيها ومقارنتها بعد ذلك بمثيلاتها في الديانات الأخرى فكلمة ثالوث على سبيل المثال تختلف دلالتها في الديانة المصرية عنها في الديانة المسيحية كما تستعين كذلك بعلم الاجتماع والأنثربولوجى وذلك لتتمكن من التفرقة بين الظاهرة الدينية والظاهرة الاجتماعية وتتبين مدى قبول المجتمع لهذه الديانة أو تلك وكذا رصد الحركات الإلحادية والإصلاحية . كما تعتمد على علم الجغرافيا لتحديد أماكن ظهور الديانة وانتشارها .

وقد أنيطت بعلم مقارنة الأديان وظيفة رئيسة هي مقابلة الأفكار العقدية بين الأديان بعضها ببعض بغض النظر عن طبيعة هاتيك الأديان وذلك للكشف عن أوجه التشابه والاتفاق والاختلاف والتأثر بينهما .

والله نسأل الهداية وتجنب الزلل والشطط في القول والفعل (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) .

د . عصمت نصار

٨ محرم ١٤٢٦

١٧/ ٢ / ٢٠٠٥

الفصل الأول

مفهوم الدين ونشأته

مفهوم الدين ونشأته

تتضح كلمة الدين إذا ما وضعت في مقابلة المعني اللغوي والمعني الاصطلاحي كما يظهر معناها أكثر وضوحاً ودلالة إذا ما قارناها بمثيلاتها في مجال مقارنة الأديان كالملة والنحلة إلا أننا سنعول أولاً علي بيان كلمة الدين من الناحية اللغوية لما في المعني اللغوي من عموم يعرب عن دلالة اللفظة في معناها العام ثم نثني بالمعني الاصطلاحي لما له من أهمية لدي علماء مقارنة الأديان .

أولاً : معنى كلمة الدين

١- يطلق الدين في اللغة العربية ويراد به معانٍ مختلفة تفترق كل كلمة عن الأخرى حسب موقعها في السياق الذي وردت فيه .

فيطلق الدين في اللغة على كثير من المعانى منها : الجزاء والحساب والمكافأة ومنه قوله تعالى : (مالك يوم الدين) أي يوم الجزاء والحساب وما جاء في الحديث المرسل عن أبى قلابة : (..كما تدين تدان) أي كما تفعل تجازى . كما يطلق على الخضوع والطاعة والانقياد ، وعلى الحال والشأن والعادة والسيرة والرأي والسياسة .

وقد يستعمل الدين في الشريعة على سبيل الاستعارة ، فيراد به ما يؤخذ العباد به من التكاليف ، قال الراغب : " والدين يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشريعة ، والدين كالملة ، لكنه يقال اعتبارا بالطاعة والانقياد للشريعة " (١).

وتعدد المعاني اللغوية لكلمة (دين) وكثرتها مرجعه إلي أصل الاشتقاق في اللغة وقد بين ذلك الدكتور محمد عبد الله دراز فقال: " كلمة " الدين " تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه : " دانه يدينه" وتارة من فعل متعد باللام (دان له) ، وتارة من فعل متعد بالباء (دان به) ، وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة .

فإذا قلنا : (دانه يدينه) عنينا بذلك أنه ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره وحاسبه وجازه وكافأه ، فالدين في هذا الاستعمال يدور

على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك .

وإذا قلنا : (دان له) أردنا أنه أطاعه وخضع له ، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع .

وإذا قلنا : (دان بالشيء) كان معناه أنه أتخذه دينا ومذهبا أي اعتقده أو اعتاده أو تخلق به ، فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء سواء كانت نظرية أو عملية فالمذهب العملي لكل امرئ هو عادته وسيرته .. والمذهب النظري عنده هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه . والمعنى الثاني ملازم للأول ومطاوع له (دانه فدان له) أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع ، كما أن الاستعمال الثالث تابع للاستعمالين قبله لأن العادة أو العقيدة التي يدين بها ، لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ، ويلتزم إتباعها " (٢) .

٢- أما في الاصطلاح فيختلف تعريف الدين بين علماء الأديان وفلاسفة الدين فبينما يربط علماء مقارنة الأديان من المسلمين تعريف الدين بالأديان السماوية نرى غيرهم يحذفون هذا الاعتبار وهذا صحيح لأن التعريف كما يقول المناطقه لابد أن يكون مانعاً جامعاً فنحن سنعرف الدين هنا بمعناه العام بقطع النظر عن الأديان السماوية .

وقد عرف الدكتور عبد الله دراز الدين بقوله " هو الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات - غيبية علوية لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشئون التي تعنى الإنسان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفى خضوع وتمجيد " (٣).

وبعبارة موجزة ، هو : الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين .

أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها (٤).

هذا والدين بهذا المفهوم الشامل يتناول نوعين من الدين وهما:

أ- الأديان السماوية : ويراد بها : ما كان مصدره الوحي الإلهي وجاء على لسان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ،

كاليهودية ، والنصرانية والإسلام .

ب- الأديان الوضعية : ويراد بها : ما كان مصدره العقول والمجتمعات البشرية من العقائد والشرائع كالديانة البوذية والبرهمية ونحوهما من الأديان والإلحاد بصوره المختلفة .

والفارق الأساس بين هذين النوعين من الأديان هو أن الدين السماوي مصدره الوحي الإلهي وبالتالي هو معصوم من الخطأ. أما الأديان الوضعية فهي غير معصومة من الخطأ ضرورة لأنها من وضع البشر. إلا أننا في فلسفة الأديان لابد وأن نتعرف على الجانب الآخر ألا وهو الجانب الفلسفي الإنساني الذي ركز فيه الباحثون على الدين باعتباره معطى من المعطيات الاجتماعية والإنسانية وهو ما نسميه الدين أو الأديان الوضعية أي التي هي من وضع البشر والمجتمعات الإنسانية .

واليك بعضاً من هذه التعريفات :

يقول " سيسرون " في كتابه (عن القوانين) : " الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله "(٥).

ويقول " كانت " في كتابه (الدين في حدود العقل) : " الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهيه "(٦).

ويقول " شلاير ماخر ، في (مقالات عن الديانة) : " قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة "(٧).

ويقول " الأب شاتل " في كتاب (قانون الإنسانية) " الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه "(٨).

ويقول " روبرت سبنسر" في خاتمة كتاب (المبادئ الأولية) .

" الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسي في الدين " (٩).

ويقول " تايلور " في كتاب (المدنيات البدائية) : " الدين هو الإيمان بكائنات روحية " (١٠).

ويقول " ماكس مولر " في كتاب (نشأة الدين ونموه) : " الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لايمكن التعبير عنه هو التطلع إلى اللانهائي ، هو حب الله "(١١).

ويقول " إميل برنوف " في (علم الديانات) : " الدين هو العبادة . والعبادة عمل مزدوج : فهي عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية ، وعمل قلبي أو انعطاف محبة ، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة " (١٢).

ويقول " ريفيل " في (مقدمة تاريخ الأديان) : " الدين هو توجيه الإنسان سلوكه ، وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها " (١٣).

ويقول " جويوه ، في كتاب (لا دينية المستقبل) : " الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية (١٤).

والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون " .

ويقول " ميشيل مايير " في كتاب (تعاليم خلقية ودينية) :

" الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفى حق أ نفسنا " (١٥).

ويقول " سلفان بيريسيه ، في كتاب (العلم والديانات) : " الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية " (١٦).

ويقول " سالومون ريناك " في (التاريخ العام للديانات) : " الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا " (١٧).

ويقول " إيميل دور كايم " في (الصور الأولية للحياة الدينية): "الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أي المعزولة المحرمة) - اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة (١٨).

وقد أدلى الشيخ مصطفى عبد الرازق بدلوه في بيان معنى الدين وذلك بعد أن ذكر ما قاله " ماكس مولر " واستخلص منه الآتي :-

١- نظام اجتماعي لطائفة من الناس ، يؤلف بينها إقامة شعائر موقوتة ، وتعبد ببعض الصلوات ، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق ، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه حالة في الكون ، أو متعددة ، أو هي الله الواحد .

٢- حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن أعمال عادية تتعلق بالله .
٣- احترام في خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة . ولعل هذا المعنى الأخير هو أقدم هذه المعاني (١٩).

وقد ذكر العالم الاجتماعي "دور كايم" للدين عدة تعريفات واعترض عليها ولا مجال هنا لعرضها لأنها تحتاج لمناقشة وبيان رأينا فيها ويكفينا أن نذكر ما ارتضاه من تعريفات الدين حيث قال بعد أن قسم الدين إلى عقائد وأفعال (فالعقائد الدينية هى العلم بطبائع الأمور المقدسة وما بينها من روابط والعلم بعلاقاتها بالأمور غير المقدسة) (٢٠).

ثانيا : معاني كلمات أخرى مرتبطة بالدين :

سبق أن ذكرنا أن هناك كلمات مرتبطة في المعنى قرباً وبعداً بكلمة الدين مثل كلمات : الملة والمذهب وعن العلاقة بينهما، وحاصل ما ذكروه أن كلاً من الدين والملة متفقان معنى ، مختلفان اعتباراً ، أو إضافة .

قال الإمام الراغب في مادة (ملل) : " الملة كالدين وهو أسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ، ليتوصلوا به إلى جوار الله . والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي تسند اليه نحو : (فاتبعوا ملة إبراهيم) آل عمران (٩٥) - (واتبعت ملة آبائي)يوسف (٣٨).

ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ، ولا إلى آحاد أمة النبي ﷺ ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها .

فلا يقال : ملة الله ، ولا يقال : ملتي وملة زيد كما يقال : دين الله ودين زيد . ولا يقال : الصلاة ملة الله (٢١)... وتقال الملة اعتبارا بالشيء الذي شرعه الله ، والدين يقال اعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة " وقال " الشريف الجرجانى " - " الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث إنها تجمع تسمى ملة ، ومن حيث إنها يرجع

إليها تسمى مذهباً (٢٢).

وقيل : الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منسوب إلى الله تعالى والملة منسوبة إلى الرسول ، والمذهب منسوب إلى المجتهد".

وقال صاحب المنار :

" أقول : الدين في اللغة : الجزاء و الطاعة و الخضوع ؛ أي سبب الجزاء ، ويطلق على مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله فيكون بمعنى الملة والشرع .

وقال : إن ما يكلف الله به العباد : يسمى شرعا ، باعتبار وضعه وبيانه. ويسمى ديناً ، باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به ويسمى ملة ، باعتبار جملة التكاليف " (٢٣).

ومن الأمور الواضحة في النصوص المذكورة أن الدين والملة يطلقان على معنى واحد هو : جملة التكاليف التي يدين بها العباد لله . كما ذكر كل من الإمام الراغب وصاحب المنار . وأن التغاير والاختلاف بين الدين والملة يرجع إلى ناحيتين .

(الأولى) من الناحية الاعتبارية : أي من حيث المعنى الذي يراد ويعتبر، فما يكلف الله به عباده من الأحكام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يسمى ملة . باعتبار جملة التكاليف الشرعية ومجموعها، كما يسمى دينا من حيث الخضوع والطاعة والانقياد لهذه الشرائع الإلهية .

(الثانية) من حيث النسبة والإضافة والحكم . أي من حيث ما يسند اليه كل من الدين والملة ، ويبدو هذا في أمور ثلاثة :

(أ) إن الملة لا تضاف إلى الله تعالى بل تضاف إلى النبي فلا يقال : (ملة الله) وإنما يقال كما جاء في القرآن الكريم : (فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا – واتبعت ملة آبائى ابراهيم وإسحق ويعقوب) ، ونحو ذلك .

وهذا بخلاف الدين فإنه يضاف إلى الله كما في قوله تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) النور (٢).

(ب) إن الملة لا تضاف إلى آحاد الأمة وأفرادها وإنما تضاف إلى المجموع .

فلا يقال : " ملة زيد أو على " وإنما يقال الملة اليهودية أو ملة النصارى مثلا .
وهذا بخلاف الدين فإنه ينسب إلى الآحاد و الأفراد فيقال دين محمد ودين زيد كما يضاف إلى المجموع فيقال دين المسلمين و نحو ذلك *.
(ج) إن الملة لا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحاده بخلاف الدين ، فلا يقال : الصلاة ملة كما يقال مثلا الصلاة دين والحج والجهاد دين إلى غير ذلك .
أما المذهب : فيراد به : مجموعة الآراء والأفكار التي تستند إلى العقل إما ابتداءاً واستقلالاً كالاتجاهات الفلسفية التي لا تستند إلى نصوص الوحي وإما استناداً إلى النص واستنباطاً منه كالمذاهب المختلفة في الأمور الشرعية مثل المذاهب الفقهية أو في الفكر الكلامي مثل مذهب المعتزلة الأشاعرة فهذه من الممكن أن تسمى مذهبا أو فرقة .

ثالثا :- نشأة الدين :-

إن أهم ما يشغل الباحث في فلسفة الأديان أو في علم مقارنة الأديان متى وكيف نشأ الدين .
وبما أننا مسلمون والحمد لله نجد بين أيدينا كماً هائلاً من النصوص الصحيحة والصريحة التي تحدثنا عن أصل التدين وعن حقيقته . وكيف كان في الإنسان وهل هو فطرى أم مكتسب .إلا أننا التزاماً منا بالمنهج العلمي البحت الذي يحتم علينا أن نبحث الأمر بحثاً مجرداً من أية مؤثرات أولاً ثم نثنى بعد ذلك بما نراه صواباً .

* ونري أن في هذه القرون تكلفاً غير مقبول فما الذي يمنع من الناحية اللغوية إضافة كلمة الملة إلي أحاد الأمة وعدم إضافة القرآن كلمة الملة إلي آحاد أمة النبي ليس دليلا علي منعها إذ الكلام يتعلق بلفظة عربية ولم يتعلق بتقرير حكم شرعي وإضافة كلمة الملة إلي الأنبياء في قوله تعالي : (وأتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) أري أن فيه دليلاً علي إضافتها إلي أحاد الإنسان وبالتالي يجوز إضافتها إلي آحاد الأمة . والذين منعوا إضافتها إلي أحاد الأمة لم يذكروا دليلاً أو علة للمنع .

حتى يظهر البحث في أتم ما يكون من الناحية الموضوعية والشكلية .

انقسم الباحثون في نشأة الدين إلى فريقين :

الفريق الأول : القائلون بتطور الدين، **والفريق الثاني** : القائلون بفطريته .

النظريات التطورية :-

أما النظريات التطورية فتتكون من مذاهب متعددة أهمها المذهب الحيوي والمذهب الطبيعي والمذهب التوتمى – وأما النظريات الفطرية – فيمثلها أحسن تمثيل المذهب المؤله عند "شميت" – "ولانج" وغيرهما . ولعلماء المسلمين رأى في فطرية الدين سنذكره في موضعه من هذا البحث .

إلا أننا سنعرض تاريخ تلكم النظريات أولا ، وأقوال أصحابها بشيء من التفصيل .

١ - المذهب الحيوي :-

ينسب هذا المذهب إلى عالمين من أشهر العلماء الباحثين في العلوم الإنسانية المختلفة - أولهم " تيلور " وثانيهم سبنسر ولم يختلف الاثنان إلا في نقطة واحدة سنبينها في حينها .أما فيما سوى ذلك ففكرتهما واحدة ، وقد عرف مذهب " تيلور " بأنه المذهب الحيوي الحقيقي .

أما مذهب سبنسر فقد أطلق عليه اسم "Manism"، وإن كان الاثنان لا يختلفان في جوهرهما كما قلنا ، ذهب الاثنان إلى أن أقدم دين في الوجود " هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها " .ولفهم الأمر على حقيقته لابد من فهم نشأة النفس الإنسانية من منظور القائلين بعبادة الأرواح (٢٤).

نشأة النفس الإنسانية :-

كانت أولى الآلهة عند أصحاب المذهب الحيوي هم الأسلاف . ويسمى هذا المذهب "Evhemerisme" نسبة إلى الفليسوف اليوناني "Evhemere" كان هذا الفيلسوف يشرح فكرة الآلهة بتكهن الملوك الموتى وبهذا كان أسبق الباحثين إلى وضع أسس مذهب حيوية المادة أو المذهب الحيوي (٢٥).

أما كيف نشأت الفكرة عند تيلور فيقول " إنها نشأت عن اعتقاد الإنسان البدائي في الحياة المزدوجة التي يحياها في يقظته من ناحية وفى نومه من ناحية أخرى - فقد تصور الحياتين على اعتبار أن كلتيهما حياتان حقيقيتان واقعيتان . فما يراه في نومه - أي في حلمه - إنما هو تعبير عن حياة حقيقية قضاها ، لها كل مقومات الحياة التي يمارسها أثناء اليقظة .

فحين يحلم أنه زار بلاداً بعيدة ، يعتقد عن يقين أنه زارها . ويستخلص من هذا أنه يوجد فيه كائنان ، أحدهما الجسد ، وهو الكائن الملتصق على المكان الذي نام فيه ، وله صفات مادية من تحيزه في المكان وعدم انتقاله . وثانيهما كائن أخر له قدرة على التنقل من مكان إلى مكان ، في الوقت الذي يكون الكائن الأول - وهو الجسم - ساكناً في حالة النوم . ومن التجارب المتعددة التي تحدث للبدائي في نومه - وما يراه من أحلام ومن ملاحظته أن من يقابلهم في حلمه لهم أيضا أجسام بعيدة ونفوس قريبة منه .. من هذا كله ثبت له أن فيه كائنا آخر غير الجسم ، يستطيع - في ظروف معينة - أن يترك هذا الكائن العضوي الذي يسكن فيه ، وأن ينطلق بعيدا عنه ، ولهذا الكائن الأخر كل الصفات المادية التي للكائن الأول . ولكن يتميز عنه في الوقت عينه بميزات متعددة - إنه أكثر حركية .إنه يخترق في لحظات آماداً طويلة ، إنه أكثر شفافية وليناً ، إنه ينفذ من أجزاء الجسم - من الأنف أو الفم على الخصوص . يمكن اعتباره مادياً بدون شك ولكنه من مادة لطيفة أثيرية ، تختلف أشد الاختلاف عما يعرفه الإنسان تجريبياً . هذا الكائن ، هذا القرين هو النفس (٢٦).

... تلك هي النفس التي اعتقد كثير من المجتمعات البدائية أن لها - بجانب قدرتها الأثيرية العجيبة - القدرة المادية على الإيذاء - فهي تستطيع أن تنزل النكبات بالناس - وأن تحاربهم من وراء أسجافها الخفية وعوالمها غير المنظورة .

ولهذا كانت القبائل الأسترالية تلجأ إلى قطع الإبهام الأيسر لقتلاهم، لكي تفقد نفس القتيل القدرة على الانتقال .

ولكن هذه النفوس عامة - برغم قدرتها المادية - فهي كما قلنا - " جسم لطيف أثيري وهوائي " لا يمكن أن نحسه أو نلمسه.

ومما زاد البدائي اعتقادا بأن للنفس تلك القدرة العجيبة ، ما كان يلحظه في حالات مرضية من إغماء وتشنج أو في حالات جذبية يغيب فيها الإنسان عن وعيه .

وكان يفسر هذا بأن مبدأ الحياة الحساسية انطلق عن الجسم مؤقتاً، إن مبدأ الحياة امتزج بالقرين ، بالنفس ، وإن غياب النفس لحظة كان معناه توقف الحياة والفكر . وقد قال سبنسر بالملاحظات المختلفة عن فكرة الثنائية المغروسة في الإنسان عند الأمم البدائية.

عبادة النفوس الإنسانية . عبادة الأرواح الدينية:-

لم تكن النفس الإنسانية " روحا " إنها متصلة بالجسد ولا تخرج منه إلا نادرا ،وإذا لم تكن النفس شيئا أكثر من ذلك ، فإنها لم تعبد أي عبادة. أما كيف عبدت وأصبحت قدسية ، فهذا إنما يتحقق بتحولها إلى أرواح ، تبتعد عن المكان المعين الذي كانت تشغله من الجسد ، ولا يستطيع الإنسان أن يتصل بها إلا بمراعاته لطقوس خاصة. فالنفس إذن لا تصبح روحا إلا إذا انتقلت من الجسد الإنساني والموت وسيلتها في هذا الانتقال (٢٧).

ولم يتميز الموت عند البدائي عن إغفاءة طويلة أو نوم مستغرق له كل صفات النوم إنه انفصال النفس عن الجسد . يشبه في هذا ما يحدث في كل ليلة ، ولكن انفصاله أبدى سرمدي . ويزداد عدد هذه النفوس شيئا فشيئا ، إلى أن تكون عالماً من نفوس حول عالمنا الحي، ولهذه النفوس مطامعها وميولها الإنسانية . ولذلك تحاول المشاركة في حياة أصحابها القدامى – سواء بمساعدتهم أو بما تنزل بهم من مصائب وآلام . وموقفها هذا يتبع ما تحتفظ به إزاءهم من عواطف وأحاسيس ، فتسيطر على من تحب ، بما لها من قدرة على النفاذ. وهذه الحالة الروحية النفسية لم يكن الإنسان البدائي يتصور فيها نفساً فردية ، ذاتاً له على الخصوص . بل كان يعتقد في قوة منبثة خلال الوجود كله . وعلى هذا كان السحر قبل الدين ، لأن فكرة المانا *

---

* فكرة المانا : ظهر هذا اللفظ عند الميلانزيين وأكتشفه لأول مرة عندهم "كوردنجتون" ، ويقصد به القوة السحرية " قوة متميزة تمام التميز عن كل قــوة =

قوة سحرية بجانب قوتها الدينية ، وتكون قوتها السحرية أكثر. غير أن "preuss " ذهب إلى أن فكرة القوة السحرية تحتوى مجموعة من الصفات الشاذة . بينما ذهب العالمان الإنجليزيان "king " و"Marett "إلى أن أول تصور ديني للإنسان ، كان تصوراً لقوة عامة بكل معنى العمومية منبثة في الأشياء ونشأة النفوس الفردية عن تخصيص لفكرة المانا . ثم تركزت وتشخصت في شتى الأشياء والموجودات (٢٨).

٢- المذهب الطبيعي :-

كان الحيويون في غالبيتهم علماء أجناس وعلماء إنسان. وكانت الأديان التي بحثوها تعتبر من الديانات الأولى التي اعتنقتها الإنسانية في عهود همجيتها . ولذلك لا نجدها تصل إلى فكرة وجود موجود كامل يسيطر على الكون ، إلى فكرة روحية دينية سامية . إنما عبدت موجودات روحية دون هذا الموجود السامي الأعلى. عبدت نفوس الموتى والأرواح والجنيات وعلى العكس من هذا كان أصحاب المذهب الطبيعي ، درسوا طائفة من أرقى الحضارات في أوربا وآسيا . ولذلك اتجهت أبحاثهم إلى إثبات وجود فكرة هذا الموجود الأسمى لدى الإنسانية الأولى .

مذهب مولر . الدين حقيقة تجريبية :-

كانت الفكرة التي ذهب إليها المذهب الحيوي أن الدين في منشأه لم يعبر عن حقيقة تجريبية ، أي أنه لم ينشأ عن استجابة لمسائل تسيطر عليها التجربة وتوسمها بوسمها .

أما المذهب الطبيعي فكان على العكس من ذلك ، فقد أعتبر التجربة أمراً مسلماً لا يتسرب إليه أي شك وأقام الدين على هذا الأساس .

يقول مولر " ينبغي أن يبدأ الدين بتجربة حسية لكي يأخذ مكانه الذي يرده إلى عنصر مشروع بين معارفنا (٢٩)" لقد أخذ مولر هذا المبدأ التجريبي القديم "لا شيء في العقل ما لم يكن من قبل في

مادية تؤثر بكل الأشكال إما للخير وإما للشر ، ويحصل الإنسان على أكبر الميزات إذا ما تملكها وسيطر عليها .

التجربة (٣٠) " أخذ هذا المبدأ وطبقه على الدين . وقرر أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان ، ما لم يكن قد أتى قبل عن حواسه .

وعلى هذا لن يوجه إلى هذا المذهب ما وجه من قبل إلى المذهب الحيوي من نقد اعتبر أهم نقد وجهه دور كايم إليه : وهو أن الدين لا ينبغي أن يظهر بالضرورة عن أوهام أو عن أحلام ، وإنما كمجموعة من الأفكار ومن العقائد ومن العبادات منتظمة في مذهب ، وقائمة على أساس من الحقيقة والواقع إلا أن النقد يوجه إلي هذا المذهب من قبل أصحاب الأديان السماوية بصفة عامة والإسلام علي وجه الخصوص حيث لا يمكن إخضاع العقائد الإسلامية والدينية السماوية للتجربة الحسية أو حتى للتجربة الذاتية إذ الاعتقاد في الأديان السماوية صادر من الذات العليا التي يستحيل أن تخضع هي للتجربة ومن ثم نري أن الأديان السماوية ستلفظ من بين هذه الرؤية الطبيعية التجريبية في نشأة الدين . ولكن ما هي هذه المحسات التي تولد عنها الفكر الديني ؟ هذا هو السؤال الذي تساعد دراسة الفيدا على معالجته.

لقد دلت هذه الدراسة على أن أسماء الآلهة إنما هي أسماء مشتركة من الممكن ببساطة التوصل إلى أصلها الأصلي ، وتعنى كلها ظواهر الطبيعة الرئيسية .

ومن الأمثلة على ذلك كلمة " Agni " - هو أسم أحد آلهة الهند الرئيسيين . لم يكن لهذا الاسم - أول الأمر - أية دلاله دينية أو أية إشارة إلى فكرة ميتولوجية ، بل كان يشير فقط إلى فعل النار المادي - كما تدركها الحواس .

قد استخدم هذا الاسم على هذا الأساس في الفيدا ، والذي يدل على أن هذا المعنى كان بدائيا ، أننا نجده في اللغات الهندية الأوربية، ففي اللاتينية "ignis"وفى السلافية القديمة "ogny" وكل هذه الكلمات - فيما نرى - متصلة بكلمة " Agni " السالفة الذكر.

وكذلك نجد صلة واضحة بين الكلمة السنسكريتية "Zeus"، "Dyaus" اليونانية و"Jovis" اللاتينية و"Zio" في اللغة الألمانية الشمالية .

وهذا كله يدل دلالة واضحة على المصدر الواحد الذي تتلاقى عنده هذه الكلمات وذلك قبل أن تنفصل تلك اللغات ، وتعتبر كل لغة

منها قائمة بذاتها وأما ما تعبر عنه كلمة "Dyaus" فهو الشمس المتلألئة . ومعنى هذه الكلمة ومعنى غيرها من الكلمات يدل على أن أول عبادة إنما اتجهت إلى عبادة الطبيعة في قواها وعناصرها المختلفة . فكانت تلك القوى والعناصر الطبيعية أولى الأشياء المؤلهة (٣١). وهكذا بدأت الإنسانية دينها.*

فكرة اللامتناهي :-

كيف وصل ماكس مولر إلى فكرة اللامتناهى وهى أوج الفكر الديني عنده ؟

يتبين هذا بوضوح من تطور البحث الاجتماعي في الدين مبتدئين ببيان فكرة التطور الديني عند أوجست كونت حتى ندرك الفرق بين رؤية أوجست كونت للتطور وما ذهب إليه مولر.

لقد ذهب أوجست كونت إلى أننا نستطيع أن نكتشف قانون تطور العقل الإنساني في الفكر الديني نفسه . إن الدين إنما نشأ عن حاجة عقلية غريزية في النوع الإنساني. وظهر حالما ظهرت الإنسانية نفسها (٣٢).

وقد أخذ الدين أول الأمر صورة الفيتيشزم ، ومذهب الفيتيشزم يؤله كل شيء، يؤله الحجر والنبع والشجرة ، وذلك بأن ينسب لها قوة غيبية. ثم ظهرت عبادة النجوم وهى تكون حالة وسطا . ثورة مرت بها الإنسانية من مذهب الفيتيشزم إلى مذهب الشرك. ثورة وليست تطوراً بسيطاً - فيما يقول كونت - ففي الحالة الأولى كانت الآلهة غير فعالة بينما كانت ساكنة في الثانية .

الآلهة في الأولى كانت في باطن كل شيء ، فأصبحت في الثانية خارجية وسامية ، وقد أدى تقدم الملاحظة والمعرفة والرغبة في شرح متناسق متكامل واحدي للكون إلى مذهب التوحيد(٣٣).

إن الملاحظ - في هذه الحالات الثلاث - أن قانون التطور الديني

---

* بهذا التصور الساذج المتناقض تماماً مع الوجود والأديان السماوية تصور " مولر" أنه وضع شكلا مقبولاً لا لمنشأة التدين ويؤكد مولر بفكرية هذه أسبقية الكثرة علي التوحيد وهو الأمر الذي لا نُقِرّه ولا نوافقه عليه لأن كل الأديان السماوية أكدت أن الواحدية هي الأسبق في الوجود عن التعددية.

هو قانون النقصان الثابت للفكر اللاهوتي . كلما تقدمت الإنسانية وقطعت شوطاً في مدارج الرقي ، كلما نقص تصور الفكر الديني للآلهة وللدين عامة .

جاء ماكس مولر بعد ذلك ، ووضع فكرة متوسطة بين فكرة الفيتيشزم وفكرة التوحيد ، هذه الفكرة المتوسطة هي فكرة حدس ذاتي – حدس ذاتي لفكرة اللامتناهى – الدين هو اللغة التي يعبر بها الناس عن احساساتهم الغامضة وعن عواطفهم ، وقد أخذ أول الأمر صورة تلك الآلهة المتعددة " Varuni " - " Agni " الخ. وفى كل مرة يعبد فيها واحد منهم بعد الآخر ، يصبح هذا الأخير أقوى الجميع . ويحتوى كل الآخرين ، ويعتبر واحداً ، وهذه العبادة الغامضة في أول أمرها ، أوحت بفكرة اللامتناهى التي ترمز إليها الآلهة. الإله الذي يعبد – في نظر هؤلاء – إنما يحتوى في باطنه عددا لا متناهيا من الآلهة التي تعاقبت قبله – والذي بعده سيحويه ، وسيحوى هذه السلسلة من الآلهة ، ولكن سرعان ما دخل مذهب التطور في الأبحاث الاجتماعية والأنتوجرافية ، وقضى على نظرية – لم يكن الله فيها إلا فكرة راقية لا يستطيع أن يصل إليها البدائي – وهذا ما يحتمه قانون التطور الجازم (٣٤).

٣- المذهب التوتمى :- (٣٥)

يعد المذهب التوتمى واحداً من النظريات التطورية في فكرة الإله أو المعبود والتي تعد هذه الفكرة محور فلسفة الأديان .

* * *

النوع التوتمى* :-

إذا كانت الرسوم التي تصور التوتم تثير عواطف دينية مقدسة ، فإن من الطبيعي - أن تكون الأشياء المصورة - والتي ترمز إليها الرموز مقدسة أيضا ؛ ولو إلى حد معين . وهذه الموجودات التوتمية الحقيقية نباتات وحيوانات . وتستخدم هذه الموجودات في التغذية . ومن البدهي أن عنصر هذه الموجودات الديني سيؤدى إلى القول بأنه ينبغي تحريم أكلها، اللهم إلا في بعض الأكلات الدينية. وأن من يقدم على هذا ، فجزاؤه الموت ، وكان يعتقد أنه يسكن في النبات أو الحيوان التوتمى عنصر هام لا يمكنه أن يدخل في المكان غير المقدس إلا إذا أعطبه وأتلفه وقضى عليه ، ولكن أباحت العشائر لبعض أفرادها الذين بلغوا سناً معيناً، أكل تلك النباتات والحيوانات .

ويبدو أن تحريم أكل هذه الحيوانات ، إنما هو تحريم شكلى ، لأن ترخيص أكله كان في بعض الأحوال، ثم توسيع نطاق هذا الترخيص، سيوسع بالتالي من دائرة الإباحة .

غير أن إباحة أكل التوتم لم يكن يتم إطلاقاً ، كانت هناك قيود تحدده . وفى بعض القبائل التي كان يتجاوز أفرادها الحد المعين في أكل توتم من التواتم ، فإن الاتحاد - وهو النظام الاجتماعي الأكثر شمولا من العشيرة يعاقب هؤلاء الأفراد بواسطة عمل سحري عقاباً قد يؤدى إلى قتلهم .

وهذا يبين مدى احترام القبائل والعشائر القديمة لمعبوداتهم وقدر تقديسها مهما كانت - وفى هذا إشارة تبين الدوافع النفسية التي جعلت بعض الهنود يعبدون بعض الحيوانات كالبقر وما شابه ذلك-

ويرى سبنسر وجلين أن هذه التحديدات والنواهي طارئة على المجتمع التوتمى ، وأن الأصل هو الإباحة .

ويثبتون هذا بدليلين - الأول - كان من الواجب على أفراد

* ظهور الكلمة : لم تظهر كلمة توتم كمصطلح فى علم لأجناس إلا فى آخر القرن الثامن عشر . وقد ظهرت للمرة الأولى فى كتاب لونج الهندي . وقد ظهر هذا الكتاب فى لندن سنة ١٧٩١ وحتى هذه السنة كان المذهب التوتمى يعتبر نظاما أمريكيا بحتا .

العشيرة أو على رئيسها في بعض الظروف الدينية الأكل من الحيوان أو النبات التوتمى .

الثاني : إن الأساطير تقول : إن مؤسسي العشيرة من الأسلاف العظماء كانوا يأكلون بانتظام من توتمهم .

فالتحريم إذن لم يكن موجودا في أول الأمر ، إنما كان من المشاع أكل الحيوان التوتمى (٣٦).

لم يوافق دور كايم على هذا ، ويرى أن أكل التوتم في بعض الحفلات الدينية لا يعنى إطلاقاً أنه يستخدم في الأكل العادي . بل إن الأمر على العكس تماما . إن الطعام الذي يتناول في أكلات دينية هو طعام ديني ، ولا يباح أكله لغير المقدسين . أما أن الأساطير تقول إن الأسلاف كانوا يأكلون من توتمهم ، فلا ينهض حجة تاريخية على تحليل أكل الحيوان في مبدأ الأمر ، ولا يمكن أن تعتبر الأساطير وثيقة تاريخية . إن الغاية من الأساطير هي تفسير عبادات موجودة أكثر منه تفسيرا وتحليلا للتاريخ . وإن الأساطير التي تقول إن الأسلاف – في العهد الوحشي الأول – كانوا يأكلون من توتمهم هي على اتفاق مطلق مع العقائد والعبادات الموجودة الآن ، والتي تمارس في الوقت عينه. إن الكهول والشخصيات التي وصلت إلى درجة كبرى دينية ، يخلصون من النواهي والتكاليف التي يخضع لها بقية الناس ، إنهم يأكلون الشيء المقدس ، ولكن لم يكن هذا الطعام مشاعاً لكل غير مقدس (٣٧).

ومن الأمور الطريفة التي ينبغي أن نلاحظها أن التوتم كان ينسب إلى الأم تارة والى الأب تارة أخرى بمعنى أن الولد كان يرثه عن الأم أو عن الأب .

إن من المؤكد في الاجتماع الأسرى – أن النظام الأمي أقدم من النظام الأبوي – وقد أدى هذا إلى تحريم أكل التوتم الأمي وتقديسه تمام التقديس ، وإن كان التوتم – تبعا لتطور ما – قد أصبح أبويا .

وبجانب تحريم أكل التوتم عامة ، فإنه لا يحل أيضاً قتله إذا كان التوتم حيواناً ، أو قطعه إذا كان نباتاً . ولكن هناك حالات استثنائية ، إذا كانوا في حاجة الضرورة . إذا كان الحيوان مفترساً أو مؤذياً وفى بعض القبائل لم يكونوا يقتلونه برغم ما يقدمه من أذى كالذباب مثلا . أو إذا لم يجدوا شيئاً غيره يأكلونه ، وكانوا أحياناً يقتلون الحيوان

التوتمى ، لا لحسابهم بل للآخرين !!(٣٨).

ومن خلال هذه التحليلات والتحريمات نلحظ أن الصور والرموز التوتمية أقدس بكثير من التوتم نفسه ، من الحيوان والنبات . إن تلك الرموز لا يمكن لغير المتطهرين لمسها أو رؤيتها ، بينما الحيوان أو النبات يلمسه غير المتطهرين أحياناً) (٣٩).

أفراد العشيرة :-

أعتبر الإنسان في كثير من الديانات ، الموجود غير المقدس ، نلحظ هذا في كثير من الأديان الأكثر تحضرا من الأديان البدائية كما نلحظ هذا في الأديان الكبيرة . وصفة التقديس في الأنبياء صفة ضئيلة ، هم بشر يأكلون ويمشون في الأسواق اللهم - إلا في المسيحية. أما التوتمية فلا توافق على هذا الرأي . إن أفراد العشيرة لهم صفة مقدسة * لا تقل إطلاقا عن الصفة المقدسة التي تمنح للحيوان . والسبب في هذه القداسة ، أن الإنسان يعتقد أنه حيوان أو نبات من النوع التوتمى . إنه يحمل أسم التوتم . والمشاركة في الاسم هي أيضا مشاركة في الطبيعة (٤٠).

ننتهي من هذا إلى أن إنسان العشيرة كان يعتبر مقدساً وأن القداسة تشيع فيه ، ولكن هناك أجزاء كانت أكثر قدسية وتميزاً هي : الدم والشعر وبين بطلانها وسيأتي مزيد إيضاح لهذا الأمر في موضعه من هذا البحث *

الدم : الدم شيء مقدس إلى أكبر حد بحيث أنه في قبائل استراليا الوسطى كان يدخل في جميع الطقوس و العبادات . ولم تكن النورتونجا تكتسب القداسة في بعض الأحيان ، إلا إذا رسمت بالدم الإنساني ولم تكن بعض القبائل تضع رسومها الدينية إلا على أرض تلطخت بالدماء . وكان على المريدين في بعض الطقوس أن يقطعوا بعض شرايينهم لكي ينبثق الدم منها ، وكان لا يباح للنساء حضور

---

* وهذا يشير إلى كيفية وقوع الوثنية فى الأزمنة الغابرة حيث اتخذ الناس أصناماً جعلوها نماذج للصالحين فيهم مثل " ود وسواع ويغوث ونسرا " وهذه الآلهة أشار اليها القرآن الكريم فى قولــه {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * } (نوح ٢٣) .

هذا المشهد أو رؤية الدماء . أما الدماء المهراقة فقد عددوا لها فضائل عظمى ، تختلف عند مختلف القبائل . وإذا ما سقط دم جمعوه في مكان ووضعوا عليه قطعة خشب ، تنبه الناس إلى طهارة المكان ، ولم تكن النساء تستطيع أن تقترب منه . وقد اعتبرت أشياء أخرى مقدسة لأنها تشبه الدم في لونها – التراب الأحمر مثلا – وكان يستخدم كثيرا في الطقوس الدينية ، إن قداسته منشأها إلى حد كبير مشابهته للدم في لونه ، وبهذا أعتبر جوهرا قريبا منه (٤١).

الشعر : كان للشعر قدسية كبيرة ، وقد دخل كما رأينا في صنع بعض الرموز . واعتبر قطع الشعر نفسه عملاً عبادياً يصطحب بطقوس خاصة ، وإذا ما مات البدائي قطع شعره ، وحفظ في مكان خاص لا تراه النساء ولا غير المتطهرين .

(ولم يكن الدم والشعر هما وحدهما المقدسين ، فهناك أجزاء من أعضاء الجسد كانت مقدسة أيضا غير أنها كانت أقل قدسية من الدم والشعر، وكانت أيضاً تدخل في العبادات ولها مكان في الطقوس.

ولم تكن القداسة متساوية في جميع أفراد العشيرة ، بالنسبة للرجال والنساء كان الرجال أكثر قدسية من النساء ، والنساء على العموم كانت من العالم غير المقدس . وإذا ما اجتمعت الجماعة التوتمية أي العشيرة أو القبيلة ، كان الرجال يقيمون في جانب ، والنساء يقمن في جانب آخر منفصل وكان معسكر الرجال محرماً على النساء . ثم يختلف الرجال أيضا في القداسة، فالشبان غير المتطهرين أقل قداسة من الرجال ، ولا يباح لهم حضور الطقوس . أما المقدسون فكان يباح لهم ما لا يباح للآخرين من حقوق كأكل الحيوان التوتمى مثلا) (٤٢) .

وهنا تستوقفنا آية قرآنية وهى " كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين " أل عمران (٩٣) ، وإسرائيل هو يعقوب وهو نبى من أنبياء الله والسؤال الذي يستوقفني هو هل كان إسرائيل الذي هو يعقوب خاضعا لهذا الفكر التوتمى فحرم على نفسه أشياءً كانت مباحة أم الكلام غير الكلام ؟ ونرجئ الجواب على هذا السؤال في نهاية هذا الفصل.

أساس التوتمية أو المانا التوتمية- وفكرة القوة :-

تقدس التوتمية - كما رأينا - الرموز - ثم التوتم - الحيوان أو النبات - ثم أفراد العشيرة وتشيع القداسة في كل هذه العناصر - بشكل متساو أحيانا ، وبشكل غير متساو في أحيان أخرى . غير أننا لا يمكننا أن نقول إن لأحد هذه العناصر أي ميزة دينية خاصة على الأخرى إذن ما هو علة العواطف والأحاسيس المتشابهة التي توحي بها قدسية تلك الكائنات المختلفة في نفس المريد " أو العابد " (إن علتها مبدأ منبث بشكل عام ، وبدون أدنى تمايز في الرموز التوتمية وفى أفراد العشيرة وفى النوع التوتمى . وإن العبادة التي كان يمارسها البدائي إنما تتجه نحو هذا المبدأ وحده (٤٣). التوتمية - في واقع الأمر - ليست هي الدين الذي يقدس هذه الحيوانات أو هؤلاء الناس أو تلك الصور فحسب ، (إنها نوع من القوى العامة غير المشخصة ، إنها توجد في كل هاتيك الموجودات. بدون أن تختلط بواحد منها ، ولا واحد من هؤلاء يمتلكها جميعها ، وكل واحد منهم يتشارك فيها . إنها مستقلة عن كل الأشياء الجزئية التي تحل فيها . ثم إنها سابقة عليهم في الوجود ، وباقية بعدهم. يموت الأفراد ، وتتعاقب الأجيال ، وهذه القوة باقية حاضرة على الدوام حية ، شبيهة بذاتها ، لا تغير فيها ولا تبدل ولا اختلاف . تهب الحياة للكائنات الموجودة كما وهبت كائنات الماضي ، كما ستهب كائنات المستقبل، إنه الإله الذي تتجه كل عبادة توتمية إليه بالتقدير والتبجيل ، ولكنه إله غير مشخص ، لا أسم له ولا تاريخ ، يفيض على العالم ، ويثبت في عدد غير محدود من الأشياء (٤٤).

إن هذه القوة العامة المنبثة غير المشخصة لا تتناول فحسب النوع التوتمى وأفراد العشيرة والرموز ، إنما تمتد دائرة فعلها إلى أفق أوسع من هذا ، كل ما في العشيرة ، ويتصل بالتوتم ، يشيع فيه هذا المبدأ ، إن لها صفة دينية ما ، ما دام البعض منها يتناوله التحريم والنهى ، والبعض منها له وظائف معينة في الطقوس الدينية ، فهو لا يختلف إذن في طبيعته عن الأشياء التي تتصل بالتوتم - إنه يتصل بالضرورة بنفس المبدأ . إن الإله التوتمى - إن صح هذا التعبير-

يشيع فيها كما يشيع في كائنات العالم المقدس .

من خلال ما سبق يظهر لنا أن الدين بهذه الصورة يعد مكتسباً ، كالعادات والظواهر الاجتماعية وهذه نظرة بعض الفلاسفة والمفكرين للدين يقول (فولتير) إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قروناً متطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث ، والنحت ، والبناء ، والحدادة ، والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات- إن فكرة التأليه إنما أخترعها دهاه ماكرون، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء)(٤٥).

وقد ذهب إلى ذلك أيضا (جان جاك روسو) حيث رأى أن كلاً من الدين والقانون من صنع المجتمع . إذ يرى أن الحالة الأولى للإنسان بمثابة لوح مصقول حال من العلم والصناعة والأخلاق والفن ، إذ يقرر : أن الإنسان كان متواحداً في الغاب ، لا يعرف أهله ، لا لغة له ، ولا صناعة ، ولا فضيلة ، ولا رذيلة من حيث إنه لم يكن له مع أفراد نوعه أية علاقة يمكن أن تصير علاقة خلقية. ثم إنه نتيجة لفكرة العقد الاجتماعي والتربية الملائمة. حينما ينتقل الإنسان من حالة التوحد إلى حالة الاجتماع . لابد لهذا المجتمع من (دين مدني) لا يدع الفرد ناحية من الحياة مستقلة عن الحياة المدنية ، وإنما لزم الدين لأنه ما من دولة قامت إلا وكان الدين أساسها على أن يكون هذا الدين قاصراً على العقائد الضرورية للحياة . هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعي: وجود الله ، والعناية الإلهية ، والثواب والعقاب في حياة أجلة ، وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين ولكل أن يضيف إليها ما يشاء في ضميره. ومن الواضح أن القول بأن العقائد المذكورة هي عقائد القانون الطبيعي : أنها عقائد طبيعية بحتة ، لا تستند إلى وحى من حيث إن في الوحي تعديا على حقوق الشخصية (٤٦).

وقد قرر المرحوم الدكتور (دراز) : أن هذه النظرة الساخرة للأديان والقوانين ليست مبتكرة وإنما ترديد لصدى مجون قديم كان يتفكه به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات ، فقديما زعم هؤلاء السوفسطائيون : أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ، ولا وازع من خالق ، كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة .. ثم كان أن

وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة .. فهنالك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ، ترى كل شيء ، وتسمع كل شيء وتهيمن بحكمتها على كل شيء . هذا وقد ثبت في نهاية القرن الثامن عشر خطأ هذه المزاعم أعنى فكرة أن الدين مكتسب وأن الإنسان الأول عاش بلا دين . اتضح خطأ هذه الفكرة نتيجة لكثرة الرحلات خارج أوروبا واكتشاف العوائد والعقائد والأساطير المختلفة ، التي تبين مقارنتها أن فكرة التدين أقدم في المجتمعات البشرية من كل حضارة مادية ، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل إنها تعبر عن نزعة أصلية مشتركة بين الناس (٤٧).

(ب) القول بفطرية الدين :-

يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن التدين أمر فطرى وطبيعي في الإنسان مهما كانت صورته عن الآلهة وعلى أي طريقة كان تدينه فمنذ نشأة الإنسان لم توجد جماعة إنسانية في أي مستوى حضاري بلا دين ، كما ثبت ذلك من خلال الرحلات العلمية والاكتشافات الأثرية .

يقول معجم " لاروس " للقرن العشرين : إن الغريزة الدينية مشتركة : بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية (٤٨) .

ويقول " هنرى برجسون " : " لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة " (٤٩).

إن التدين فطرة في الإنسان فهو تلبية لحاجات النفس الإنسانية في جوانبها المختلفة العقلية ، والوجدانية ، والإرادية إذ هو تكميل للقوة النظرية في الإنسان حيث يجد العقل في الدين ما يشبع حاجاته ، وتكميل لقوة الوجدان ، إذ أن العواطف النبيلة من الحب ، والشكر ، والتواضع ، والحياة ، والأمل ، وغيرها ، تجد في الدين مجالا ومنهلا لا ينفد كما أن الدين ضروري لتكميل قوة الإرادة في الإنسان ، إذ يمدها بأعظم البواعث والدوافع وأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس .

وفى ضوء هذه الحقائق نقول : إنه إذا صح تعريف الإنسان عند علماء الاجتماع بأنه (حيوان مدني بطبعه) فإنه يصح أيضا أن نعرفه بأنه (حيوان متدين بفطرته)(٥٠).

وقد ذهب كثير من علماء المسلمين إلى القول بفطرية التدين وأن التوحيد أمر مركوز في النفس الإنسانية ، وهذا بدوره يدفعنا إلى سؤال هام يرتبط بنشأة التدين وهو : هل الأصل والأسبقية للتوحيد أم الأسبقية كانت للتعدد والوثنية والتوحيد مرحلة تالية للقول بتعدد الآلهة ؟

وفى الجواب على هذا نقول إن الباحثين في هذه المسألة يرجعون إلى الفريقين اللذين سبق ذكرهما وهما أنصار مذهب التطور ، والقائلون بفطرية التدين .

أولا : أنصار مذهب التطور : الذين حاولوا تطبيقه على تاريخ الأديان مثل (سبنسر) * (دور كايم) * وغيرهما .

ومذهب هؤلاء : أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يرتقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته .

يقول إميل دور كايم - : بدأ الدين بأن تصور الناس قوة لا شخصية، متفرقة في الأشياء ، تمنحها مالها من قوة ، ثم تشخصت هذه القوة في (التواتم) أولاً : وفى الإله الواحد أخيرا، فكانت لنا فكرة الله كموجود مشخص مقدس ، فإن هذه الفكرة ليست مستقاة بما عند القبائل الهمجية في استراليا ، وإفريقيا ، وأمريكا، وبعض الاجتماعيين يرى أن الدين هو ما نشعر به من قوة باطنة، لا مكتسبة بالاستدلال ، ولكنها اجتماعية، والدين أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأهمها (٥١).

ثانيا : أنصار المذهب الفطري : أي الذين يقولون بفطرية التوحيد وأصالته : وهم جمهور كبير من علماء الأجناس ، وعلماء الإنسان وعلماء النفس مثل : (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة (الإله الأعلى).

فيرى هؤلاء : أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في

---

*هو : هربرت سنبسر فيلسوف إنجليزي ت ١٩٠٣ م اشتهر في علوم الطبيعة وعلم النفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ .

* هو إميل دوركايم ت ١٩١٧ م يعد واضع علم الاجتماع المعاصر .

البشر ، إذ لم تنفك عنها أمة من الأمم ؛ فتكون الديانات الوثنية والشرك بصوره المختلفة ليست إلا أعراضا طارئة على عقيدة التوحيد (٥٢).

مكونات الدين :-

يتكون الدين في معناه العام سواء كان وضعياً أو سماوياً من أمرين اثنين أولهما الجانب النظري وثانيهما الجانب العملي .

١- الجانب النظري :-

يراد بالجانب النظري في الدين مجموعة القواعد التي تنظم علاقة المتدين بمعبوده أو بالآخرين كما تضع هذه القواعد والضوابط الأطر النظرية التي يرجع إليها في كيفية أداء الطقوس وبيان المعتقد وما شابه ذلك من التفصيلات الموجودة في كل دين من الأديان أو يرجع إليها من أجل معرفة التصورات النظرية للأديان وغالبا ما تكون هذه القواعد هى عبارة عن الكتب المقدسة التي تضم مجموعة المعتقدات والمعاملات مثل التوراة والإنجيل والقرآن وأقوال الأنبياء والمرسلين بالنسبة للأديان السماوية (٥٣).

٢- أما الجانب العملي : -

فهو عبارة عن الممارسات والأعمال والطقوس الفعلية الناتجة عن المعتقدات القلبية التي يقوم بها المتدين في أي دين من الأديان كما يضم هذا الجانب التصرفات والسلوكيات التي يقوم بها المتدين تجاه الآخرين الذين يختلفون معه في الدين أو الذين يخالفونه في المعتقد فمن مجموع الأمرين يتكون الدين (٥٤).

* * *

مراجع الفصل الأول

مرتبة حسب ترتيب الورود

(١) المفردات في غريب القرآن ص١٧٥ دار الباز - مكة المكرمة وراجع مادة (د ى ن) في المعاجم اللغوية .

(٢) الدين - د/ محمد عبد الله دراز ص ٢٥ ، ٢٦ مطبعة السعادة ١٩٦٩م.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩

(٤) المصدر السابق ص٤٩ ، ٥٠

(٥) المصدر السابق ص٣٤

(٦) المصدر السابق نفسه

(٧) المصدر السابق نفسه

(٨) المصدر السابق نفسه

(٩) المصدر السابق ص٣٥

(١٠) المصدر السابق نفسه

(١١) المصدر السابق نفسه

(١٢) المصدر السابق نفسه

(١٣) المصدر السابق نفسه

(١٤) المصدر السابق ص٣٦

(١٥) الدين - د/ محمد عبد الله دراز ص٣٦ مطبعة السعادة ١٩٦٩م.

(١٦) المصدر السابق نفسه

(١٧) المصدر السابق نفسه

(١٨) المصدر السابق نفسه

(١٩) الأديان في القرآن للدكتور / محمود بن شريف نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه الدين والوحي والإسلام .

(٢٠) المصدر السابق نفسه

(٢١) المفردات ص ٤٧١

(٢٢) التعريفات للجرجاني ص١٠٥ ، ١٠٦.

(٢٣) تفسير المنار ٣/٢١١ ط الشعب

(٢٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٤٣٤ وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٨

(٢٥) نشأة الدين وتطوره للنشار ص٥،٦ – مكتبة المتنبي – القاهرة ١٩٧٥م.
(٢٦) المصدر السابق ص ١٣.
(٢٧) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص١٦ ، الدين والمجتمع ص٢٣ وما بعدها على عبد الواحد وافى – مكتبة نهضة مصر – القاهرة – بدون تاريخ .
(٢٨) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص١٩ ، ٢١
(٢٩) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٢٤
(٣٠) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٢٦ وأنظر أيضاً الدين والمجتمع ص٢٥ د/ على عبد الواحد وافى .
(٣١) المصدر السابق ص ٢٨ وأنظر أيضاً
(٣٢) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٢٩
(٣٣) نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٤٠ – ٤٣
(٣٤) المصدر السابق ص ٤٦
(٣٥) الدين – د/ محمد عبد الله دراز ١٩٧٠م دار القلم ط٢ ص١٢٧
(٣٦) المرجع السابق ص ١٥٠ ، ص ١٥١ ، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٥٠.
(٣٧) نفس المرجع السابق ص١٥٣ ، ١٥٤ (الدين – دراز)
(٣٨) الدين – دراز ص ١٥٦، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٥٤
(٣٩) الدين دراز ص ١٦٠، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٥٦
(٤٠) الدين دراز ص ١٦٢، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٥٦
(٤١) الدين – دراز ص ١٦٤، ١٦٥، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٦٠ .
(٤٢) الدين – دراز ص ١٦٨، وأيضاً نشأة الدين وتطوره على سامي النشار ص٦٠
(٤٣) الدين – دراز ص ١٦٩، عقيدة النصارى/صلاح عبد العليم إبراهيم ص٤٢.
(٤٤) عقيدة النصارى – صلاح عبد العليم إبراهيم ص ٤٣ ، ٤٥ .
(٤٥) قصة الفلسفة – ويل ديورانت مكتبة المعارف – بيروت ط٥ – ١٩٨٥ ص ٢٩٥.
(٤٦) العقد الاجتماعي – روسو – ترجمة عبد الكريم أحمد مراجعة توفيق اسكندر الناشر دار سعد مصر – سلسلة الألف كتاب العدد ٤١٩ بدون تاريخ ص ١١٧ ، ص ١٣٥ .
(٤٧) الدين – دراز ص ٨١ ، ٨٢ .
(٤٨) معجم لاروس ، نفس المرجع السابق ص ٥٥٩ .

(٤٩) الدين - دراز ص ٨٣ .
(٥٠) عقيدة النصارى في ضوء القرآن الكريم - د/ صلاح عبد العليم ابراهيم ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .
(٥١) نفس المرجع السابق ص ٥١ : ٥٣ .
(٥٢) عقيدة النصارى - د/ صلاح عبد العلمي ص ٥٦ .
(٥٣) الدين - دراز ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، عقيدة النصارى في ضوء القرآن الكريم - د/ صلاح من ص ١٠ : ص ٢٥ .

الفصل الثاني

الديانة المصرية القديمة

النشأة والتطور

لم يفلح فلاسفة الدين فى تحديد علة ظهور الأديان بعامة ، ودين الفراعين بخاصة .

فذهب بعضهم إلى أن الخوف من المجهول ، ومحاولة تبرير الإنسان لما يدور من حوله من ظواهر طبيعية . كان وراء اختراعه فكرة الألوهية وانتحاله بعض الأساطير التى تبرر وجود عالم يجهله شاغل بالكائنات الروحية التى تتحكم فى الكون وتقدر له المقادير .

وسرعان ما ينصرف هذا الإنسان عما كان يعتقد فى صحته تبعاً لتطوره وارتقاء الثقافة التى يحياها ، الى أن يصل للطور العلمى الحضارى الذى يمكنه من الإجابة عن التساؤلات التي دفعه عجزه عن الإجابة عنها للخرافة والعرافة بدلاً من التأمل والتجريب (١).

ويرد فريق آخر من الباحثين ظهور الفكر العقدي المؤله إلى قوى عليا مجردة ، تقوم باصطفاء الأنبياء والرسل لحمل أخبارها ورسائلها للبشر . وذلك منذ وجود الإنسان على هذه الأرض وتتعاقب الرسائل تبعاً لطبيعة المجتمعات الموجه لها الخطاب من جهة ، ومدى استجابة المستقبل من الأقوام البشرية من جهة ثانية ، ورغبة القوى العليا فى نسخ وتعديل ما شرعته من شرائع على مر الأزمان من جهة ثالثة . وذلك عن طريق الوحى والإلهام .

ويبرر أنصار هذا الإتجاه ظهور الديانات الخرافية والأسطورية بضعف المصدر الإلهى لهاتيك الديانات ، واندثار جوهرها بفعل البشر أنفسهم الذين ألفوا التمرد على السنن والشرائع ، لإرضاء أهوائهم وإشباع غرائزهم . الأمر الذي يجعل أولئك الباحثين يقطعون بأن كل الديانات ترد الى مصدر إلهى واحد ، على تباينها واختلاف عقائدها . ويستندون في ذلك علي فكرة التوحيد الكامنة وراء فكرة الكثرة والتعدد السائدة فى ديانات ما قبل التاريخ * والملل السماوية المحرفة .

---

* أطلق المؤرخون هذا الاصطلاح على العصر السابق لظهور السجلات التاريخية المنظمة فى مصر. وتعد هذه الحقبة مجهولة الأحداث وتفتقر إلى الدقة فى التقسيم -

وإذا ما تفحصنا الفكر الدينى عند القدماء المصريين فى ضوء هاتين الوجهتين السابقتين، سندرك صعوبة تفسيره وتبرير ظهوره وتحليل معتقداته. فعلى الرغم من سذاجة منابته وبساطة معتقداته فى طور النشأة، واستناده على الأساطير فى مراحل تقدمه شأن الأديان البدائية إلا أننا نجد المصريين أكثر تمسكاً به فى أوج حضارتهم العلمية الأمر الذى يسقط معه الإفتراض الأول أى أن المعتقد المصرى كان وليد الجهل والخرافة (٢).

وعلى الرغم من كثرة آلهة المصريين ومعبوداتهم المتباينة ، فإنه يمكننا التعرف على فكرة التوحيد والألوهية المجردة الراسخة فى جوهر معتقداتهم .

وذلك مع التسليم بأن إفتراض وجود كتاب مقدس للمصريين وظهور أنبياء مرشدين لهم سوف يظل إفتراضاً لا يُقطع بصحته علمياً إلا إذا توفرت له الأسانيد التاريخية .

الأمر الذي لا يؤكد صحة وجهة النظر الثانية (٣).

ومن الصعوبات التي تواجه المؤرخين :- غيبة الوثائق التي تحدد زمن ظهور الديانة المصرية ، والأطوار التي مرت بها على وجه الدقة والتحديد . الأمر الذي دفع بعضهم إلى التوحيد بين تاريخ مصر وأحقابه المختلفة ، وبين تاريخ ديانة الفراعنة . وحجتهم في ذلك صعوبة فصل كل من المظاهر الحضارية للمصريين – على مر تاريخهم القديم – عن معتقداتهم الدينية (٤).

ويبدو ذلك في كل ثوابت ثقافتهم المستمدة من فكرهم العقدي . فكان الأب عقب ميلاد طفله يطلق عليه اسماً مرتبطاً بإله ما إعتقاداً منه بأن الطفل عطية الآلهة إلى والديه . وأن اقتران اسم ولده باسم الإله حقيق بأن يجلب إليه البركة والحظ مثل آمون حوتب وإخناتون

وتخضع للروايات والتخمين والترجيح المستند على بعض الآثار والحفريات. وقد ظهرت السجلات التاريخية عقب ظهور الكتابة التي يؤرخ لها فى الأسرة الأولى (٣٢٠٠ – ٢٩٨٠ ق . م) . ومن أهم عصور فترة ما قبل التاريخ العصر الأيوليتى والعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وعصر بداية استعمال المعادن والعصر الحجري القديم الأعلى والعصر المزيوليتى .

ذلك فضلاً عن الكتابة الهيروغليفية التى ترتبط رموزها وأشكالها بالفكر الدينى والأساطير المعبرة عنه ويبدو ذلك جلياً فى الأشكال التى تصور الكائنات الحية . وكذا أسماء الشهور والمواسم ومظاهر الطقس والفصول الأربعة والأعياد والحياة اليومية . ضف إلى ذلك أن تمسك المصريين بتراثهم الدينى عبر العصور وندرة الحركات الإلحادية حال بين المؤرخين وبين تحديد فترة ظهور المعتقدات وتطورها (٥) + (٨٨) .

وقد حاول المعنيون بدراسة علم المصريات استنباط الأطوار التاريخية التى مرت بها ديانة الفراعنة معتمدين فى ذلك على عدة علوم على رأسها علم الحفريات وعلم الإنثربولوجى ومقارنة الأديان. وما زالت نتائجهم قابلة للتبديل والتعديل تبعاً للاكتشافات الأثرية والبرديات الوثائقية .

وقد انتهت هذه الدراسات إلى اعتبار الفترة السابقة على ظهور الأسرات من التاريخ المصرى الطور الأول للديانة المصرية ووصفوه بالبدائية فى التصور ، والإضطراب فى نسخ الأساطير ، والسذاجة فى اعتناق المعتقدات . وقد عبرت عن ذلك النقوش التى وجدت على الأدوات الصوانية الخشنة التى عثر عليها على الهضبة الصحراوية على جانبى النيل والمتون المنقوشة على جدران هرم سقارة حيث حضارات ديرتاسا والبدارى ونقاده . فلم تكن العقائد السائدة آنذاك سوى نزعة روحية تؤمن بخلود الروح وعودتها وتعدد الآلهة تبعاً للمدن التى كانوا يعيشون فيها ، فكان بعضهم يعبد الحيوانات مثل الغزال والثور والكبش والصقر والكلب والعقرب والسمكة والدولفين وكانت تحمل رموزاً لهم فى الصيد وفى الحروب والأعياد (٦) .

وقد تطورت هذه العبادة تبعاً لتطور الثقافة السائدة . ومن ثم كان من العسير فى هذا الطور رسم صورة لديانة متسقة ومنطقية فى كل تفاصيلها أو صلاحيتها العامة للإقليم المصرى بأسره وذلك نظراً لأنها ليست من أصل واحد ولا ترد لعقلية واحدة بل هى نتاج لعديد من التيارات اللاهوتية والسياسية المجهولة . ذلك فضلاً عن غيبة سلطة كهنوتية واحدة تقوم باختصار كل العقائد المحلية وتوحيدها فى إطار لاهوتى أو فكرى شامل يُفرض على كل المصريين بمختلف

إنتماءاتهم الإقليمية أو الطبقية .

فعلى الرغم من سيادة بعض الأفكار العقدية فى مرحلة من المراحل بفعل القوى السياسية إلا أن الديانات المحلية ومعبوداتها لم تندثر فى الأقاليم بل سارت جنباً إلى جنب مع دين الدولة الرسمى إذا جاز التعبير .

ويجمع العديد من الدارسين على أن هذا الطور من الديانة المصرية ومعبوداتها لم تكن إلا مظهراً منحطاً لديانة سامية أو رمزاً مادياً لإله أسمى وصفاته المتجلية فى الحيوانات والجمادات والبشر . ويبدو ذلك بوضوح فى النقوش والرسومات التى جمعت بين أجساد الحيوانات ورؤوس البشر والعكس فى صورها .

الأمر الذي يُنبئُنا بوجود الإرهاصات الأولى لفكرتى التجلى ووحدة الوجود عند قدماء المصريين .

وتفسر بعض الدراسات المعاصرة عبادة القدماء المصريين للحيوانات المختلفة بأنها وليدة إعتقاد التقمص . وخلاصته أن الأرواح والأشباح تتقمص فترة من الزمن أجساد بعض الحيوانات تبعاً لطبيعتها الخيرة أو الشريرة وعبادة المصريين لها لم تكن سوى تعبيراً عن إمتنانها للسلوك الخير منها كالبقرة والثور والتيس والكبش ، وخوفها من البعض الآخر كالأفعى والتمساح والأسد وجاموس البحر (٧) .

ويفسرها بعض الدارسين بأنها كانت شعارات أو تمائم للمقاطعات في حقبة ما قبل التاريخ . وقد عبدها العوام بمرور الوقت مغالاة فى انتماءاتهم وولاءاتهم .

ولا تبدو مظاهر سذاجة الفكر العقدى عند المصريين فى فكرة الألوهية فحسب . بل امتدت هذه النظرة إلى محاولة تفسيرهم للكون .

فتصوروا السماء على أنها بقرة بطنها مزدانة بالنجوم ، أو إمرأة منحنية الجسد نحو الأرض ، أو محيط مائى عظيم مرفوع بأربعة عمد من أركانه الأربعة . وتصوروا الأرض بأنها رجل منبسط على بطنه ينمو على ظهره النبات ويتحرك الحيوان ويعيش الإنسان من فوقه .

وتخيلوا أن النيل ممتد من السماء إلى الأرض مخترقاً فى سيره عدة مغارات ومضايق ليمد النيل الأرضى بالمياه اللازمة لحياة المصريين (٨).

ولعل ما يميز الديانة المصرية فى طورها البدائى عن غيرها من الديانات هو فكرة الواحدية المباطنة لمظهر التعدد الواضحة فى تفسيرهم للوجود ونشأته المتمثلة فى إله الشمس الأول الذى خرج من بيضة أو زهرة كانت طافية على سطح الماء الأزلى وقد انبثقت عن هذا الإله كل الكائنات * .

أما عن القرابين فى هذا الطور فكان أقصاها دماء الأسرى أو التضحية بالولد أو الابن بغية إسترضاء الإله وكان أدناها اللبن والعسل ولحم الطيور والحيوانات غير المقدسة .

وكان للسحر مكاناً مرموقاً فى هذا الطور باعتباره لغة الكهنة التى يخاطبون بتعاويذها وطلاسمها الإله ليحاورهم ويفتيهم فى القضايا المطروحة وينبئهم بأحداث المستقبل . وهى أيضاً السبيل لاستدعاء الأشباح والأرواح الشريرة والخيرة من عوالمها بغية العون والمساعدة فى قضاء الأعمال (٩) .

أما عن مجامع الآلهة والنسيج الأسطوري فلا نكاد نجد له صور منظمة إلا في أخريات هذا الطور حيث الإرهاصات الأولى للوحدة السياسية المتمثلة فى وحدة مقاطعة الغرب وعاصمتها " بحدت " بدمنهور مع مقاطعة الشرق وعاصمتها " بوصير " بسمنود اللتين كونتا مملكة الوجه البحرى وسادت فيها عبادة إلهة الرعب " نيت " وإله السماء القديم حورس .

وكذا ظهور مملكة أخرى فى الوجه القبلى عاصمتها "نقادة" بالقرب من الأقصر وكان معبودها إله الشر "ست" تلك المحاولات التى انتهت بوحدة المملكتين لأول مرة عقب هزيمة مملكة الجنوب واتخاذ عين شمس عاصمة للدولة الموحدة وأصبح قرص الشمس ذا الجناحين إشارة للمملكة المتحدة الجديدة وإلهها المعبود غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلاً وسرعان ما دب فيها الضعف بفعل الأشمونيين الذين رفضوا عبادة الشمس (١٠) .

---

* تؤكد معظم الأساطير المصرية القديمة على فكرة المادة الأزلية التى تماثل الهيولى فى الفكر اليونانى وغالباً ما شبهتها بعض الأساطير بالماء ، وأحياناً تتمثل فى عناصر أربعة هى الأبدية والظلام والقوى والماء .

وقد ازدهر في هذه الحقبة فن كتابة الأساطير ولا سيما تلك المحاولات الأولى لجمع المعبودات المتعددة فى نسيج واحد يرأسه "رع" إله الدولة الرسمى .

أما الطور الثاني فيعرفه المؤرخون بأنه طور الوحدة والائتلاف وتتمثل الوحدة فى ذلك الانتصار الذي حققه الملك مينا أو عحا أو نعرمر على مملكة الشمال وانتهى بوحدة مصر السياسية نحو الألف الرابعة قبل الميلاد.

أما الائتلاف فيرد إلى النسيج الأسطوري الذي اجتهد في تهذيبه كهنة آلهة المقاطعات ليتوائم مع الآلهة المحلية من جهة، والآلهة الكبرى التي تسندها القوى السياسية من جهة ثانية ، وفكرة تأليه الحاكم (الفرعون) التي نبتت منذ بداية عصر الأسرات من جهة ثالثة (١١) .

ومن أمثلة ذلك إستحالة بعض الآلهة المحلية إلى آلهة كبرى وتحديد وظيفة كل إله وصلة قرابته بالآلهة الأخرى . ومدى علاقته بالفرعون فظهرت سياقات أسطورية عدة توضح أنساب الآلهة أشهرها التاسوع والثالوث والثمانى الذى انفرد به الأشمونيين فأصبح " خنسو " رب القمر الصغير ابناً للإلهة "موت" إلهة الأمومة وللإله " آمون " ملك الآلهة .

وكذا نحت أسماء للآلهة لتلائم الفكر الديني الجديد فـ (أتوم – رع) هو مزيج من الإله " أتوم " إله الكمال " ورع " إله الشمس الإله الخالق الذي أضحى على رأس تاسوع هليوبوليس .

وتحديد وظائف الكهنة وطبيعة القرابين وأنواعها وقدرها ونصيب كل إله منها .

وكذا وضع القواعد الأساسية للطقوس والعبادات التى تؤدى للمعبود فى المواسم والأعياد .

وقد برع المصريون كذلك فى هذا الطور فى توظيف الأساطير لإرساء النظم والعادات والتقاليد فى الثقافة الفرعونية حيث القصص الخيالية التى تفسر نشأة الكون وصراع الأضداد لترسيخ القيم والمبادئ الإجتماعية والأخلاقية والسياسية وذلك فى صورة عراك وشجار بين الآلهة والجن والشياطين والبشر ينتهى بتحديد الثوابت

التى تتوائم مع الثقافة السائدة ولا يعرف على وجه الدقة زمن ظهور هذه الأساطير (١٢) .

وقد ازدهر في هذا الطور فن تشييد المعابد الكبرى للآلهة التى كانت زيارتها وخدمتها حكراً على الحاكم وكهنة المعبود دون العامة الذين كانوا لا يذهبون إليها إلا فى الاحتفالات العامة والأعياد الرسمية وكانوا يكتفون فى عبادتهم بالأناشيد الدينية والابتهالات التي تُمجد الإله أثناء قضاء أعمالهم فى الزراعة أو البناء . والتودد إلى الإله "بس" إله المرح والسرور الذى يعد من أشهر الآلهة المنزلية والتبرك بالتمائم التى كانوا يرتدونها ضمن ملابسهم . ذلك فضلاً عن التماثيل الخشبية والدمى والتعاويذ السحرية التى ازدحمت بها بيوت العامة .

أما الخاصة وصفوة المثقفين فكانت صلواتهم تؤدى لذلك الإله المجرد الذى يجهلون هويته وطبيعته مع إيمانهم القوى بوجوده (١٣).

وقد نمت عقيدة عبادة الفرعون تبعاً للقوة السياسية التى تبوءها ملوك الأسر الأول وقد احتشدت الأساطير بطبيعة الحال لتأييد هذه المعتقدات تلك التى جعلت من الفرعون منذ الأسرة الرابعة سليل التاسوع الإلهى وابناً شرعياً "لرع" إله الشمس وأخاً وأباً وخالاً أو عماً لباقى الآلهة .

وجعلت كذلك من وزير الفرعون نائباً عن الإله "تحوت" رب فن الكتابة ورسول الآلهة ومن مساعديه نواباً عن الإلهة "سشات" سيدة دور الكتب ، والإلهة "ماعت" ربة الحقيقة .

ومن الأطباء أتباعاً للإلهة "سخمت" إلهة القوة الشافية الساحرة وكهنة للوزير المؤله أي "أم حتب" الذي صار بمقتضى ألوهيته ابناً للإلهة سخمت .

ولم تقف أساطير هذا الطور عند ربط طبقة الصفوة بالآلهة فحسب . بل اجتهدت فى ربط العوام بمختلف حرفهم أيضاً بالآلهة المعبودة طمعاً فى ضمان الاستقرار السياسي لمصر، وترسيخ العادات والتقاليد فى الثقافة المصرية فجعلت الإله "بتاح" رب كل الصناعات والفنون أباً راعياً لكل الحرفيين (١٤) + (٨٩) .

وعلى الرغم من هذه المظاهر التى كادت أن ترفع المصريين بمختلف طبقاتهم إلى مصاف الآلهة، لم يخلو الفكر العقدى فى هذا

الطور من الإيمان بوجود إله أسمى مجرد يعلو كل هذه الآلهة ترد إليه الأقدار ، وبمشيئته تحل البركة فى الزرع والنجاح فى الصيد والسعادة فى الحياة ، وبعلمه يفرق الإنسان بين الطيب والخبيث .

وهو ذلك الإله الخفى المتجلى فى صورة "رع" تارة ، أو الفرعون تارة ثانية ، أو "الكا" القوة الروحية التى تمنح الحياة للبشر تارة ثالثة .

أما عن المعبود السائد فى هذا الطور فكان "رع" الذي تربع على عرش مملكة الأسرة الأولى وقد ظهرت بجواره آلهة عدة تستمد نفوذها وقوتها وقداستها من اسمه الذي ارتبط بها. ومنها " منتورع " الذي عبد في الدولة الحديثة كإله للحرب و" خنوم رع " خالق البشر و" آمون رع " ملك الآلهة وهو أحد آلهة الأشمونيين القديمة الثمانية . وقد حظي الأخير بمكانة رفيعة منذ الدولة الوسطى (٢١٣٤ – ١٧٧٨ق . م) وقد استطاع كهنته عن طريق الأساطير التي نسجوها بإتقان إقناع العامة والخاصة بأن "أمون" و"رع" شخصية واحدة الأمر الذي كان وراء تربعه على عرش سائر الآلهة منذ مطلع الدولة الحديثة (١٥٧٠ – ١٠٨٠ق . م) وشيدت له المعابد فى الكرنك والأقصر والدير البحري .

ولم يأفل نجمه أو يعكر صفو كهنته إلا حادثتين هما غزو الهكسوس لمصر عام ١٧٠٠ ق.م ، الذين أهملوا معابده واتخذوا من " الكا " و"وبعل" و"ست" معبودات لهم دونه .

ودعوة امنحوتب الرابع لعبادة آتون دون سائر الآلهة المصرية القديمة. فعلى الرغم من تسامح المصريين مع سائر المعبودات المحلية والأجنبية، إلا أن امنحوتب الرابع قد نحى منحاً متعصباً فى نشر ديانته الوحدانية الجديدة منذ توليه حكم مصر حوالى عام ١٣٧٥ ق . م . ومن مظاهر ذلك فرضه عبادة آتون على أنحاء المملكة بعد أن أعطى له رمزاً جديداً يعبر عن هيمنة ذلك الإله وسيطرته لا على مصر وحدها بل على الكون بأسره ، فقام ببناء ثلاث مدن لعبادته فى مصر والنوبة وسوريا، وإعلان عقيدة التوحيد، وتحريم كل الطقوس والقرابين التى كانت تؤدى لكهنة كل الآلهة القديمة بعامة وكهنة آمون

بخاصة ، ذلك فضلاً عن إمعانه فى محاربة ديانة آمون إذ اجتهد فى محو اسم آمون من على جدران المعابد بعد تغييره لأسمه من (أمنحوتب إلى إخناتون)(١٥) .

وعلى الرغم من ذلك كله لم يستطع إخناتون القضاء على ديانة آمون التى أخلص لعبادتها العوام كل الإخلاص، انتصاراً منهم لمعتقداتهم التليدة التى راح كهنة آمون يحثونهم على التمسك بها وتحذيرهم من عاقبة الكفر بها. وسرعان ما كفر بآتون عقب وفاة إخناتون ولا سيما بعد ردة " توت عنخ آتون " الذي تولى حكم مصر من بعده وغير اسمه إلى " توت عنخ آمون " معلناً ردته إلى عبادة آمون .

ثم الاضطهاد الذي تعرض له المؤمنون بآتون على يد الملك "حور محب"، الذي خلف توت عنخ آمون وقام بتدمير أسماء وصور إخناتون ومحوها تماماً من شتى أنحاء المملكة المصرية .

الأمر الذي أعاد لآمون وكهنته المكانة الرفيعة السابقة على هذين الحدثين ، ومكنهم من الهيمنة التامة على مقاليد الأمور السياسية والاجتماعية والدينية . ويبدو ذلك بوضوح في تلك الصفات والقدرات التي نسبها الكهنة " لآمون رع " بعد انتصاره على الهراطقة على حد وصفهم – لأتباع إخناتون –. إذ ذهبوا إلى أنه الإله الخالق القوى ، واهب الحياة لكل الموجودات التي تسبح بحمده ، ومانح القدرة لسائر الآلهة المعبودة التي تتضاءل أمام جلاله وبهائه وعظمته ، وهو القدرة الخفية المحاطة بالأسرار ، وهو الإله الأول الذي لم يسبقه للوجود شيء ، والمتجلي في صورة "رع "والمتجسد في صورة "بتاح" (١٦) + (٩٢).

ويبدو تأثر كهنة آمون بخصومهم عبدة "آتون" واضحاً فى صفة الأزلية والسرمدية والقوى المطلقة التى وسموا بها إلههم ، ذلك فضلاً عن صفتى التخفى والسرمدية اللتين وضعوهما لتوطيد مكانتهم وترسيخ سلطتهم فى البلاد ، بوصفهم القادرين دون غيرهم على إجلاء الغامض من الأمور الإلهية ، وفهم أسرار عالمها .

وقد قوى نفوذ كهنة آمون في الفترة من حكم الملك "حور محب"حتى وصلت ذروتها في عهد الملك رمسيس الثاني (١٢٩٠ – ١٢٢٤ق . م) إذ اتسعت ممتلكات "آمون" التي كانوا يشرفون عليها لحد جعلها أشبه

بمملكة صغيرة داخل الدولة ، وأضحى لكبير كهنته من السلطان ما يدانى سلطة الفرعون ، وباتت وظيفتي مغنية آمون ومحظية آمون من الوظائف الرفيعة القدر التي لا يناط بها إلا بنات الأسرة الحاكمة أو بنات الكاهن الأكبر ، وأمسى السحر من الفنون المقدسة (١٧).

ونخلص من ذلك إلى أن ديانة آمون قد اعتلت عرش الفكر العقدي المصري في هذه الحقبة غير أن استبدادها وتعصبها كان أقل حدة وعنفاً من ديانة إخناتون . ويبدو تسامح كهنة آمون بارزاً فى احترامهم للعجل أبيس (أوزير – أبيس – آتوم – حور) معبود منف القديم ، الذي ما برح العوام يقدسونه كإله قمرى جنائزى بجانب الفرعون ابن الإله وآمون رع .

أما الطور الثالث والأخير فهو طور الضعف والذبول والاندثار ، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأعراض المرض والشيخوخة التي دبت في أوصال الحضارة المصرية التي بدأت بانكسار الجيش المصري أمام غزاته من الفرس والإغريق بداية من ملوك الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥ - ٤٠٤ ق.م)، ومروراً بفرض المسيحية ديناً على المصريين في عصر التعصب المسيحي وانتهاءً بالفتح الإسلامي (١٨).

وسنوجز فيما يلي أهم الأسباب التى أدت الى القضاء على الديانة المصرية القديمة .

* اعتناق المصريين لبعض الآلهة الأجنبية الوافدة من النوبة وليبيا وسوريا وفلسطين ، وكذا هجرة العديد من قبائل الأمصار المفتوحة إلى مصر، وإقامتها العديد من التماثيل والمعابد لآلهتها المحلية ، ونسخ العديد من الأساطير التى تربط بين فرعون المصريين الحاكم وبين آلهتهم . وكذا ميل بعض فراعنة مصر إلى تقديس بعض الآلهة السورية وأقرب الأمثلة على ذلك الإلهة " عنات " ربة القوة والحرب عند الأسيويين التى صورتها الأساطير بأنها إبنة الإله"رع " وزوجة الإله " ست " تلك التى عظمها الملك رمسيس الثانى وأطلق اسمها على ابنته المفضلة وأقوى أفراسه .
* ضعف نفوذ الآلهة المصرية خارج مصر بسبب تسامح المصريين دينياً مع الأمم المغلوبة والممالك المفتوحة لتخليها عن سياسة التعصب الملى.

* تأليه الإغريق لبعض الملوك الغزاة وعلى رأسهم الإسكندر الأكبر الذى غزا مصر عام ٣٣٢ ق.م، وقام بزيارة معبد آمون فى سيوة فى نفس العام باعتباره الكاهن الأعظم وابن الإله ، الأمر الذى أدى إلى تقهقر الآلهة المصرية إلى المرتبة الثانية فى سلم المعبودات، فى حين تبوأت الآلهة المحلية للملوك الغزاة موضع الصدارة واعتلت قمة سلم الآلهة .
* غيبة السلطة الكهنوتية وذلك بانشغال الكهنة بأمور السياسة منذ عصر البطالمة ، وانقسامهم إلى شيع وفرق تبعاً لمصالحهم الشخصية، وإهمالهم خدمة المعابد وانصرافهم عن النصح والإرشاد ولا سيما بعد تعيين البطالمة كهنة من المقدونيين والإغريق لعبادة الإسكندر وخلفائه (١٩).

ضف إلى ذلك حالة الضنك التى أمست عليها كل المعابد المصرية وذلك تبعاً لندرة القرابين والهبات وكف الكهنة المصريين عن جباية الضرائب، ونهب الغزاة خزائن هذه المعابد . ولا سيما فى العصر الرومانى عقب هزيمة الكهنة أمام أفيديوس كاسيوس حاكم ولاية سوريا عام ١٧٥م، الذي قضى عليه ثورة الكهنة المصريين التى كان يقودها الكاهن المصرى أسيدوروس عام ١٧٢م المعروفة بحرب الرعاة .

* انتشار المعابد الإغريقية لآلهة اليونان ومعابد لـــ "ياهو" إله اليهود وأخرى للنار المقدسة الفارسية، وانتحال الأساطير التى تربط بين المعبودات الوافدة والآلهة المصرية الأصلية، الأمر الذي شوه الفكر العقدى المصرى .
* انتحال المسيحيين معظم المعتقدات الأخلاقية المصرية وجل الطقوس الشعائرية وتزييف الفكر العقدي المصري ووسمه بالقبطي * ومن أمثلة ذلك صورة العذراء مريم التي تحتضن

---

* ترد لفظة قبطي وأقباط إلى الأصل اليوناني Aiguptiakos وكانت تعنى المصريين، أما اللغة القبطية فهي التطور الأخير للغة المصرية القديمة وقد سادت فى القرنين الثالث والرابع الميلادي وأصبحت لغة الفكر والدين معاً الأمر الذي مكنها من القضاء على الأدب الوثني القديم،وقد ترجم الإنجيل إليها وكتب على أوراق البردي فى هذه

وليدها فهي منتحلة من صورة الإلهة " إيزيس " مع ابنها "حورس"، وكذا صورة القديس جرجس وهو يقتل التنين برمحه ، التي تشبه صورة الإله " حورس " وهو يقتل عدوه الإله الشرير " ست " في هيئة التمساح ، وانتحال عيد مولد الإله " رع " الموافق يوم ٢٥ ديسمبر ليكون يوم مولد المسيح واحتفالات أعياد الكريسماس . والتشابه الواضح بين اسم العيد الشمسي عند المصريين "مسورع" وبين اسم "يسوع" ، وكذا تأثر الأناجيل بالفكر المصري ويرجع ذلك إلى أن أقدم نسخة للعهد الجديد وجدت في مصر مخطوطة على أوراق البردي وهى الآن محفوظة في مانشستر بإنجلترا ، الأمر الذي أدى إلى سيادة الصورة المصرية للديانة المسيحية على دونها من الصور الوثنية التليدة ولا سيما منذ القرن الثالث الميلادي وانتهاء عصر الاضطهاد المسيحي وبداية عصر التعصب الذي شن فيه المسيحيون حرباً شعواء في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية على دونهم من أصحاب الديانات حتى عهد الإمبراطور تيودوسيوس (٣٣٩ - ٣٩٥م) الذي جعل المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية وحرم العقائد الوثنية برمتها ، الأمر الذي حصر الديانة المصرية في جزيرة فيلة حيث معبد إيزيس الذي التف حوله نفر قليل من المصريين يقدمون لها القرابين سراً وذلك نحو عام ٤٥٢م . وفى القرن السادس الميلادي أغلق هذا المعبد وأسر كهنته وأودعوا في السجن بأمر الإمبراطور جوستنيان (٢٠) + (٩٢).

* إقبال المصريين على الدخول فى الإسلام وعزوفهم طواعية عن عبادة آلهتهم التليدة التي كانوا يعبدونها سراً فى منازلهم ويحملون

- الحقبة الأمر الذي يفسر انتحال المسيحيون بعض الأناشيد والطقوس والمعتقدات المصرية القديمة خلال هذه الفترة بدءً من التعميد، وإنتهاءً بالصلوات الجماعية التي تؤدى حتى الآن بهذه اللغة. ويعتبر بعض الباحثين اللغة القبطية إحدى لهجات اللغة المصرية القديمة فى طور ضعفها وأفولها وهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما : لهجات مصر العليا ولهجات مصر السفلى وينبثق عن هذين القسمين العديد من اللكنات المحلية. أما عن كتابتها فكانت تكتب فى بداية الأمر بحروف ديموطيقية ثم استحالت إلى حروف يونانية وقد أضيف عليها العديد من الكلمات والتعبيرات الإغريقية. وقد أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية .

صورها تمائم تحت ملابسهم منذ أن فرضت المسيحية عليهم كدين رسمي ويرجع ذلك القبول إلى توافق الديانتين المصرية والإسلام فى عديد من العقائد وإن اختلفت فى تفسيرها منها :- أحادية الإله ويبدو ذلك بوضوح فى أناشيد الصلاة - التي سوف نقف عليها بشيء من التفصيل فى الصفحات التالية - حيث آيات التنزيه والتعظيم والإجلال للإله واهب النعم ومُنزل النقم ، وكذا الإيمان بالبعث والثواب والعقاب والآخرة .

وعلى الرغم من التسليم بأفول نجم الديانة الشمسية المصرية ودرجها ضمن الديانات التاريخية العتيقة إلا أننا لا يمكننا القطع باندثار كل معتقداتها بل يمكننا أن نتبين أثرها في معتقدات وطقوس الديانات السماوية الثلاث (اليهودية - المسيحية - الإسلام) ولا سيما في أداء الشعائر والأعياد والاحتفالات لهاتيك الديانات (٢١).
وسوف نجتهد في توضيح ذلك فى الفصول التالية .

* * *

الألوهية والكتب المقدسة

لم يفلح المؤرخون المعنيون بدراسة الديانة المصرية بخاصة ولا المهتمون بمقارنة الأديان بعامة فى تفسير طبيعة العلاقة بين فكرتى الوحدة والكثرة الكامنة فى عقيدة المصريين فى أحقابها المختلفة ويعلل بعضهم هذا الإخفاق بغيبة الوثائق التى تكشف عن نشأة هذه الديانة ومراحل تطورها فى الأزمان السحقية .
ويرجع فريق آخر هذا العجز لطبيعة الديانة ذاتها حيث وعائها الأسطوري الذي يجمع بين الفكرتين في نسيج يصعب فيه التمييز بين السابق واللاحق وعلى الرغم من ذلك نجد من يفصل في هذه القضية ويقطع بصحة رأيه مستنداً على النصوص الدينية (أسفار التوراة - إصحاحات الأناجيل - آيات القرآن) ويُجزم بأن أصل عقيدة الألوهية

عند المصريين هي التوحيد ولا تعدو الكثرة فيها إلا مظهراً من مظاهر فسادها أو إحدى سمات تحريفها بفعل الكهنة ورجالات السياسة (٢٢) .

بينما ينزع فريق آخر إلى العكس من ذلك مؤكداً مع أوجست كونت أن مظهر الوحدة فى كل الديانات البدائية لا يعدو أن يكون إحدى أطوار نضوجها فى حين أن الكثرة والتعدد تعد بمثابة الأرض الخصبة التى نبتت فيها ويرتكنون فى ذلك على التشابه الكبير بين الآلهة المصرية والهندوسية واليونانية ومبينين أن خاصية التعدد فى الديانات القديمة تعبر عن الواقع الانثربيولوجى والاجتماعي والسياسي للثقافات التي ظهرت فيها حيث البيئة القبلية والجماعات المتفرقة التى لم تعرف النظام والائتلاف إلا فى عصور تحضرها .

وعلى ذلك فليس أمامنا إلا أن نحتكم إلى النصوص المصرية المقدسة القليلة التى أوردها المؤرخون فى كتاباتهم المتأخرة متخذين من التحليل تارة ، والمقارنة تارة أخرى . منهجاً لتوضيح الفكرة وإجلاء غوامضها وذلك كله فى ضوء الدراسات * المنصبة على شرح الجانب العقدى من الحضارة المصرية التى توضح صفات الآلهة وخصائصها وعلة عبادتها وزمن ظهورها والأطوار التى طرأت عليها والعلاقة التى تربط بينها وبين العالم الأرضى وما فيه من موجودات والعالم السماوى الشاغل بالكائنات الروحية والآلهة (٢٣) .

الكثرة والتجسيد فى المعبودات المصرية

تؤكد بعض الدراسات أن تعدد أشكال الآلهة المصرية ولا سيما تلك التي تجمع بين أشكال الحيوان والبشر - مثل إلهة الحب حتحور التي كان يبرز من رأسها أذنا بقرة وكان مركز عبادتها فى أطفيح

---

* تعد كتابات دى روجيه وبروجش وبيريه وماسبيرو من أوائل الدراسات الحديثة للفكر العقدى المصرى ويرد أقدمها الى أخريات القرن التاسع عشر نحو عام ١٨٧٩م وهى لا تخلو من التعارض والتضارب حيال فكرة الألوهية عند المصريين إذ ذهب بيريه الى أن المصريين موحدون وأن إلههم مجرد ومنزه عن التشبيه . بينما أكد ماسبيرو أن المصريين شأن غيرهم من الوثنيين وأن معبوداتهم مادية مرتبطة بثقافتهم العملية وحياتهم اليومية .

(بلدة على الشاطئ الشرقي للنيل واسمها الحالي تبح) - يرجع ذلك إلى سببين :- **أولهما** الطبيعة القبلية للمجتمع المصري في مرحلة ما قبل التاريخ حيث القرى المتناثرة والمقاطعات التي تفتقر إلى وحدة سياسية تجمعها. الأمر الذي كان وراء اتخاذ كل منها معبوداً يعبر عنها ويكون شعاراً لها فى الوقت نفسه يميزها عن غيرها .

وثانيهما البيئة الجغرافية التى لعبت دوراً كبيراً ولا سيما فى المقاطعات التى اتخذت بعض الحيوانات كالثعبان والصقر والكبش والتيس والقرد والكلب والقطة والضفدعة والعجل والتمساح معبوداً لها تبعاً للتفاعل الإنسانى الذى يحدث بينهم وبين عناصر البيئة التى يعيش فيها . قبولاً ونفوراً ، تقديساً واحتقاراً .

بينما يذهب رأى آخر إلى أن علة تجسيد المعبودات المصرية فى حقبة ما قبل التاريخ يرجع إلى طبيعة الفكر المصرى ولغته التى كان يعبر عنها .

فلم يكن فى مقدور العقلية المصرية فى الأحقاب الغابرة التعبير عن المجردات إلا عن طريق التشبيه والتجسيم . وعلى ذلك فالمصريون لم يعبدوا هذه المجسدات (البقرة والنيل والحنطة) فى ذاتها بل للقيم الروحية الكامنة وراءها . ويدللون على ذلك بالأطوار التى مرت بها اللغة المصرية ومحاولتها فى الألف الثانية قبل الميلاد صياغة أسماء مجردة وذلك بكتابة لفظ " شئ " قبل الأسماء والصفات المحسوسة لتميزها عن غيرها من الأسماء المجردة . فعندما كانوا يريدون أن يصفوا آمون بالقوة يصورنه على شكل أسد ذو نظرة متوحشة وثور فى حالة انتصاب وتمساح يسرق ويذهب بما يقتنصه (٢٤) .

وقريب من هذا الرأي ترد بعض الدراسات علة تقديس المصريين لبعض الحيوانات والنباتات والعناصر الكونية فى مرحلة ما قبل التاريخ والطور البدائى من ديانتها إلى ثلاثة أسباب هى :- إما للصفات السامية والقيم الروحية الكامنة فيها ، أو للخوف منها وعجزهم عن السيطرة عليها والتحكم فيها أو باعتبارها رمزاً لإله أسمى أبى إلا أن يتجلى فى هذه المخلوقات رغبة منه فى الاحتفاظ بحقيقة ماهيته وجوهر طبيعته الذى لا تقوى الحواس والعقول على إدراكه .

وعلى ذلك فلم يكن المصريون وثنيون أو ماديون فى عبادتهم بل

كانوا مستغرقين فى الرمزية فى إدراكهم لصفات المعبود ذلك فضلاً عن وعيهم التام بحقيقة تلك المعبودات المحسوسة التى لا تعدو أن تكون مخلوقات ضئيلة وعاجزة أمام قدرة وقوة الإله الأسمى . أما عبادة الملوك فإنهم يردونها إلى الكهنة وألاعيب الساسة .

ويبدو ذلك بوضوح فى بيت الحياة * الذى يعد بمثابة المدرسة الكهنوتية المفسرة للعقيدة والشارحة لها تبعاً لإحاطتها بأصول كل المعبودات (٢٥).

وينزع بعضهم إلى أن مظاهر التجسيد المتمثلة فى عبادة الأصنام والحيوانات ترجع إلى تأثر المصريين ببعض الديانات الأسيوية المجاورة وأن زيوعها يرجع إلى الكهنة الذين وجدوا فى تقديس العوام لها سبيلاً لابتزازهم والسيطرة عليهم وتسييسهم وانتحلوا من أجل ذلك الأساطير والخرافات .

ويرفض بعضهم هذا الرأى بحجة أن كل أسماء الآلهة المعبودة ترد الى جذور لغوية مصرية تميزها عن تلك الآلهة الأسيوية التى قدسها المصريون فى فترات لاحقة على تأسيس الديانة .

ومنهم من يذهب الى أبعد من ذلك فيؤكد أن آلهة العرب الأسيوية وآلهة الإغريق الأسطورية ترد الى أصول مصرية وليس العكس (٢٦) .

وسوف نتناول في السطور التالية أهم أشكال هذه المعبودات من حيث أصولها ووظائفها وصفاتها وأثرها فى السياق العام للديانة المصرية :-

---

* هي مؤسسة لاهوتية عريقة فى القدم وهى المصدر المعرفى الأوحد لطبيعة الآلهة المعبودة وهى المنوطة بإجراء الحوار بين البشر والآلهة . وقد أكد المؤرخون وجودها فى الطور البدائى للديانة المصرية مع جهلهم بزمن تأسيسها وطبيعة الأفراد الذين كانوا يعملون بها ولم تظهر هذه المؤسسة كسلطة كهنوتية ذات أثر فى الفكر اللاهوتى المصرى إلا فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد ويرد إليها جل الأساطير التى تروى حول الآلهة وأنسابها وصلتها ببعضها من جهة وبالفرعون من جهة أخرى ففى العصور المتأخرة كان كل معبد فى مصر يملك بيت الحياة الخاص به والمتصل ببيت حياة معبد العاصمة أو المعابد الكبرى والمعابد المجاورة أو تلك التى كانت ترتبط به بروابط متصلة وذلك لتوحيد الطقوس وقدر القرابين وأنواعها وتحديد عدد الصلوات ومراسيمها وزمن الأعياد ذلك فضلاً عن تحديد الطرز المعمارية للمعابد وإرشاد الفنانين للمواد التى يجب استخدامها فى صناعة التماثيل المختلفة للمعبودات وكذا نسخ النصوص المقدسة وتأهيل الكهنة ومساعديهم للعمل فى المعابد .

اللبؤة ويطلق عليها " ماتيت " فى الإقليم الثانى عشر من مصر العليا ويطلق عليها " محيت " فى الولاية الثامنة وهى أيضاً " باخت " فى الإقليم الثامن وكانت تصور على هيئة امرأة برأس لبؤة يعلوه قرص الشمس .

التمساح كان يطلق عليه "سبك" وحرفه اليونانيون إلى "سوخوس" وعُبد على هيئة رجل برأس تمساح .

الحمار وهو الرمز الحيوانى للمعبود ست الشرير وقد صور على هيئة إنسان برأس حيوان غريب يشبه رأس الكلب بأذن مفلطحة قائمة وذيل مستقيم ممتد إلى أعلى وهو من أقدم آلهة مصر وعضو التاسوع المقدس .

الكلب أطلق عليه "أنوبيس" صوره المصريون على هيئة كلب راكض على قاعدة تمثل واجهة مقبرة أو إنسان برأس كلب ويعد حامياً وحارساً للجبانة وأتخذ كذلك صفة المحنط لأنه قام بتحنيط الإله أوزوريس حاكم عالم الموتى وتبعاً لإحدى الأساطير فإن أبوه هو أوزوريس وأمه هى نفتيس ربة المنزل التى اشتركت مع إيزيس فى جمع أشلاء أوزوريس . وقد تطور هذا المعبود فى الديانة المصرية فأصبح فى نهاية الدولة القديمة " خنتى أمنتيو " المقدم على الغربيين أو إمام الموتى أو رب جبانة أبيدوس القديم ثم أدمج مع أوزوريس ثم أصبح بعد ذلك وبواوت أى فاتح الطريق ويصور على هيئة ذئب واقف على أقدامه وقد عبد فى أسيوط .

القطة أطلق عليها " باستت " عرفت فى الأسرة الأولى بالإلهة الحامية من لدغات الثعابين وقد اندمجت مع الإلهة " سخمت " إلهة القوة والحرب وقد تطورت عبادتها وأصبحت " مافدت " أى سيدة قلعة الحياة وصورت على هيئة فهد يحمى الملك .

أنثى النسر أطلق عليها نخبت وقد صورت على شكل أنثى النسر تحمل فوق رأسها التاج الأبيض وكان محل عبادتها فى مصر العليا وفى عصر ما قبل الأسرات الإلهة الرئيسية للصعيد وهى رمز أيضاً للإلهة " موت " زوجة الاله " آمون " وأم الإله " خنسو " رب القمر وصورت على هيئة امرأة برأس أنثى النسر وعلى رأسها التاج المزدوج (٢٧)+(٨٨) .

الصقر وأطلق عليه " حرو " أى الساحق ويرمز للإله " حورس " وقد اختلف على مكان نشأته وسادت عبادته فى بدايات العصور التاريخية ، وصور فى قارب يعبر الأفق لذا اعتبروه من الآلهة السماوية . وعبد هذا الساحق بعد ذلك فى مدينة إدفو تحت اسم " خنت ختاى " وتعددت بعد ذلك أسماؤه تبعاً لمكان عبادته .

الكوبرا أطلق عليها " وادجت " ويعنى الخضار وكان مركز عبادتها فى مدينة بوتو بمصر السفلى ثم أضحت رمزاً مزدوجا مع الإلهة نخبت لوحدة القطرين الموحدين .

العجل أطلق عليه " أبيس " وهو رب خصوبة الأرض وصور واضعاً قرص الشمس بين قرنيه وأحياناً يصور بجسم إنسان ورأس عجل . ويرمز الى القوة الجسدية والتفوق فى النسل وعُبد فى منف منذ عصر الأسرات المبكر ثم اندمج مع الإله " بتاح " رب كل الصناعات والفنون ودمجته بعض الأساطير مع الإله " حابى " إله النيل .

البقرة وهى الرمز المقدس للإلهة " حتحور " ويعنى " منزل حورس وقد صورت على رأس إنسان وأذنى وقرنى بقرة وعُبدت فى دندرة .

الكبش يمثل عدة صور للآلهة منها "خنوم " وقد لقب بـــ "خالق البشر" و " أبو الآلهة منذ البداية " وكون مع زوجتيه " ساتت " (سيدة مصر والمسئولة عن المياه الباردة لمصادر الفيضان) و"عنقت" (إحدى إلاهات منطقة الشلال) ثالوثاً لمنطقة جزيرة الفنتين فى مصر العليا . ومن صوره أيضاً كبش " عنبت " وكبش مدينة منديس وقد امتزجا ورمزا إلى كبش آخر هو " حارشاف " ويعنى حارس البحيرة وصور جالساً فيما عدا الكبش " خرتى " الذى صور محنطاً راقداً وقد رمز إلى الإله آمون منذ الدولة الوسطى وما بعدها (٢٨).

شجرة الجميز تمثل مقبرة لإلهة طيبة تنفع الناس ببركتها وتوجد على مقربة من مدينة منف وقد وحدت مع الإلهة " حتحور " التى أطلق عليها " سيدة الجميز " وذلك منذ الدولة القديمة وتعد غذاء لأرواح الموتى المجسدة فى صورة طيور .

عمود يون والذى اشتق منه الاسم المصرى إيونو والذى عرف باسم " أون " فى التوراة .

عمود جد عبارة عن عمود حجرى على هيئة حزمة مضمومة

من سيقان نبات غير معروف وكان مرتبط على نحو ما بالإله أوزوريس وكان له كهنة وتقدم له القرابين .

* عمود خشبى له تاج على شكل زهرة البردى تعلوه ريشتان وهو الرمز المادى المقدس للمعبود " أوخ " إله مدينة القوصية فى المقاطعة الرابعة عشرة بالصعيد وكان مرتبطاً بالإلهة حتحور.
* عمود على قمته نجم وهو رمز للإلهة سشات ربة الكتابة .

الحجر بنبن وهو على شكل مسلة وقدس باعتباره رمزاً ومستقراً للشمس.

الصولجان والعصى وكان الصولجان يطلق عليه " سخم " ويعنى القوة وهو يرمز للملك الذى يستمد سلطته من الآلهة وقد ارتبط بعبادة أوزوريس وصور فى المعابد على شكل غطاء ذهبى برأس بشرى تعلوه ريشتان .

اللحية وكانت ترمز إلى قوة مقدسة غامضة تسمى " دواور " وتعنى المنتمى العظيم للفجر .

الدرع والسهام وهو الرمز المادي المقدس للإلهة " نيت " ذات الطبيعة الحربية وصور على شكل درع يحمل سهمين متقاطعين .

ويبدو من ذلك العرض أن هذه المعبودات كانت ثانوية ومحدودة الأثر والقدرة . ذلك فضلاً عن تغير صفاتها ، وصورها تبعاً للنسيج الأسطوري الذى تبدو فيه. ويلاحظ كذلك ارتباطها بآلهة آخرى (تحل فيها أو تنبثق عنها) الأمر الذى يؤكد صحة الرأي الذي نظر إلى هذه المعبودات باعتبارها رموزاً وتجسدات لصفات مجردة لآلهة أسمى منها (٢٩).

المعبودات الطبيعية

السماء تمثلها الإلهة " نوت " وتصور على هيئة امرأة منحنية على زوجها وشقيقها إله الأرض " جب " وهى أم " لأوزوريس وإيزيس وست ونفتيس " وكانت تصور داخل التوابيت لتحمى المتوفى بجناحيها . بينما " حورس " اعتبرته العديد من الآلهة ملك السماء وصورته على هيئة صقر أو إنسان برأس صقر.

الأرض يمثله الإله جب وهو إله ذكر (وقد خالف المصريون فى ذلك سائر الديانات التاريخية) كان مثالاً للقضاء وأبو الآلهة وزوج الإلهة نوت أما الإله " آقر" فهو تجسيد للعالم السفلى الكامن تحت

الأرض أو العالم الآخر وقد صور على شكل أسدين متدابرين بينهما قرص الشمس يقومان بحراسة مدخل ومخرج الآخرة(٣٠).

النيل يمثله الإله حابى أو جعبى وترد إليه علة الفيضان وري الأرض وقد صور على هيئة بشرية تجمع بين جسم الأنثى والذكر ذو ثدي وبطن مترهل .

القمر يمثله الإله " تحوت " وهو " رسول الآلهة " ورب فن الكتابة ووسيط فى الصراع بين " حورس وست " وصور على هيئة الطائر " أبيس " وأحياناً بالقرد وكان مركز عبادته مدينة الأشمونين .

وقد عبد القمر أيضاً باسم " خنسو " أى الهائم على وجهه وعبد فى طيبة باعتباره ابناً " لآمون وموت " وصور على هيئة آدمية بعلامة القمر فوق رأسه .

الهواء يمثله الإله " شو " وهو أيضاً إله الحياة والنور وهو يملأ الفراغ بين السماء والأرض وصور على هيئة آدمية أو على هيئة أسد .

ويلاحظ على هذه الآلهة أنها لا تختلف عن سابقتها من حيث وظيفتها المحدودة وتطورها تبعاً للسياق الأسطوري الذي ترد فيه وهى لا تختلف فى ذلك عن آلهة الهندوس والإغريق (٣١).

تأليه البشر

لقد أفرط المصريون فى تعظيم وتقديس ملوكهم وأبطالهم . وقد غالوا فى ذلك حتى وضعوهم فى مصاف الآلهة .

وهم فى ذلك لا يختلفون عن الإغريق والكونفوشيين .

بيد أن المؤرخين يؤكدون أن هذه النحلة لم تظهر فى الأطوار البدائية للديانة المصرية ، الأمر الذى يؤكد انتحال المصريين لها .

فيرى البعض أنها من اختلاق الحكام أنفسهم ، رغبة منهم فى تقوية سلطانهم وتوطيد أركان عروشهم .

ويرجعها البعض الآخر للكهنة الذين نسبوا الأساطير التى تبرر تاليه الملوك والأبطال ، وتؤكد نسبهم للإله " رع " وأشهرها تلك التى تروى أن الإنسان خرج من عينى رع ، وله طبيعة نصف إلهية . ولا تكتمل ألوهيته إلا بقيامه بجلائل الأعمال البطولية ، التى تمكنه من العودة إلى " رع " ثانية فيصبح معبوداً كاملاً وسط الآلهة (٣٢) + (٨٨).

ويرد بعض المؤرخين ظهور عبادة الفرعون إلى بعض ملوك الأسرة الرابعة (٦٢٨٠ - ٢٦٥٠ ق.م) وعلى رأسهم "جدف رع" و"خفرع" و " يا أف رع " و " منكاورع " وغيرهم من الذين نسبوا أنفسهم للإله طلباً للرفعة والنبل والنسب الرفيع عوضاً عن النسب الأرضي المتنازع عليه من قبل البيت الفرعوني الحاكم آنذاك .ويؤكد أصحاب هذا الرأى أن لقب كنية ابن الإله لم يصبح نحلة متوارثة إلا فى الأسرة الخامسة بداية من الملك " كاكاى " الذى غير اسمه إلى " نفرإركارع " ويرجعون الأساطير التى بررت عبادة الفرعون إلى هذه الحقبة .

وكان يلاحظ على المصريين أن تأليههم لملوكهم فى بداية الأمر كان فى اعتبار الحاكم الكاهن الأعظم أو خليفة الله الذى اصطفاه فى حكم الأرض ومن ثم كان الملك هو المنوط الأوحد بالحديث مع الآلهة وبناء معابدها الكبرى . ثم فوض هذه المهمة للكهنة ولا سيما بعد تطور الدولة وانشغاله بأمور الحكم والسياسة والحرب (٣٣).

وقد نسجت منذ الدولة الحديثة العديد من الأساطير التى صورت الفرعون على أنه صورة حية للإله تعيش فوق الأرض وأن له سيطرة على الظواهر الطبيعية . وقد اكتسب لقب فير - وبير- أي الفرعون ، دلالة لاهوتية وتعنى العالم أو الكون الحاوى لكل البشر وقد اجتهدت الأساطير فى تفسير ثنائية الناسوت واللاهوت التي يتكون منها الفرعون .

فذهب بعضها إلى أن الإله رع قد اصطفى إحدى زوجات كهنته وجامعها مجامعة الأزواج فحملت منه وأنجبت ثلاثة ملوك - من الأسرة الخامسة - لهم طبيعة مزدوجة هى ناسوتية الجسد ولاهوتية الإرادة والقوة والروح وذلك بعد قيام خنوم صانع البشر بمنحهم أعضاء قوية واختيار إيزيس ربة السحر والملك أسماء لهم وتأكد مسشنت ربة الولادة من نقاء دمائهم الفرعوني .

وتروى أسطورة آخرى أن الإله آمون أرسل إله القمر ليبحث له عن أجمل النساء فأخبره أنها زوج الملك تحوتمس فتقمص آمون صورة الزوج وتسلل إلى مخدعها فاستيقظت فتوجه إليها آمون وأفصح لها عن نيته وأظهر جماله الإلهى ففرحت عندما رأت جماله هذا وامتلأ جسمها بحبها له وغمر عبير الإله جو القصر وكأن عطره

الذكي من بلاد البخور وأتم معها كل ما أراد وأخبرها أنها حملت منه بأبنة له اسمها خنمت آمون حتشبسوت سوف تخلفه فى حكم البلاد وأنه سوف يمدها من قوته وقدرته ما يمكنها من ذلك ثم تركها وعاد بعد أن وضعت إبنتها فأخذها بين ذراعيه معلناً أبوته لها بقوله " هذه هى إبنتي الحبيبة التى بها سُررت * " ثم أسند أمر رضاعتها للبقرة السماوية (٣٤) .

وقد نجح الكهنة فى إقناع العوام بصحة هذه الخرافات الأمر الذى أتاح لهم بناء المعابد المختلفة لعبادة الفرعون وتقديم القرابين له وقد قام الملك أمنحوتب الثالث ببناء المعابد لعبادته وشهد مراسيم تقديم القرابين له كإله . والجدير بالذكر أن صفة الربوبية التى وهبت للفرعون لم يكن فى مقدوره توريثها لأبنائه إلا بموجب أمر إلهى يفصح عنه كهنة بيت الحياة .

ولم تكن عبادة البشر فى الفكر العقدى المصرى قاصرة على الملوك فقط بل كان للأبطال والحكماء نصيب منها فنجد الكهنة يتعاطفون مع الرأى العام وينعمون بالنسب الإلهى على "كامجنى" وزير الدولة فى عهد الملك "تيتى"، "وإمنحوتب" الوزير المعمارى فى عهد الملك زوسر وكان الأبطال يعبدون باعتبارهم أنصاف آلهة (٣٥) .

الآلهة الشعبية

كان للمصريين آلهة منزلية تُعبد فى المنازل وآخرى تقام لها معابد صغيرة فى القرى والمقاطعات وكانت تتميز بصغر حجمها وكثرة الأساطير التى ينسجها العوام حولها ذلك فضلاً عن أسمائها التى كانت تحمل مكان عبادتها من أشهرها :- الإلهة " تويريس " مشتقة من الكلمة المصرية " تاورت " بمعنى العظيمة وكانت تمثل على صورة فرسة بحر حامل تقف على قدميها الخلفيتين وتسند عادة على العلامة الهيروغليفية بمعنى الحماية وهى الإلهة التى تضمن الحماية للأمهات أثناء الولادة وكذلك للمواليد وقد بنى لها معبد فى الكرنك .

---

* نلاحظ وجود أوجه عديدة من الشبه بين هذه الواقعة وبين مثيلاتها فى قصة ميلاد بوذا وقصة ميلاد السيد المسيح التى أوردها إنجيل متى فى الإصحاحين الأول والثالث.

الإله " بس " وهو إله منزلى وكان يصور على شكل قزم مقوس الساقين بوجه عريض وفم متسع ولسان بارز ولحية تشبه لبدة الأسد وأذنين وذيل حيوانى وقد كان يرقص ويلعب على الناى لجلبت السعادة والسرور للإله وكانت تتخذ من صوره معاويذ وطلاسم للرقى .

الإلهة " مرسجر " أى المحبة للسكون وهى إحدى الآلهة الحافظة من الثعابين وترسم على هيئة كوبرا أو امرأة ذات رأس بشرى أو رأس ثعبان وكانت تدعى سيدة الغرب أو سيدة الجبانة واعتبرت إحدى تجليات الإلهة حتحور (٣٦).

وتخلص من ذلك الى أن سمة الكثرة والتجسيد التى بدت بوضوح على هذه الطائفة من المعبودات لا يمكننا اعتبارها جوهراً للديانة المصرية وذلك لهشاشة وضعف السياق الأسطورى الذى يفسر وجود هذه المعبودات ويبرر تقديسها ذلك فضلاً عن غيبة الصلة المباشرة بينها وبين وجود الإنسان والعالم من جهة ، والقوة المهيمنة عليها التى تضمن تعايشها فى العالمين الأرضى والروحى من جهة آخرى .

الأمر الذي عالجته فكرة التوحيد والتجريد التي صورتها معظم الأساطير المصرية . وعلي ذلك فإن الكثرة والتجسيد في الديانة المصرية لا يمكننا اعتباره إلا مظهراً لفكرة جوهرية سابقة عليه تحمل بين طياتها الأسس العقدية والمبادئ الأساسية لهذه الديانة من جهة وتقوم بربط هذه الشذرات الأسطورية المبعثرة فى ملحمة واحدة من جهة أخرى (٣٧) .

وسوف نحاول إثبات ذلك في السطور التالية .

الوحدة والتجريد

ينظر بعض علماء الانثربولوجيا إلى فكرة الكثرة والتجسيد على أنها مظهر من مظاهر الديانات البدائية بعامة وإحدى أطوار السذاجة والانحطاط للديانة المصرية بخاصة ويعدونها كذلك دليلاً على قصور العقلية المصرية عن صياغة ملحمة أسطورية تجمع شتات آلهتهم على غرار الإلياذة والأوديسة .

بينما يعد بعض فلاسفة الدين فكرة التوحيد والتجريد إحدى سمات نضج الفكر الأسطورى لدى الشعوب وأحد أطوار الرقى للفكر اللاهوتى .

وإذا سلمنا بصحة هاتين النظريتين فسوف يقودنا البحث إلى أن نسلم بأن طور الكثرة والتجسيد فى الديانة المصرية كان سابقاً على طور التوحيد والتجريد غير أن هذه النتيجة تفتقر إلى الأدلة التاريخية وتتناقض تماماً مع كل القصص الأسطورية المدونة على جدران المعابد، وكذا مضمون الأناشيد المنقوشة التى حفظها المصريون على أوراق البردي، تلك التي تقوم بتفسير وتبرير فكرة الكثرة والتجسيد فى الديانة المصرية .

وتؤكد أنها تُرد إلى فكرة جوهرية واحدة تجمع الشذرات الأسطورية المتباينة عن الآلهة المصرية ، وتكشف عن ملحمة مصرية رائعة قام بوضعها حكماء مصر منذ أقدم العصور . وقد قام الكهنة بتزيفها وتحريفها تبعاً لأهوائهم وأغراضهم والثقافة السائدة والسلطة الحاكمة (٣٨) + (٩٢) .

وإذا ما حاولنا تفسير علة ازدواج فكرتى الكثرة والتجسيد والوحدة والتجريد فى الديانة المصرية فإننا سوف نجدها ترجع إلى سببين رئيسيين: أولهما وجود التصورات الفردية لفكرة الإله الواحد فى القرى والمقاطعات فى مرحلة ما قبل التاريخ .

وثانيهما يرجع إلى تعلق المصريين بأصولهم التليدة وأفكارهم العقدية الموروثة . الأمر الذى حال بين توحيد هذه الرؤى والتصورات المتباينة فى صورة لإله واحد ، رغم الوحدة السياسية التى جمعت الأقاليم المصرية فى دولة واحدة وتحت إمرة حاكم واحد .

فلم يكن فى مقدور الكهنة ولا الفرعون قهر المصريين أو إرغامهم على ترك معبوداتهم القديمة . بل احتالوا على ذلك شيئاً فشيئاً بفكرة أنساب الآلهة ، وظهرت فكرة الثامون والتاسوع والثالوث . محاولين بذلك وضع أنساب للآلهة تؤكد فكرة الوحدة الكامنة وراء الكثرة الظاهرة .

الأمر الذى راق للعامة الذين يقدسون الماضى ، وطاب للكهنة بطبيعة الحال الذين نعموا بجمع المزيد من النذور والقرابين . أما الحكماء فكانوا يؤمنون مع فكرة الوحدة بعقيدة التنزيه والتجريد ، التى تنظر إلى كل مظاهر الكثرة باعتبارها إنحرافاً عن الحقيقة أو تزيفاً لها .

ولعل هذا المنحى يفسر لنا عزوف العوام وكراهية الكهنة للديانة الآتونية، ويبرر تقديس الأناشيد والأدعية المفعمة بأسمى آيات التجريد

والتنزيه والسمو من قبل العامة والخاصة على حد سواء (٣٩).
وسوف نحاول فى السطور التالية إبراز أبعاد فكرة التوحيد الجوهرية، التي نسجت بمقتضاها معظم أساطير الديانة المصرية .

الوحدة علة الكثرة

لقد دعت الوحدة السياسية للإمبراطورية المصرية إلى ظهور فكر عقدي جديد . يدعم هذه الوحدة ، ويبرر تعايش آلهة المقاطعات المختلفة معاً ، فى تآلف ووئام . فظهرت فكرة الثامون والتاسوع والثالوث كإرهاصات ملحمية للصورة الأسطورية الكلية التي جمعت شتات كل الآلهة المصرية - كما أسلفنا - .
وقد اختلف المؤرخون حول أسبقية هذه الصيغ، وقد راق لبعضهم حل هذه القضية باللجوء إلى ما نطلق عليه (بالجغرافيا العقدية) .
فذهب إلى اعتبار ثامون الأشمونيين أسبق من تاسوع هليوبولس وثالوث طيبة ومنف .
أما البعض الآخر فأكد أن صيغة الثالوث أقدم هذه الصيغ على الإطلاق باعتبارها أصل التاسوع والثامون من جهة ، وأكثر الصيغ انتشاراً فى المقاطعات منذ عصر ما قبل التاريخ من جهة أخرى(٤٠) .
وسوف نحاول فى السطور التالية عرض أهم هذه الأشكال دون التقيد بأى من هذين الرأيين .

الثامون المقدس

وقد دعت إليه ضرورة سياسية فى المقام الأول - كما ذكرنا - ألا وهى وحدة هليوبوليس ومنف والمصالحة بين كهنة الإله " أتوم " وكهنة الإله " بتاح " وقد حدث ذلك فيما بين عصرى الأسرتين الثالثة والخامسة وقد صورت الأساطير هذا الثمانى على النحو التالي :-
يعلو الثامون الإله " نون " وهو الخضم الأزلى الذى انبثق منه كل شئ ومن ثم فهو أبو الآلهة فمنه تخرج الشمس يومياً ومن شقه الأنثوى " نونيت " يكونان زوجاً من أربعة أزواج لثامون الأشمونيين هى (حوح وحوحت) ويمثلان صفة اللانهائية و (كوك وكاوكت) ويمثلان الظلام و(آمون وآمونت) ويمثلان اللارؤية (٤١).

الثالوث المقدس

لقد كانت السياسة أيضاً وراء تحديد رأس الثالوث فالمقاطعات القوية هى التى ترفع معبودها للقمة وتجعل ما دونه من المعبودات منبثقة عنه ويعد الثالوث أكثر وأبسط صيغ التوحيد الأسطورية ذيوعاً وهو يجمع بين إله رئيسياً وإلهين محليين أقل شأناً وأثراً منه فيما يسمى بالعائلة الإلهية أو ثالوث الآلهة ومن أشهر الأمثلة على ذلك :- ثالوث منف ويتكون من الإله " بتاح " رب كل الصناعات والفنون وزوجته الربة " سخمت " إلهة القوة والسحر والحرب وابنهما " نفرتم " إله زهرة اللوتس الأزلية .

ثالوث طيبة ويتكون من الإله " آمون " ملك الآلهة وزوجته الربة " موت " الإلهة الأم وابنهما الإله " خنسو " رب القمر .

ثالوث فيلة ويتكون من الإله " خنوم " خالق البشر وزوجته " عنقت " ربة الشلال وزوجته الثانية " ساتت " سيدة النوبة .

ذلك بالإضافة إلى العشرات من الأساطير التى نسجت على نحو ثلاثى حول شخصية أوزيريس .

فمنها من صوره نائباً عن رع وخصماً لست ومنها من صوره ابناً لإله الأرض جب وأخاً لست ، ومنها من صوره أخاً لإيزيس ونفتيس .

وتجمع معظم الدراسات على أن كل أشكال التثليث من انتحال مجمع الكهنة أو بيت الحياة الأمر الذى يؤكد غيبة العنصر الغيبى فى عقيدة التثليث عند المصريين (٤٢) .

التاسوع المقدس

إذا كان الثامون والثالوث قد انتحلهما الكهنة تلبية لحاجة السياسة فإنهم اخترعوا التاسوع للرد على الأسئلة التي طالما وجهها الخاصة قبل العامة إليهم عن الكون ونشأته ، والعناية الإلهية ، ودور الآلهة في صنع القدر فصاغوا التاسوع على هذا النحو :- عندما تكون إله الشمس " أتوم " في المياه الأزلية * " نون " قبل أن تتكون السماء

* لاحظ أوجه التشابه بين " نون " المياه الأزلية وبين المياه الأزلية عند طاليس أول فلاسفة اليونان وبين الآيات التى ذكر فيها الماء فى القرآن الكريم .

والأرض وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة ، فلم يجد مكاناً يقف فيه . ثم وقف فوق تل فشعر بالوحدة فخلق من نفسه رفقاء ليؤنسوا وحدته فتفل بسر كلمتى " إشش " و" تف " الإله " شو " إله الهواء والإلهة " تفونت " ليرمزان معاً للشمس والقمر ويكونان بمثابة عيني حورس ثم انجب " شو " و" تفونت " الإلهين " جب " إله الأرض و" نوت " إلهة السماء وأنجب الأخيران أوزوريس وست وإيزيس ونفتيس .

وقد حكم هؤلاء العالم في أول الأمر قبل أن تتجمع السلطة في يد حورس بوصفهم الآلهة العظام وقد أطلق عليهم تاسوع هليوبولس (٤٣).

التجريد الكامن وراء فكرة التوحيد والتشبيه

استناداً على الرأي القائل بأن وراء آلهة المصريين المحسوسة وحدة منزهة التي تبناها بعض المعينين بدراسة الفكر الديني المصري نسوق بعض من هذه الآلهة التي أضفت عليها الأساطير المصرية صفات ومعاني ترفعها إلى درجة السمو والتنزيه .

وقد اختلف المؤرخون أيضاً حول ظهور تلك الكتابات التى تصف المعبود المصري بالوحدانية والتنزيه رغم تصويره وتجسيده ونحت التماثيل له في معابدهم (٤٤)+(٩٥) .

فذهب بعضهم إلى أن هذه الصفات ترد إلى عصر ما قبل التاريخ حيث الآلهة الشعبية والطور البدائي للديانة المصرية .

بينما يرى البعض الآخر بأن هذه الفكرة منتحلة ولم ترد إلا فى فترة متأخرة سابقة على الغزو اليوناني .

ويرى فريق ثالث أن صفة التوحيد والتفرد كانت تطلقها كل جماعة أو طائفة على معبودها للإعلاء من شأنه وبالتالي لا يقصد بها جمع المعبودات المتعددة فى صورة إله واحد .

فى حين ينأى فريق رابع عن قضية تحديد ظهور فكرة التوحيد وحجته فى ذلك أن النصوص المختلفة ككتاب الموتى وتعاليم آنى وتعاليم بتاح حتب التى ذكر فيها صفات الإله الواحد قد أجرى عليها تعديلات فى حقب زمنية عديدة الأمر الذى يصعب معه التسليم بأصالة هذه الفكرة مع وجود النصوص التى تؤكد الكثرة(٤٥) .

ويرد أنصار هذا الاتجاه فكرة التوحيد لطائفة الحكماء المصريين

وينسبون التحريف والتعديل الذى أجرى على النصوص إلى بعض الكهنة الذين أرادوا التملق لحاكم بعينه أو محاباة إله ما .

ومازالت هذه القضية مطروحة على مائدة البحث العلمي أما بعض النصوص الدينية السماوية فقد أكدت وجود فكرة التوحيد راسخة فى الديانة المصرية منذ الأزل وذلك بفعل الأنبياء الذين نزحوا إلى مصر مثل إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام غير أن الوثائق التاريخية لم تحدد فترة وجود هؤلاء الأنبياء في مصر وإن اعترفت بوجود معابد للعبرانيين وأتباعهم (٤٦).

وها هي أهم المعبودات المصرية التي تمثل هذه الفكرة .

صفات الإله أتوم

فاسم أتوم يعنى التام أو الكامل ولم تبرر وجوده الأساطير بعلة خارجه عن ذاته بل أكدت أنه معلول لذاته وعلة كل الموجودات ومن ثم فهو خالق العالم وقد اندمج بعد ذلك مع رع وعرف باسم آتوم رع .

صفات الإله رع

هو أشهر الآلهة على الإطلاق ويعنى قرص الشمس الكامل وقد نسبوا إليه صفة الأزلية والخلق والأب السرمدي لكل الموجودات الأمر الذى يفسر انتساب أسماء الفراعنة له منذ الأسرة الرابعة - كما ذكرنا - وقد صورته أساطير الكهنة بصورة آدمية فى المعابد التى شيدت له فى " أون " " وهليوبولس " وعين شمس وهو يسافر فى مركبه الإلهى عبر السماء بالنهار وفى العالم الآخر فى الليل . وقد اندمج مع أتوم وآمون فى فترات سيادتهما على المعبودات المصرية .

صفات الإله أمون

وهو من أهم وأعرق وأشهر آلهة مصر القديمة وأعظمها شأناً وأقواها سلطة وذلك بفضل كهنته الذين رفعوه على دونه من سائر المعبودات المصرية - كما بينا سلفاً - وقد وصفته الأساطير بأنه الإله الخفى ولقب بملك الآلهة وقد اندمج مع "رع" إله الشمس و"مين" إله الحصاد وخنوم خالق البشر . الأمر الذى أكسبه صفات هذه الآلهة من قدرة مطلقة وخيرية وخلود . وصُور على هيئة رجل يلبس تاج تعلوه ريشتان ورُمز له بالكبش أو الأوزة (٤٧) .

صفات الإله حو

وهو من أكثر آلهة مصر غموضاً وتجريداً وذلك لأنه يمثل فعل كن وسر الكلمة الأزلية التى تتشكل بمقتضاها الموجودات وهو يمثل مع " حكا " رمز السحر و" سيا " رمز المعرفة والذكاء والقوى الخالقة التى تصحب مركب إله الشمس أثناء رحلتها .

صفات الإلهين رننوت و شاى

ويمثلان قوة القدر والمصير وقد ذاعت عبادتهما فى الدولة الحديثة وصورت الأساطير الإله شاى على شكل آدمى ثم اتخذ شكل ثعبان .

صفات الإلهة ماعت

وهى ابنة الإله آمون وترمز إلى الحق والعدالة والصدق والنظام وهى الأساس الذى خلق عليه العالم .

صفات الإلهة إيزيس

أم الإله حورس وأخت وزوجة الإله أوزوريس وقد وسمت بالغموض باعتبارها ربة قوى السحر والمعجزات والتخفى والتقمص وتمثلها الأساطير بامرأة تحمل علامة العرش فوق رأسها وأحياناً تلبس تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس وأخذت أشكال ومظاهر آلهة مختلفة .

صفات الإله آتون

ويعد بلا منازع ذروة فكرة الألوهية المجردة عند المصريين ويبدو ذلك فى صفاته التى تجعل منه إله أحد أزلى ليس له شريك ولا نسب، قادر قدرة مطلقة خالق كل شئ ترجع له كل الأقدار ومصائر الموجودات بوصفة العلة الفعالة والغائبة لها وهو الحى الذى لا يخبو ولا يموت وقد صورته النقوش فى أول الأمر برأس صقر ثم بقرص شمس بأشعة تنتهى بيد آدمية تمسك غالباً علامة الحياة (٤٨) .

وإذا ما تأملنا تلك الصور المتناقضة فى الظاهر التى تصف آتون

فسوف ندرك الحقيقة التى ما برحنا الإلحاح عليها وتأكيدها منذ بداية هذه الدراسة ألا وهى أن تجسيد الإله عند المصريين لا يعدو أن يكون رمزاً أو تشبيهاً أو إن شئت فناً محسوساً يعبر عن قيم مجردة وغاية أسمى . فها هو آتون الواحد المتفرد فى كل صفاته تُنقش صوره على هيئة محسوسة لا تتناسب مع صفاته المطلقة إلا على سبيل الرمز فالصقر كما كانت تصوره الأساطير المصرية هو ملك السماء البصير والخبير بما يحدث على الأرض وكأن الفنان المصري وجد في هذه الخصال ما يتناسب مع صفات الإله فرمز بها له .

وما يصدق على آتون يصدق على سائر الآلهة الأخرى فيبدو من عرضنا السابق لجلها أنها تعبر عن المثل العليا والقيم المجردة وقد أكدت ذلك الدراسات المعاصرة التي بينت أن كل إله يقترن بقرينين هما البا والكا .

فتعد الأولى أي البا المظهر الخارجي الذي تصوره الأساطير وتعبر عنه النقوش وهو بطبيعة الحال من ابتكار الكهنة أو التصور الساذج للمعاني المجردة للإله وتبدو نشأته في تصوير الروح عند مفارقتها البدن كالطائر الصغير الذي ينطلق من عشه أو زهرة اللوتس التي تتفتح أكمامها فوق سطح الماء أثناء الليل وصورها البعض على أنها ذلك الثعبان الذي يندفع من جحره في غموض باعتباره ابن الأرض .

أما الكا فهي القوى الروحية الغامضة التي تمثل الحياة وهى بطبيعة الحال من الأسرار التي لا يستطيع العقل البشرى إدراكها والوقوف على حقيقتها .

أما مظهر التعدد فهو مجازى أيضاً لتلك الصفات المتعددة الكامنة في جوهر الإله (٤٩)+(٩٦).

وسوف نتبين حقيقة ذلك من صفات الإله التي جاءت في النصوص المقدسة التي كان يتلوها المصريون في صلواتهم لسائر معبوداتهم الأمر الذي يجعل من التعدد مظهراً أو صفاتاً لإله واحد .

* * *

لا نجد من بين الدراسات المعاصرة للنصوص المقدسة المصرية القديمة ما تحدد مصدراً لهاتيك النصوص أو تفسر وجودها وسط ملحمة الآلهة التي تجمع بين الكثرة والتجسيد والوحدة والتجريد فى نسيج أسطوري واحد - كما بينا - .

بيد أن هناك بعض الأبحاث المرتاب فى مصدرها ترد أصولها إلى مصدر إلهي هبط متتابعاً بوحي على أنبيائه الذين سكنوا مصر أو هاجروا إليها ومنهم هرميس * المصرى الذى ورد فى التوراة باسم" خنوخ " ،وذكر فى القرآن باسم إدريس. وإبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام غير أن هذه الكتابات لم تشر بالتحديد إلى العصر الذى ظهر فيه أولئك الأنبياء فى مصر ،وإن كانت هناك بعض الإشارات إلى أن إدريس قد ظهر فى فترة ما قبل التاريخ. بينما إبراهيم ويوسف وموسى قد ظهروا جميعاً فى عصر الهكسوس أى من ١٦٧٥ ق.م إلى

---

* شخصية غامضة ومحيرة فى تاريخ الفكر الإنسانى فنجد من بين الدراسات من تجعله شخصية أسطورية ليس لها وجوداً تاريخياً وتربط بينه وبين الإله تحوت رسول الآلهة ورب فن الكتابة وإله القمر وحامل عصا النوم ودليل الأرواح إلى عالم الموتى عند الأشمونين برباط يجعل منه أحد تجسداتها . ويروق لدراسات آخرى رده للفن الملحمى الإغريقى باعتباره إله التجارة وابن زفس ومايا. وقيل أنه كاهن مصرى كان يتلقى الخبر من السماء، وأن تعاليمه هى المصدر الأول لكل الديانات وأعتبرت الشذرات التى نسبت له كتاباً مقدساً أصدق فى قصصه من التوراة وأعمق فى فلسفته من فكر أفلاطون الذى انتحل بعضها . وهو فى نظر المسيحيين الأوائل أحد القديسيين، وتعده بعض الكتابات الإسلامية إدريساً عليه السلام . وقد اختلفت الدراسات حول مولده ونشأته فذكر بعضها أنه مصرى، وذكر البعض الآخر أنه بابلي هاجر إلي مصر بعد البعثة هرباً من أهل عشيرته الذين جحدوه وراح يهدي في مصر إلي عبادة الواحد الأحد، وتتلمذ عليه الكثيرون في علم الفلك والحكمة وفن الكتابة، وآمن به نفر غير قليل في البقاع التي كان يحل فيها. الأمر الذي مكنه من تخطيط المدن وتقسيم الأمصار وبناء المعابد وتقديم القرابين والأضحيات من خمر ولحم وبخور للإله الواحد الذي بشر به وتنصيب الملوك وأضحت تعاليمه بمثابة الدستور الذي لا يقوي علي مخالفته أحد .

١٥٦٧ ق.م أو فى الدولة الحديثة أى من ١٣٠٤ ق.م ١٠٨٠ ق.م .

وعلى الرغم من تأكيد بعض الدراسات العلمية على وجود الكنعانيين والعبرانيين بمصر فى أحقاب تاريخية مختلفة ، ووجود نبى الله موسى فى عهد رمسيس الثانى إلا أنها لا تخبرنا بتاريخ ظهور الهرامسة . الأمر الذى جعل الفصل فى قضية رد النصوص المقدسة المصرية إلى مصدر إلهى من عدمه معلقاً حتى تتوفر الأسانيد التاريخية - التى تكشف عن علة ذلك التطابق بين نصائح الحكيم المصرى " أمنمؤبى بن كانخت " وبين ما ورد من تعاليم فى سفر الأمثال . وتشابه بعض الأحداث التى مر بها الحكيم والطبيب والمهندس المصرى إمنحوتب (٢٨٧٠ - ٢٦٨٠ ق.م) وكبير كهنة الإله آمون ووزير الملك زوسر . وبين ما روته الكتب المقدسة عن أخبار نبى الله يوسف فكلاهما كان يفسر الأحلام، ويدعو لعبادة الواحد الأحد ، وصرح بأن مصدر علومه يتلقاها من السماء (٥٠) .

وسوف نعرض فى عجالة أهم النصوص المقدسة عند المصريين ولا سيما تلك التى تتحدث عن طبيعة الإله وصفاته .

١- نصائح الكهنة والمصلحين والحكماء

وتتسم هذه النخبة من النصوص بالطابع الأخلاقى الذى يجعل من الألوهية الوازع الأول للسلوك القويم والمصدر الأوحد لكل الفضائل وقد أجمع كتابها على مختلف عصورهم على أنهم أسدوا هذه النصائح إنطلاقاً من إيمانهم بالإله الواحد .

أ- نصائح كاجمنى ٢٦٣٥ - ٢٥٦١ ق.م

وهو حكيم ومعلم شغل كرسى الوزارة فى الأسرة الثالثة وقد قدست أقواله وكتاباته بعد وفاته وراح الكهنة يتلونها فى المعابد ومنها :-

- اسلك طريق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الإله .
- احذر أن تكون عنيداً فى الخصام فتستوجب عقاب الإله .
- أن الإله هو الواحد والحقيقة المطلقة واهب الحياة والنعم وهو الذى لا يحب الفاسدين والمارقين والمحب للطائعين الأبرار وهو الحكيم الذى دبر العالم (٥١).

ب – مواعظ بتاح حوتب ٢٤٨٠ – ٢٤٢٠ ق.م

وهو أبرز حكماء الأسرة الخامسة وقد اعتلى كرسي وزارة الملك " إسيس " الذي أطلق على عصره عصر التقوى والرفاهية وقد حفظ العامة والخاصة نصائحه التي كتبها لولده وراحوا يرددونها باعتبارها الحكمة المثلى في التربية والتدين ومن أقواله :-

- لا يُسمع صرير قلمك إلا بالحق ولا يخط إلا الصدق الذى يفيد الناس ويرضى الإله لأن العلم ونعمة الكتابة هبتان من الإله فلا ينبغى عليك جحودهما .
- أن طاعة الوالدين وإقامة العدل والتواضع والصدق فى القول والتسامح من الفضائل التى أمر بها الإله . وحب الزوجة والكرم والقناعة .

ج- نصائح الحكيم آنى ٢٢٨٠ – ٢٢٤٢ ق.م

وهو آخر حكماء الأسرة السادسة ومن أقواله : -

- اعلم أن الإله واحد ولا تسأل عن صورته لأنك لن تدركه ببصرك ولا تبحث أسرار ملكوت ربك لأن عقلك لن يحصيها .
- طع ربك ولا تعصيه أبداً لأنه شديد العقاب ورؤوف بالمؤمنين .
- صل من قلبك ليقبل الرب دعاءك ويبارك قربانك(٥٢) .

٢- أناشيد الشمس

وهى مجموعة من النصوص نقش معظمها على قبور الكهنة وأكثرها مجهول النسب وأقلها منسوب إلى صاحب المقبرة التى كتبت على جدرانها .

أ- أنشودة " آى "

وهى منسوبة إلى "خبر خبرو رع" الذي حكم مصر في الفترة من (١٣٤٤ - ١٣٤٢ ق.م) وهو أحد الكهان الذين صاحبوا إخناتون وخدموا في قصره وبلغ رتبة قائد الفرسان وبلغ العرش بعد وفاة توت عنج آمون وجاء في أنشودته :-

إن ظهورك جميل في أفق السماء أيتها الشمس أولى الأحياء .
إن أشعتك تحيط البلاد بقدر ما خلقت منها .

أنت بعيد ولكن شعاعك على الأرض نراك ورغم ذلك لا نعرف مسراك.
أنت التي تجعل أحشاء المرأة تثمر وتضع النطفة في الرجل أنت التي تطعم الابن في بطن أمه وتهدئه حتى لا يبكى كمرضع في بطن الأم.
أنت التي تعطى الروح لمن تخلقه حتى تحييه عندما يخرج من بطن أمه في يوم ولادته تفتح فمه للكلام وتقوم بما يلزمه.
كم عديدة هي أعمالك أيها الإله الوحيد الذي لا يوجد آخر الى جواره.
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك أنت فقط برجالها وقطعانها وجميع حيواناتها.
أنت وحيد أنت تشرق في هيئة الشمس الحية عندما تظهر وتتألق تبتعد ثم تعود.
أنت تخلق ملايين الكائنات منك وحدك.
أنت في قلبي ولا يعرفك أحد إلا ابنك الملك أنت تفهمه بطبيعتك وقوتك وكل ما يحدث للعالم فهو بإرشادك لأنك أنت خالقه (٥٣).

ب – أنشودة " سوتى " و" حور"

وهي منسوبة إلى اثنين من رجال العمارة الذين كانا يعملان في بلاط الملك امنحتب الثالث (١٣٩٨ - ١٣٦١ ق.م) وجاء فيها :-
إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك .
ومصور دون أن تصور .
منقطع القرين في صفاته مخترق الأبدية .
مرشد الملايين إلي السبل .
كل الناس تنظر بواسطتك .
أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم .
وأنت أم نافعة للآلهة والبشر .
وأنت صانع مجرب .
وراع شجاع يسوق ماشيته .
وأنت ملجؤها ومانحها قوتها .
وأنت الذي ترى مخلوقاتك .
والسيد الأحد الذي يأخذ جميع من في الأراضي أسرى كل يوم بصفته واحداً يشاهد من يمشون فيها .
ومضيء في السماء كائن كالشمس .
وأنت خالق تخلق الفصول والشهور والحرارة عندما تريد .
ويمكننا أن نلاحظ في النصوص السابقة مدى وعى طبقة الخاصة

المتمثلة فى الكهنة والمصلحين المصريين بطبيعة الإله وكذا مدى إيمان العامة بصفات الإله المنزه عن أى تجسيد ، أو تشبيه . وتيقنهم من أن ما يقدم له القرابين ما هو إلا رمزاً كهنوتياً لذلك الإله المجرد.

والجدير بالذكر أن معظم هذه النصوص قد كتبت فى أحقاب متقاربة وهى الفترة الممتدة من (٢٧٨٠ ق.م إلى ١٣٠٤ ق.م) وهى عين الفترة التي تم فيها الاتصال المباشر بالكنعانيين وديانتهم والأنبياء والعبرانيين (٥٤)+(٩٩).

ومازال هناك عشرات النصوص مجهولة الهوية والتاريخ وجلها تؤكد عقيدة التوحيد . ويبقى السؤال مطروحاً :-

هل عقيدة التوحيد في مصر التي تخللت كل أحقابها التاريخية ترد إلى مصدر إلهي أم إلى أريحية وحكمة المصريين المتدينيين بفطرتهم ؟

* * *

أهم المعتقدات والطقوس

ترتبط العقائد والطقوس المصرية إرتباطاً وثيقاً بفكرة الألوهية بما فيها من إزدواجية بين الكثرة والتجسيد ، والوحدة والتجريد . الأمر الذي يكشف عن اتساق أفكارها ووحدة وأصالة مصدرها ، ويبرر سر خلودها عبر العصور ورسوخها فى الثقافة المصرية رغم تحولها عن المظهر الخارجي للديانة المصرية (٥٥) + (١٠١) .

وسوف نعرض فى السطور التالية لأهم هذه المعتقدات .

عقيدة خلود الروح

تعد عقيدة خلود الروح والبعث من أقدم العقائد المصرية وهى ترتبط إرتباطاً وثيقاً بعقيدة التقمص وعقيدة البعث . إذ كان المصرى القديم يعتقد بأن الروح تختلف عن البدن فى أصلها وصورتها ، فهى لا تمرض ولا تبلى ولا تفنى . بل هى خالدة أبد الدهر تبعاً لطبيعتها الأثيرية . وما الموت إلا رحلة يجب على الروح المضى فيها

بمفردها لتطهر من الآثام التى إرتكبتها برفقة البدن فى حياتها الأرضية ثم تعود ثانية لتبعث الجسد الذى كانت فيه ليصطحبها فى دورة حياتية جديدة وإذا وجدته معطوباً أو فانياً تضطر إلى تلبس جسد أحد الأجنة فى الأرحام (٥٦).

ويكشف ذلك المعتقد عن سر احتفاظ المصريين بأجساد العظماء منهم بالتحنيط . أما العوام فكانوا يدفنون فى الرمال الجافة التى كانت تحفظ الجسد من التلف إلى مدة طويلة، وكان المصريون يضعون ملابس وحلى وأطعمة مع موتاهم بقبورهم إنتظاراً للحظة عودة الروح للبدن، فيبعث الجسد فيجد ما يقتات به ويلبسه ويعينه على إستئناف حياته، وكانت هذه الأشياء تُحرس وتجدد بمعرفة ذويهم وقد استبدلت هذه الأطعمة بقائمة مكتوبة لهذه العطايا .

وقد صورت الأساطير عملية خروج الروح من البدن بصور عديدة منها صعود الروح إلى السماء بسلم علوى عظيم الارتفاع ، أو تعلقها بذيل البقرة السماوية ، أو محلقة كطائر ، أو محمولة فى وعاء من الدخان أو الأثير ، أو فى عاصفة رملية . حتى تبلغ السماء فتبدأ رحلتها من الشرق موطن ظهور " رع " إلى الغرب حيث الإلهة " إمنتت " ربة الغرب وحامية عالم الموتى (٥٧).

وكان المصريون يعتقدون بأن أرواح الأبطال والملوك والكهنة هى التى تُبعث فقط وذلك حتى عصر الأسرة السادسة فبعد هذا التاريخ أصبحت عقيدة البعث تسرى على كل البشر .

وقد تضاربت تفسيرات المؤرخين لاعتقادات المصريين حول الحياة الأخروية وذلك تبعاً للنقوش المتباينة التى تعبر عن هذا المعتقد فبعضها يصور الإنسان يمارس حياته الطبيعية فى عالم الأرواح كما كان يمارسها فى العالم الأرضى . وبعضها تصوره على أنه اتصل بأوزوريس لمشاركته فى حكم العالم الأرضى . ومنها من يصوره مصطحباً الإله " رع " إله الشمس فى رحلته عبر الآفاق خلال النهار، وفى العالم السفلى خلال الليل (٥٨) .

وغاية الخلود عند المصريين هو الاتحاد بأوزوريس .

وكان يعتقد المصريون كذلك بأن أرواح الموتى تحوم فوق مقابرها حيث يرقد الجسد وذلك لمراقبة القائمين على حراستها فتبشر

المخلصين منهم بنعيم الجنة . أما اللصوص أو المهملين فى عملهم فتتوعدهم بالعذاب وبانتهاك أعراضهم، وضياع أموالهم ، وفساد عيالهم . الأمر الذى يفسر حرص المصريين على زيارة المقابر وحمل الطعام والشراب ووضعه فوق مائدة القرابين بجوار اللوحة التذكارية ، التى يدون عليها اسم صاحب القبر . أملاً منهم فى استرضاء أرواح الأجداد ، واتقاء مكائد الأشرار منهم الذين يهددون أمن الأحياء ويقتحمون عليهم منازلهم ليلاً . وكان كهنة المعابد يقومون بدور الوساطة والمصالحة بين الأرواح الشريرة ، وبين من غضبت عليهم من البشر . وذلك بإجراء إتصالاً روحياً بينهم عن طريق بعض التمائم والتعاويذ المكتوبة على ورق البردي أو الكتان أو على سطوح الأواني التي تقدم فيها العطايا للميت التي تمكنهم من محادثتهم ومصالحتهم أي أن الكهنة كانوا على دراية بما نطلق عليه علم تحضير الأرواح (٥٦).

وعلى الرغم من تقديس المصري لأرواح الأسلاف إلا أننا لا نجد ما يؤكد أنهم كانوا يعبدون هذه الأرواح باعتبارها أرباب لهم إلا فى نطاق ضيق ومحدود للغاية تمثله بعض القرى فى الدولة الحديثة حيث كان العوام يصنعون تماثيل نصفية لذوى القرابة الحميمة من أسلافهم ويضعونها فى حنايا حوائط منازلهم .

وقد حاول الكهنة وضع تصور لماهية الروح فذهبوا إلى أنها تتكون من عنصرى " الكا " و" البا " شأنها فى ذلك شأن أرواح الآلهة وأن " الكا " هى إحدى عطايا الإله " رع " التى تفلها مع أول مخلوقاته ،وهى لا تفارق البدن إلا عند الموت. غير أنها تظل تتردد عليه من حين لآخر - كما ذكرنا - لتطمئن على سلامته . ويفسر ذلك اعتبار المصريين القبور داراً لأرواح الموتى . بيد أن عنصر " الكا " ظل مجهولاً وسراً غامضاً لا يعرف عنه شيئاً . فتارة ينظر إليه على أنه ملاك ، أو قوى سحرية ، أو كائن إلهى .

أما عنصر " البا " فهو الذى تتجسد فيه أشكال بعض الطيور ، أو زهرة اللوتس ، أو بعض الحيات - كما ذكرنا - .

وهناك برديات أخرى تقوم بتحديد الصلة بين روح الإنسان وجسده وهى تتصور أن الإنسان يشتمل على ثلاثة قوى هى " آب "

وتعنى الضمير وموطن الحدس القلبى والمعرفة الإشراقية . و" حاتى " وهو القلب المادى الذى يقوم بتغذية البدن . وأخيراً " ران " وهو الاسم الشخصى للإنسان وله وجهان أولهما معلن ، والثانى سرى . يكتب فى قبره لتتعرف الروح عليه عند عودتها إليه .

ويفرق هذا التصور بين " الكا " و" الآخ " فيعتبر الأولى سر حياة البدن والقوة التى تحوم حوله بعد الموت .

أما " الآخ " فهى الروح المطلقة التى سرعان ما تعود بعد الوفاة لتتحد ثانية مع الإله أوزوريس(٦٠)+(٩٨) .

عالم الأرواح والعالم الآخر

لا نكاد نلمح فى العقائد المصرية فرقاً جوهرياً بين عالم الأرواح وبين العالم الأخروي وعالم الآلهة وذلك لأن هذه العوالم تدور حول فكرة مركزية ألا وهى عالم الخلود اللامرئى حيث النعيم والجحيم الأبدي.

وتصوره الأساطير على أنه ينقسم إلى قسمين العالم السماوي والعالم السفلى :- تسكن الأول الأرواح الطاهرة التى تعيش بالقرب من أرواح الآلهة انتظاراً للعود الأبدي أى الاتحاد ثانية برع الإله المطلق ومن اليسير على سكان هذا العالم التجول فى الآفاق أو الهبوط إلى العالم الأرضي وتفقده (٦١).

وتكشف لنا نصوص الأهرام عن تصور المصريين لحياة الأرواح النبيلة والخيرة وتحدثنا عن تحول أرواح الفراعين والأبطال والقديسين من الكهنة إلى نجوم ساطعة وطيور رائعة يمكن للخبير أن يتعرف على أصحابها بالنظر إليها وهى تظل في سعادة وفرح انتظاراً للنعيم الأبدي . في صحبة الإله " تحوت " الذي يحملها في مركبة في نزهة سماوية . أو تأنس بخدمة الإله رع أبى الأرواح السماوية . وذلك بعد تطهرها بالماء بمساعدة الآلهة التي تشرف على منابع النيل . والإله " رع " باصطفاء إحداها لينصبها منصب ملك السماء ويمنحها لقب ابن الإله .

وتغالى بعض الأساطير الشعبية فى قدر هذا الابن المصطفى فتجعل منه إلهاً عظيماً يتغذى على الأرواح السماوية فيفطر بكبارها ، ويتغذى بأواسطها ، ويتعشى بصغارها .

أما الشيوخ والعجائز فيجعلهم لوقود قدوره التي يطهى فيها طعامه (٦٢).

وتحدثنا بعض البرديات عن ألوان النعيم ، التي يحظى بها سكان العالم السماوي حيث أطيب الأطعمة والمشروبات وأفخم الثياب .

وقد تطورت هذه الأساطير لتحمل بين ثناياها أرواح العامة الذين صبروا على المكروه ، وظلوا مؤمنين بالآلهة وملتزمين بمكارم الأخلاق فجعلتهم جميعاً يتحدون بأوزوريس وذلك بعد احتفاء " رع " بوفادتهم إلى عالم السماء وإذلال أعدائهم الذين سكنوا العالم السفلى ثم بعثهم ثانية إلى الحياة فى صور أبنائهم وأحفادهم شأن أوزيريس الذى بعث ثانية وأصبح إلهاً خالداً ، وشأن حورس ابنه الذى قهر أعدائه ولا يعرف على وجه الدقة متى ظهرت هذه الأساطير التى جعلت من أوزيريس أباً لكل الأبرار والأتقياء .

أما العالم السفلى فقد اختلفت حول تصويره الأساطير فوصفته بعضها بأنه عالم الموتى أو عالم الغرب الذى لا تجوبه الشمس إلا ليلاً . ووصفته بعض الأساطير الأخرى بأنه مستقر الأرواح ، التى اقترفت الذنوب والآثام فى حياتها تلك التى تنتظر الفصل فى قضاياها المعروضة على المحكمة الأخروية .

ويفسر هذا الاعتقاد ما جاء فى كتاب الموتى من تعاويذ سحرية وأقوال تتلى أثناء تجهيز الميت للدفن . وكذا فى الطقوس الجنائزية ظناً من أصحابها بأنها تحول بين الميت وبين لدغ ثعابين القبر ، وتعين فاهه على التحدث عند سؤاله، وتحافظ على قلبه من العطب ، أو من الوحوش الضارية وتحمى جسده من التلف والتحلل ، وتهدى أعينه إلى موضع مذبح الإله حتى لا يقع فيه فيدفعه جوعه وظمأه إلى التغذى على برازه وبوله . فهناك أساطير شعبية تصور حياة سكان هذا العالم على أنها هرج ومرج تتقمص فيها الأرواح ما يتناسب مع غرائزها من أجساد حيات أو الصقور أو زهرة اللوتس أو التماسيح أو الإله بتاح أو أشباح وأطياف تجوب الأرض فى النهار وتعود إلى عالم الموتى المظلم فى الليل (٦٣).

وتقدم المعتقدات المصرية إجابة عن السؤال المطروح :- من الذى يحدد مصير هذه الأرواح ؟ وذلك بحديثها عن المحكمة الأخروية تلك التى شغلت قدراً كبيراً من الأساطير الخاصة بالموت

والبعث والعالم الآخر .

فتصف لنا المحكمة التى يتم فيها محاسبة الميت ببهو كبير منقوش على سقفه لهب النيران وعلامات الحق ، ويجلس أوزيريس ويعاونه اثنان وأربعون قاضياً بالإضافة إلى أنوبيس حارس الجبانات ، وأبناء حورس ، وآكل الموتى الذى يجمع فى صورته بين فم التمساح وبطن الأسد ومؤخرة فرس النهر . وفى مقدمة البهو يوضع ميزان عظيم توزن عليه أفعال الميت . ويقوم حورس بنزع قلب الميت ووضعه في إحدى كفتى ميزان الصدق ، الذى يوجد على كفته الثانية ريشة نعام ، أو تمثال جالس لإلهة الصدق " ماعت " وعلى رأسها ريشة نعام . ويقف الإله أنوبيس لمراقبة كفتى الميزان ويقوم الإله تحوت بتسجيل نتائج وزن قلب الميت فى مقابل الصدق وكلما كان القلب ثقيلاً كان يعنى ذلك كثرة ذنوبه وفى حالة تساوى الكفتين فى الوزن يبرأ الميت ويصبح صادق الصوت مثل أوزيريس ويستحق السعادة الأبدية ، وفى حالة كذبه يقوم الوحش بالتهامه * . ولم تحدد الأساطير الفترة الزمنية التى تقام فيها هذه المحكمة هل عقب الوفاة مباشرة أم قبيل البعث (٦٤) ؟

التقمص

لا يمكننا اعتبار فكرة التقمص المصرية البذور الأولى لفكرة التناسخ الهندوسية التى تعتقد تجسد روح الميت فى أبدان حيوانات أو حشرات أو جمادات فى دورات حيوانية يفرضها عليها قانون الكارما - الذى سوف نتحدث عنه بشئ من التفصيل فى الفصول التالية - .

وقد تناول المصريون موضوع مصير الروح بعد الموت وأكدوا خلود الروح وعودتها إلى البدن ثانية لتحيا حياة جديدة بعد فترة من الزمن قدرت بثلاثة آلاف عام تقريباً أثناء هذه الفترة تظل الروح سائحة طلباً للعلم بين العوالم المختلفة (عالم الحيوان والملائكة والجن

---

* قارن بين ما جاء فى الأساطير المصرية حول العالم الأخروى والبعث والحساب وبين ما جاءت به الأديان السماوية حول هذه الأمور . ولاحظ اختلاف فكرة المصريين عن الخلود والحساب والعدالة الإلهية وبين فكرة الكارما الهندية .

والعفاريت) متقمصة أشكال عدة دون أن تنقص أى جزء من خصائصها كروح إنسانية وتظل على هذه الحالة حتى يحين موعد التقائها بجسدها السابق لتبدأ معه دورة حياة جديدة (٦٥) + (١٠٥) .

السحر والتنبؤ والعرافة

لقد تبوأت التعاويذ السحرية مكانة رفيعة فى المعتقدات المصرية وذلك لارتباطها الوثيق بكل أروقة الديانة المصرية ابتداء من الميلاد وحتى الوفاة ومروراً بالزرع والبيع وشتى أمور الحياة فنجد على سبيل المثال إرتباطها بعقيدة الخلود ويتمثل ذلك فى تلك التعاويذ المكتوبة التى تتلى فى الاحتفالات الجنائزية وتستهدف المحافظة على وجود ورفاهية الميت بالقوى السحرية لها وتوضع فى تناول جثمان الميت ليسهل عليه تناولها عند الحاجة إليها . وكتب بعضها على جدران التوابيت ومنذ الدولة الحديثة أصبحت تكتب على أوراق البردى وتودع مع جسد الميت ومن شذراتها تكون كتاب الموتى وكان الهدف من ذلك حماية المتوفى من الجوع والعطش فى العالم الآخر ، والقدرة على التقمص فى مختلف الأشكال الحيوانية ، وتمكينه من الخروج إلى الضوء فى ظلمة المقبرة ، وكذا جلب السعادة فى العالم الآخر . وكانت فى بداية الأمر حكراً على الملوك وأضحت بعد ذلك مشاعاً للجميع . وللتعاويذ فضل فى التخفيف عن الميت في المحكمة الأخروية ، وتعمل كذلك على إعفائه من الأعمال اليدوية الشاقة التى يقوم بها فى العالم الآخر (٦٦)+(١٠١).

وقد ظهر السحر فى سذاجته الأولى مستنبطاً من بعض الأدعية المفترض قبول الإله لها فأصبحت مع الوقت الكلمات التى تسير الأقدار وتمنع حدوث المكاره . وقد طور الكهنة هذا الاعتقاد ولا سيما بعد إقناعهم للعامة بوجود لغة خاصة وكلمات محببة لدى كل إله على حدى .

ويربط بعض المؤرخين بين تعدد المعبودات المصرية وتنوعها ، وبين أشكال الرقى والتعاويذ . إذ كان الكاهن يخترع بعض الشخصيات المقدسة فى حكاياته باعتبارها القوة التى تشفى أو تجلب الخير أو تحمى من الأشباح وأطلق عليها أسماء مختلفة وصفات متباينة حتى أضحت معبودات بمرور الزمن (٦٧) .

وقد لحق بمعتقد السحر العديد من الطقوس لأدائها منها التطهر بماء النيل وغسل الفم بالنطرون والتطيب بنوعين معينين من الزيوت العطرة والتبخر ولبس نعلين من الجلد الأبيض ورسم علامة الحق بمداد أخضر على اللسان والجلوس وسط دائرة مرسومة عليها امرأة وصورة إحدى الآلهة وثعبان منتصب على ذيله ، وغير ذلك من الأمور السرية ثم يقوم الكاهن بتلاوة بعض الأدعية والأناشيد .

أما عن التنبؤ والعرافة فلا يُعرف على وجه الدقة متى ظهرت هذه العقيدة فى الديانة المصرية غير أن المؤرخون يؤكدون أنها قد ازدهرت فى الدولة الحديثة حيث التقرب إلى تماثيل الآلهة للتعبد والتحنث حتى تجيب السائل عن سؤاله أو تلبى له مطلبه أو تلهمه السبيل إلى بغيته . وسؤال الآلهة كان مكفولاً لجميع المصريين فى الأعياد والاحتفالات العامة . أما الملك وبعض الكهنة فيمكنهم الدخول على تمثال الإله فى قدس الأقداس والتحاور معه كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

وكان المصريون يستفتون تمثال الإله فى قضاياهم الشخصية والعامة ، وكان الحاكم يستفتيه فى أمور الحرب وتعيين حكام الأقاليم والموظفين . وكانت تؤخذ الفتوى شفاهة أو مكتوبة :- ففى الحالة الأولى يقوم الكاهن الأكبر بالحديث بلسان الإله أما فى الحالة الثانية فتبدو فى ميل تمثال الإله الذى يحمله الكاهن ناحية كلمة نعم أو لا المكتوبة على ورقة الفتوى (٦٨).

القدر

يرد القدر الإنسانى فى العقيدة المصرية القديمة إلى القوى الإلهية وقد صورته بعض الأساطير المتأخرة فى صورة الإله " شاى " إله المصير والإلهة " إرنوتت " إلهة الحظ وذلك منذ الدولة الحديثة أما المشيئة الإلهية فكانت ترتبط دوماً بأقوى المعبودات فى الأحقاب التاريخية المختلفة فقد وسم كل من " آمون " و" بتاح " و" خنوم " بأنهم آلهة القدر.

وقد اعتقد المصريون بأن الإنسان يشارك فى صنع قدره ، وأنه ليس مجبراً إلى حد سلب إرادته ، وتقييد قدرته فى الاختيار بين الأفعال وذلك لأن الحرية عندهم هى التى تجعل للحياة قيمة ، وتفسر وجود الدين باعتباره المرشد والمعين لصحة الاختيار ، والمبرر

الأوحد للمحكمة الأخروية التى تقضى بالثواب والعقاب تبعاً لميزان الأعمال . ورغم ذلك فكان المصريون مؤمنين باللطف الإلهي . أي تدخل الإله برحمته في تغيير حظ الإنسان الذي كتبته عليه الأقدار وذلك بموجب أفعاله الخيرة واجتنابه الآثام ودعاء والديه (٦٩).

ومن ثم يمارس الإنسان أفعاله من خلال رضا الآلهة وموافقتها << فالبشر يقترحون الأفعال أما الإله فيفرضها >> << الإنسان ينطق بالكلمة أما الأمر فللرب >> .

الخلق وأصل العالم

لقد قدم الفكر الدينى المصرى ثلاث نظريات فى خلق العالم هى نظرية الأشمونيين وهليوبوليس ومنف .

فترد الأولى أصل العالم إلى قوة الإله " نون " وقد اختلف المفسرون حول تحديد ماهيتها فهى المياه الأزلية أو القوة المطلقة للإله الكامنة فى مرحلة اللاوجود وكانت تتسم هذه القوى بأربع صفات هى العمق المطلق ، واللانهائية ، والظلمة الحالكة ، وعدم الوعى .

أما كهنة هليوبوليس فردوا نشأة الكون وعلة الخلق إلى الإله "آتوم" الذى أوجد ذاته من ذاته ثم تفل من كل أشكال المخلوقات زوجين ثم تناسلت هذه الأزواج فظهر البشر والحيوانات والنباتات ....

أما كهنة منف فقد ذهبوا الى أن الآلهة والبشر قد خلقوا بإرادة الإله " بتاح " وبموجب أمر منه خلق تاسوع الآلهة والأرواح الفعالة ، ومن كلمته خلق الإنسان وسائر المخلوقات .

والجدير بالذكر أن معظم الأساطير المصرية ترد أصل الإنسان إلى الطين أو الصلصال - ويبدو ذلك جلياً فى تلك الأساطير التى تتحدث عن الإله " خنوم " الذى خلق الآلهة والبشر والمخلوقات على عجلته الفخارية من طين * .

---

* لاحظ أوجه الشبه بين تصور الأشمونيين لأصل العالم والهيولى عند ارسطو . وقارن بين تصور كهنة هليوبوليس لانبثاق الكائنات عن الإله وبين نظرية الفيض عند إفلوطين . ووازن بين تفسير كهنة منف للخلق وعلة وجود العالم وبين ما أوردته الكتب السماوية فى هذه القضية . وكذا بين أحاديث الأساطير عن أصل الإنسان وبين ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الشأن .

الطهارة

يعتقد المصريون أن غسل الأيدي بالماء كل صباح وقبل الإقبال على الطعام سنة إلهية مستمدة من العديد من الأساطير فالإله " رع " يشرق كل صباح بعد اغتساله فى حقول الحياة بيدي إلهة الماء البارد " كيحووت " وأن الإله أوزيريس بعث بعد تعميده من قبل ابنه " حورس " والإله " تحوت " وأن مياه النيل تتدفق من فوق مقبرة أوزوريس .

وترتبط عقيدة التطهر بعقيدة الخدمة اليومية التى تبدأ باغتسال الكاهن ثم إشعاله البخور وذلك قبل الركوع أمام تمثال الإله فى قدس الأقداس . وتقديم القرابين له (عسل وبخور)، وإنشاد الأناشيد ، ثم يدور من حوله أربع مرات، ويقدم له تمثالاً صغيراً لإلهة الصدق "ماعت"، وأخيراً يقوم بمسحه بالزيت المقدس ويغسله بالماء من أربعة أواني ، ويطهر فمه بثلاثة أنواع مختلفة من ملح النترون ،ثم يقوم بتلوين رموشه، وإلباسه الملابس المرصعة بالجواهر والحلى ويضع على رأسه غطاء الرأس وتقليده الرموز الملكية ، ثم يقدم له الطعام وهو ثور وغزالان وأوزة نيلية وذلك بوضعهم فى المحرقة المقدسة التى تحيل لحومها وعظامها إلى أبخرة ودخان تتغذى عليها أرواح الآلهة * .

وكان الملك يقوم بهذه الأعمال باعتباره الكاهن الأعظم الساهر على خدمة الإله . وذلك بعد اغتساله بالماء بأيدي كاهنين يتقمصان شخصيتي "حورت" و"تحوت" أو "حورس" و"ست" ، وتبخيره وتطهير فمه بملح النترون . وهذا التطهير يجرى أيضاً على المتوفى خلال عملية التحنيط (٧١) + (١٠٤).

الإيمان

لقد ارتبط مفهوم التقوى والإيمان فى الديانة المصرية بطاعة الكهنة وأداء الطقوس وتقديم القرابين المختلفة لصور المعبودات المتباينة فى المواسم والأعياد . وبجانب هذا المفهوم كان هناك مفهوم آخر أكثر عمقاً ونقاءً من سابقه ألا وهو الإيمان الفردي أو ما يمكننا

* لاحظ عنصر النار فى تقديم القرابين فهو يتشابه إلى حد كبير مع الطقوس الهندوسية والزرادشتية والكونفوشية .

أن نطلق عليه مناجاة الإله أو التحنث .

ويبدو ذلك فى بعض البرديات التى تحتوى على العديد من الأدعية والابتهالات . التى كان يرتلها بعض الورعيين من العوام والخواص. وكانت تناجى هذه النصوص الإله باعتباره الأب، والراعي، والهادي، والرازق، وحامى الضعفاء، والمنقذ من الظلم، ومغنى الفقراء، وغافر الذنوب، وشافي المرضى، والحبيب الذى يلبى دعوة من يناديه (٧٢).

وهذه نماذج توضح طبيعة هذه الابتهالات :- << إني أحبك يا إلهي وحبك راسخ فى قلبي وكلماتك تبهجني وتشعرني بالسعادة ، أنت مخلصي ومنقذي يوم الحساب >> << يا إلهي أشكو إليك حالي وأرفع إليك مظلمتي فأنت ناصر الضعفاء ومغنى الفقراء >> << جاء السرور إلى بابي منذ أن تجاوزه الإله افرحوا يا أهل ناحيتي بقدومه فها هو سيدي الحبيب الذي خلقني والذي يشتاق إليه قلبي ليمنحني من عطفه وقوته وقدرته ما أفتقر إليه * >>.

الأعياد

ترتبط الأعياد الدينية عند المصريين بالقصص الأسطوري الذى خطه كهنة العالمين الأرضي السماوي الحافلين بأرواح الآلهة والنجوم والأقمار ومراكب الشمس وغير ذلك من الكائنات الروحية السابحة فى السماء من الشرق إلى الغرب وكان لهذه الأعياد مواقيت ثابتة فمنها الموسمي والشهري والسنوي والمرتبط بحياة الملوك وأعياد ميلاد الآلهة (٧٣). وأشهر هذه الأعياد :-

- عيد " آخت " وهو عيد فصل الفيضان الذى يبدأ من ١٩ يوليو وينتهي فى ١٥ نوفمبر وهو ما يقابل فصل الخريف تقريباً .
- عيد " أيام النسيء الخمسة " وهو الاحتفال بالأيام الخمسة الزائدة عن شهور السنة (٣٠ × ١٢) **

---

* لاحظ أوجه الشبه بين هذه الإبتهالات وأدعية الرهبان والزهاد فى الديانات السماوية .

** ما زال الصابئة المندائيون يحتفلون بهذا العيد فى العراق .

- أما أعياد الملوك فكانت ثلاثة أعياد يوم ميلاده ، ويوم تتويجه ، ويوم مرور ثلاثين عاماً على تتويجه .

ويعد الأخير من الاحتفالات البدائية المرتبطة بالقصص الخرافية (٧٤).

ومن أطرف الأعياد المصرية أعياد الآلهة المحلية والرسمية فكانت أشبه بالمهرجانات والموالد فى أيامنا هذه وكان بعضها يستمر قرابة الشهر . إذ كان يُحمل الإله على أكتاف وأعناق الكهنة ويطوفون به طرقات المدينة ويستقبله الملك ومن خلفه حاشيته ثم رعيته مصطفين ومرتدين أزهى الثياب وتقوم المغنيات والعازفات والراقصات بأداء الطقوس الخاصة لهذا الحفل .

والجدير بالذكر أن معظم أعياد المصريين كانت مرتبطة بمأكولات وملابس خاصة (٧٥) .

التنبؤ والتطير

كان المصري القديم مولع باستشراف الغيب ومن مظاهر ذلك حرصه على تفسير الأحلام ووضع قائمة للأشياء والحيوانات المجلبة للحظ ، والحافظة من الحسد وأخرى جالبة للنحس وتحديد الأيام الميمونة والتعسة ويعنى ذلك أنهم كانوا يتشائمون ويتفائلون تبعا لهذه التكهنات .

وقد وضع الكهنة مؤلفات فى تفسير الأحلام وما زال بعضها موجوداً ويلقى رواجاً واستحساناً لا فى مصر وحدها بل وفى أوروبا وأمريكا أيضاً .

وقد ازدهرت هذه المؤلفات فى العهد اليونانى فجاء فيها :-

فمن يرى نفسه ميتاً يكون طويل العمر ، ومن تسقط أسنانه يموت أحد أقاربه ، ومن يرى نفسه فى المرآة يتزوج زوجة ثانية ، وأكل الخيار يعنى الشجار ، وأكل التين والعنب يعنى المرض

أما عن أيام النحس والحظ فقد أعد لها المصريون قوائماً فعلى سبيل المثال :-اليوم الثانى عشر من أول شهور الشتاء من أيام النحس التى يجب على الإنسان ألا يرى فأرا فيها . أما اليوم الأول من الشهر الرابع للشتاء فهو يوم طيب وتتحقق فيه الآمال والغايات (٧٦) + (١٠٤) .

لقد وحدت الديانة المصرية بين مفهومي النبي والكاهن باعتبار أن كليهما المنوط بمخاطبة الإله والمصطفى من قبله لتبليغ أوامره ورغباته لعباده وهو دون غيره الذى يستطيع التحاور معه واستفتائه فى بعض الأمور .

وقد حظى الكهنة بمكانة رفيعة بين المصريين ويبدو ذلك فى الألقاب التى كانت تطلق عليهم (صاحب البصيرة ، المشرف الأعظم، خادم الإله ، المتطهر) .

وكان الفرعون فى بداية الأمر يقوم بتعيينهم باعتباره الكاهن الأعظم وابن الإله ثم أصبحت وظيفة الكاهن إرثا يتوارثه أبناء وأحفاد الكهنة وكان عملهم فى بداية الأمر قاصراً على حمل تماثيل الآلهة فى الأعياد والاحتفالات الرسمية ، ثم تقديم القرابين لتماثيل الآلهة حيث مقامهم فى قدس الأقداس والمعابد الكبرى ، والإشراف على آداء الطقوس العقدية المختلفة ، ثم تطورت مهامهم إلى التحاور مع الإله واستفتائه وسؤاله البركة والعفو والنصر، وعمل التمائم والتعاويذ السحرية وجمع الهبات للإنفاق منها على المعابد . حتى أضحى لهم ثقل سياسى يهدد الفرعون نفسه (٧٧).

ومن سمات الكهنة التى تميزه عن غيرهم حلق الرأس تماماً والذى يعد أحد مظاهر التطهر منذ الدولة الحديثة فصاعداً ، وارتداء ملابس تغطى معظم أجزاء الجسد ، والامتناع عن تناول بعض الأطعمة ومنها السمك .

أما الكاهنات فكن يقمن بأعمال الرقص والغناء وعزف الموسيقى فى المعبد ، وفى الاحتفالات الدينية . وكان ينظر إلى الكاهنة الكبرى باعتبارها زوجة الإله وكانت تتقمص الإلهة " حتحور " .

وكانت هناك طبقة ثالثة تدعى المطهرين نسبة إلى تطهرهم بالماء الذى كان يصب عليهم قبيل القيام بعملهم فى المعبد وتنقسم هذه الفرقة إلى أربع شعب تسهر على خدمة الإله بالتناوب طيلة العام . وكان الفرعون يقوم بتعيينهم فى أغلب الأحايين (٧٨)+(١٠١).

ولا يعرف للكهنة نظام يحدد درجاتهم وطبقاتهم إلا فى الدولة الحديثة حيث الإرهاصات الأولى للمؤسسة الكهنوتية التى قسمت الكهنة

إلى سبع طبقات ينقسم كل منها إلى أربع درجات تبعاً لطبيعة الخدمة التى يقوم بها الكائن للإله من جهة ومدى علمه بأسرار الآلهة وأصولها والقصص التى نسجت من حولها من جهة أخرى . وعلى رأسهم الكاهن الأكبر ثم يليه كهنة القرابين والمطهرون والمرتلون والراقصون ثم القراء والكتاب ثم الأحبار ومفسرو الأحلام ثم الإداريون .

ولم يكن للرهبان المصريين معابداً تعزلهم عن المجتمع بل كانوا يمارسون الكهانة كوظيفة داخل المعابد وفى بيت الحياة حيث الكتابات المقدسة والعلوم السرية التى تمكنهم من رعاية حقول العلم الإلهي المقدس .

وقد نيط بالكهنة الكتاب والقراء مهمة تدوين أهم الأحداث التاريخية والاكتشافات العلمية فى سجلات وحفظها فى مكتبات المعابد (٧٩).

* * *

المجترؤن والملحدون

لقد حال تدين المصريين وإيمانهم الراسخ بالألوهية بينهم وبين ظهور حركات إلحادية بمعنى إنكار الربوبية وجحود القيم الدينية وعلى ذلك ينبغى علينا أن ننظر إلى كل الحركات الإلحادية التى ظهرت فى الديانة المصرية على أنها حركات إصلاحية ضد الفكر الدينى السائد . وسوف نستعرض فى عجالة أهم هذه الحركات :-

المرتابون

يبدو أن حركة الارتياب كانت متفشية فى طبقة المثقفين وذلك واضح فى كتابات الحكماء من أمثال بتاح حوتب الذى كان ينظر إلى أساطير الكهنة على أنها مجرد حكايات لتسلية العوام وتقريب صورة الإله وصفاته لأذهانهم . ذلك فضلاً عن أناشيد الشمس التى عرضنا جانباً منها فى الصفحات السالفة التى تعبر عن عزوف أصحابها عن كل صيغ التجسيد والتعدد (٨٠).

بيد أن المثير للدهشة وجود سمات الارتياب والتشكك بين العوام ولاسيما بين أولئك الفقراء الذين لا هم لهم إلا العمل والكد من أجل

إسعاد ذوى السلطان نظير لقيمات معدودة لتلبية صرخات البطون الجائعة فها هو أحدهم يتساءل متهكماً << أين البعث المنتظر فما تزال أجسامنا تذهب وأخرى تشغل أمكنتها ، منذ عهد الأجداد الأولين، ومازال الملوك راقدين فى أهرامهم لم يصعدوا للسماء فلم يتحولوا إلى آلهة لم يعد أحد من الذين ذهبوا إلى العالم الآخر لينبئنا عما يجرى هناك ويخبرنا عن حاجة سكان هذا العالم ومصير القرابين التى ندفعها إليهم حتى تطمئن قلوبنا إلى اللحظة التى سنذهب فيها إلى حيث ذهبوا وما دمنا نجهل كل شئ فعلينا أن نسير وفقاً لرغباتنا التى نعرفها فهى وحدها التى تبعث فينا السرور >> ويتساءل من جديد << هل أوزيريس يسمع الولولة ، نحيب النساء وتضرعات أهل الميت للإله كى يرحمه ، وهل تستجيب لها محكمة القبر * كلا فلا أحد يستمتع بثروته بعد فنائه، ولا أحد يخرج من تحت الثرى >>

ومن المتشككين ذلك الحكيم الذي لقب نفسه بكاره البشر الذي ينسج قصص أسطوري يتهكم فيه على المعتقدات والشعائر والطقوس الجنائزية وينقض فكرة محكمة القبر ومصير الروح بعد الموت وذلك ردا على تلك الأساطير التي تفنن الكهنة في اختلاقها فتخيل هذا المتشكك أنه مات ولم يجد من يقيم له الشعائر الجنائزية ويوصله للقبر. فراح يتحاور مع روحه التي انفصلت عنه بهذا الشأن واقترح عليها أن يحرق بدنه بدلاً من دفنه غير أنه تذكر أن مثل ذلك الصنيع سوف يحرمه من المثول أمام محكمة القبر . ثم اقترح عليها أن تحمله وتدفنه بأي مقبرة من مقابر العظماء لينعم بالموائد المبسوطة أمام جثة صاحبها أو يأخذ من قربان ذلك العظيم ليطعم الفقراء الجياع من الأحياء فذكرته بوجود روح صاحب المقبرة المتقمصة بجسد الثعبان الذي يقوم بحراسة متاع الميت وعدته وعتاده فاقترح عليها يائساً أن يبعث في الحياة ثانية ليشقى من جديد ما دام الطريق لعالم الموتى أكثر شقاءً (٨١)+(١٠٣).

ويغلب على هذا الاتجاه الإرتيابى الشكل اللاأدرى للإلحاد ويقرب كذلك من الشكل الربوبى الذى يؤمن بوجود إله مع الكفر بالعقائد

---

* قارن بين محكمة القبر عند المصريين وبين ما كُتب عن عذاب القبر فى الفكر الإسلامى .

والشرائع والمعارف الغيبية .

هرطقة إخناتون

من الخطأ الاعتقاد بأن غضبة الكهنة على إخناتون ووسمه إياه بالمهرطق ، ومجرم آخت آتون (قرص الشمس) إلى دعوته للتوحيد وعبادة الإله المجرد وذلك لأن هذه الدعوة طالما أكد عليها الحكماء وبعض رجالات الحكم بل وبعض رجال من الكهنة أنفسهم - كما بينا سلفاً - وذلك منذ عهد أمنوفيس الثالث (١٤١١- ١٣٧٥ ق.م) حيث ظهور جماعات ترغب عن عبادة صور الإله المجسدة فى التماثيل والصور والنقوش ، ونزعت إلى عبادة صورة رع المجردة (ضوء الشمس) دون أى إضافات (٨٢) .

بل إن العلة الحقيقية لتآمر الكهنة على إخناتون ترجع إلى اضطهاده لديانة آمون ، التى يمثلها الكهنة . ولا يعنى ذلك سوى ضياع هيبتهم وسلب أموالهم ، وزوال سلطانهم .فلم تكن القضية إذن عبادة " آمون " أو " رع " أو " آتون " فكلها مسميات لحقيقة واحدة ، طالما أكدت عليها الأساطير ، وصورة لإله واحد متعدد الأسماء والصفات (٨٣).

فقد نادى إخناتون بعبادة إله واحد مجرد منزه عن التجسيد والتشبيه، متعال عن دونه من سائر الموجودات ، كامل جميل قديم ليس له مثيل أو شريك.وقد صوره باعتباره جوهراً سماوياً فى شكل قرص الشمس ، تخرج منه الأشعة منتهية بأيدى بشرية، تحمل كل يد منها العلامة الهيروغليفية الدالة على الحياة وهى تكاد تلامس أنف الملك أو أعضاء عائلته مكونة من زوجته الملكة نفرتيتى وبناته الأميرات (٨٤).

ومن أشهر صفاته التى نعته بها (الإله الطيب الذى يحب الحق سيد السماء والأرض آتون الكبير الحى الذى ينير القطرين) (الحى رع حور أختى رب الأفقين الذى يبتهج الأفق باسمه شو الذى هو آتون) .

وقد شيد لعبادة هذا الإله مدينة تقع بين مدينتى طيبة ومنف ، وهى تل العمارنة وأطلق عليها إخناتون أى (أفق آتون) وقام بمحو اسم آمون من على المعابد والآثار وأطلق على نفسه لقب إخناتون (أى المفيد أو المرضى لآتون) بدلا من إمحوتب الذى كان يعنى آمون راضى ، وأقام الهياكل المختلفة لمعبوده الجديد ، وأزال صيغة الجمع لكلمة إله من النقوش التى نحتت على المعابد ، وبدل اسم زوجته من

نفرتيتى إلى " نفر نفرو آتون " (أى جميل هو بهاء آتون) ، وأنكر رحلة الشمس من الشرق إلى الغرب ولم يتحدث عن مستقرها ليلاً وتجاهل المراسم الجنائزية ومحكمة الموت والأساطير التى تصور العالم السفلى ومملكة أوزيريس وفى العام العاشر من حكمه أسقط اسم حورس من اسم الإله الجديد وأصبح (رع الحى حاكم الأفقين متهللاً فى الأفق فى اسمه رع الأب الذى تجلى مرة أخرى كآتون) وبذلك اختفت الرابطة الأخيرة التى كانت تصل الديانة الجديدة مع الديانة القديمة كما أفصح بأن كل التعاليم التى يأتى بها ما هى إلا إلهامات ووحى يأتيه من أبيه آتون(٨٥) .

وقد اختلف المؤرخون حول تقييم دعوة إخناتون فاتهمها البعض بأن إخناتون لم يستطع تخليصها من المسحة الوثنية أو شكل الثالوث الإلهي المتمثل فى " آتون المجرد " و" آتون المعبود " الذى لقب (بآتون الحى فى بيت آتون فى تل العمارنة) وأخيرا ابن آتون الذى يمثله إخناتون نفسه بوصفه الابن الأبدي للشمس (٨٦).

وإذا ما نظرنا إلى هذه الأقانيم الثلاث فسوف نجدها متناقضة مع صلب عقيدة التوحيد التى دعى اليها إخناتون الأمر الذى يدفعنا إلى رفض هذا التفسير فلو كان إخناتون قد نصب نفسه إله وجعل لمدينته إلها محلياً على غرار آلهة المدن السابقة عليه ما تعرض لاضطهاد الكهنة وغضبة العوام فكان من اليسير عليه الاعتراف بإلهه المحلى وتقديم القرابين له بجانب الآلهة المعبودة وعبادته هو أيضا باعتباره الفرعون الملك شأن أسلافه .الأمر الذي يهدم دعوته من أساسها والأصوب عندنا هو تأويل صفة ابن آتون على أنها (ذلك الذى يحى من الحق وذلك الذى يعرف اسم آتون) وهى إحدى الصفات التي وصف بها إخناتون نفسه . أما إطلاق اسم آتون على مدينة تل العمارنة فالقصد منها أن تكون رمزا للمملكة ذلك الإله المطلق الذى لا يحد ملكه حدود على الأرض .

وتصبح بذلك حركة إخناتون حركة إصلاحية لا نصيب للإلحاد فيها إلا ضد الفكر الديني السائد (٨٧) *

---

*قارن بين الأقانيم الثلاثة لآتون وبين أقانيم الثالوث المقدس فى المسيحية .

تعقيب

إن اعتقاد بعض المؤرخين بوجود رسل للقوي العليا يبلغون أخبارها للبشر اعتقاد فاسد وذلك لأن الله وحده هو المتفرد في اصطفاء الرسل وتكليفهم بإبلاغ أوامره ونواهيه للبشر . ولا اعتداد بما قاله البعض بأن ثمة رسل وأنبياء لغير الله من الشياطين والقوي الغيبية الأخرى لأن الله قد عصم رسله من هذه القوي الأخرى . قال تعالي: **{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}** (الأنبياء الآية ٢٥) .

إذا كان العلم لا يقطع بوجود أنبياء ورسالات لقدماء المصريين من عدمه ، فإن القرآن لا ينفي بل يؤكد وجود أنبياء ومرسلين لسائر الأمم الغابرة علي وجه العموم قال تعالي:**{إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ}** (فاطر الآية ٢٤) .

فأسلوب الحصر في الآية يفيد قطعاً بوجود أنبياء ومرسلين لدي كافة الأمم حتى لا يبقي للناس علي الله حجة بعد الرسل.

وأضف إلي ذلك أن الله أوجب علينا الإيمان بكل رسله دون حصر أو تحديد إلا ما ورد ذكرهم في القرآن . وقد قرر علماء العقيدة أن الإيمان بالأنبياء والمرسلين يأتي علي وجه التفصيل فيما ورد ذكرهم ويأتي علي وجه الإجمال فيما لم يرد فيهم نص مفصل .

قال تعالي :**{وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىَ تَكْلِيماً}** (النساء الآية ١٦٤).

وعلي الرغم من إيمان المصريين بفكرة الوحدانية واتخاذهم من التجسيد والتعدد مظهراً لعبادة إله واحد لا يمكننا القطع بسلامة معتقدهم واتفاقه مع روح الإسلام بخاصة ن والديانات السماوية بعامة. وذلك لأن التجسيد والتعدد يعد مظهراً من مظاهر الشرك وإن كمن وراءه مبدأ الإله الواحد المجرد .

هذا المظهر الذي جاء كل الرسل من اجل نفيه وإبطاله قال تعالي : **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىَ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** (الأعراف الآية ٥٩) .

بيد أن أمانة البحث قد دفعتنا إلي ذكر آراء الباحثين كما هي حيال هذه القضية دون تدخل منا . ونريد من ذلك إثبات أن فكرة التوحيد كانت موجودة جنباً إلي جنب مع فكرة التجسيد والتعدد التي تعد في رأينا مجرد انحرافاً عن عقيدة صحيحة سابقة .

وهذا يتفق مع ما قررناه سلفاً من جواز وجود أنبياء ورسل في الأمم الغابرة .

مراجع الفصل الثاني

مرتبة حسب ترتيب الورود

(١) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محمد أنور شكري ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧، ص٤، ٥.

(٢) محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٥، ص٦ .

(٣) يارو سلارف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ترجمة أحمد قدرى ، مراجعة محمود ماهر طه دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٦، ص٦٩، ٧٤.

(٤) بيير مونتيه : الحياة اليومية فى مصر ، ترجمة عزيز مرقس منصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧، ص٤١، ٦٠.

(٥) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص١: ١١.

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٥: ٤٧.

(٧) سليم حسن : مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠، الجزء الأول ، ص٢١٧.

(٨) محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان ، ص١٤.

(٩) جيمس هنرى برستد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسى ، ترجمة حسن كمال ، مراجعة محمد حسنسن العمراوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة :١٩٩٩، ص٦٨.

(١٠) سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الأول، ص٢٣٨: ٢٤٠.

(١١) نفس المرجع ، ص١٤٦: ١٥٠.

(١٢) نفس المرجع ، ص٢٣١: ٢٣٦.

(١٣) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة، ص٥٦: ٥٨.

(١٤) ت . ج . هـ جيمز: كنوز الفراعنة، ترجمة أحمد زهير أمين، مراجعة محمود ماهر طاهر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص١٩٠: ١٩٢.

(١٥) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص٦٦: ٧٠.

(١٦) نفس المرجع ، ص ١١٩، ١٢٠.

(١٧) سليم حسن : مصر القديمة ، ج٤، ص٦٥: ٦٧.

(١٨) نفس المرجع ، ج٥، ص٢٩٣: ٣٢٢.

(١٩) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص٨٥: ٨٧.

(٢٠) أدولف إرمان ، ديانة مصر القديمة ، ص١٤٩: ١٥٣.

(٢١) سليم حسن: مصر القديمة، ج٦، ص٥٠٣،٤٧٦،٤٧٥: ٥٠٦.
(٢٢) نفس المرجع ، ج٧، ص٦١٩: ٦٢٥.
(٢٣) أمين الخولى ومحمد مصطفى زيادة ، وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية : مكتبة مصر ، القاهرة ، ب ت ،ج٢، ص٢٩، ٣٠، ١٨٦.
(٢٤) ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة ، ص١٧٦: ٢٠٩.
(٢٥) أمين الخولى ، محمد مصطفى زيادة ، تاريخ الحضارة المصرية ، ج٢، ص٥٣٧.
(٢٦) فرانسوا دوماس : آلهة مصر ، ترجمة زكر سوس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦، ص١٣.
(٢٧) نفس المرجع ، ص ١٧: ٢٢.
(٢٨) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص٢٨.
(٢٩) جيمس هنرى برستيد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى العصر الفارسى ، ص٦٧.
(٣٠) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة عبد الفتاح مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ع ١٧٣، مايو ١٩٩٣، ص٥١.
(٣١) نفس المرجع ، ص٥١.
(٣٢) فرانسوا دوماس : آلهة مصر ، ص١٣: ١٦.
(٣٣) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص١٤: ٢٦.
(٣٤) نفس المرجع ، ص٢٢٩ ، ٢٣٧.
(٣٥) نفس المرجع ، ص ٢٢٤، ٢٢٧.
(٣٦) نفس المرجع ، ص٢٢٨.
(٣٧) نفس المرجع ، ص٢٢٧، ٢٣٠.
(٣٨) نفس المرجع ، ص٢٣٤.
(٣٩) نفس المرجع، ص٦١.
(٤٠) سليم حسن : موسوعة مصر القديمة، ح١، ص٢٥٩، ٢٥٥.
(٤١) خزعل الماجدى : الدين المصري ، سلسلة التراث الروحي للإنسان، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٩ ، ص١٣٩.
(٤٢) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٦٣: ٦٥.
(٤٣) خزعل الماجدى ، الدين المصرى ، ص١٣٩، ١٤٢.
(٤٤) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص٦١.
(٤٥) نفس المرجع ، ص ٩٣: ٩٨.
(٤٦) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص٤٩.

(٤٧) ت . هـ . ج جيمز ، كنوز الفراعنة ، ص ١٨٨.
(٤٨) ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ، ص١٠٧.
(٤٩) نفس المرجع ، ص١٠٤.
(٥٠) فرانسوا دوماس : آلهة مصر ، ص١١٨، ١١٩.
(٥١) نفس المرجع ، ص١١٨، ١٢٠.
(٥٢) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص٢٢٣.
(٥٣) نفس المرجع ، ص ٢٣٠، ٢٣١.
(٥٤) نفس المرجع ، ص٢٢٤.
(٥٥) نفس المرجع ، ص٢٢٩.
(٥٦) نفس المرجع ، ص ٢٣١، ٢٣٣.
(٥٧) نفس المرجع ، ص٢٣٥.
(٥٨) نفس المرجع ، ص٢٥٥.
(٥٩) نفس المرجع ، ص٢٢٣.
(٦٠) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ٢٣٥، ٢٣٧.
(٦١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٨٥، ص٤٠.
(٦٢) نفس المرجع ، ص ١٠٨، ١٥٧.
(٦٣) ابن كثير : قصص الأنبياء ، دار نهر النيل ، الغربية ، ١٩٨١، ص٢٩٦: ٣٤٨.
(٦٤) سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، ح٩ ، ص٤٩٢.
(٦٥) نفس المرجع ، ح٩ ، ص٤٩٢: ٥٠٠.
(٦٦) ت . ح . هـ جيمز : كنوز الفراعنة ، ص١٢٩.
(٦٧) عبد الحميد درويش : الفلسفة فى مصر القديمة من امحوتي إلى أخناتون، تصدير عاطف العراقى مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٨، ص١٢: ١٤.
(٦٨) نفس المرجع ، ص١٦، ١٧.
(٦٩) نفس المرجع ، ص٢١: ٦٤.
(٧٠) ادولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص١٧٩، ١٨٠.
(٧١) عبد الحميد درويش : الفلسفة فى مصر القديمة ، ص٧٥.
(٧٢) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٨٢.
(٧٣) نفس المرجع ، ص ١٢٧: ١٢٩.
(٧٤) سليم حسن : موسوعة مصر القديمة ، ح٥، ص٢٩٥، ٢٩٦.
(٧٥) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ١٩٧٠، ص١٤.

(٧٦) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة ص١٠٧: ١٢٩.
(٧٧) جعفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٥٩
(٧٨) بيير مونتيه : الحياة اليومية فى مصر ، ص٤٤٣: ٤٤٥.
(٧٩) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص١٣١،١٣٠.
(٨٠) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص٢٣٥، ٢٣٨.
(٨١) خزعل الماجدى : الدين المصرى ، ص١٨٢، ١٨٦.
(٨٢) نفس المرجع ، ص١٩١، ١٩٢.
(٨٣) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص٢٣٨، ٢٥٢.
(٨٤) نفس المرجع ، ص٢٥٢، ٢٥٦.
(٨٥) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص١٢١.
(٨٦) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، ص١٤، ١٥.
(٨٧) ياروسلاف تشرنى:الديانة المصرية القديمة، ص١١٩: ١٢٧.
(٨٨) أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ص٣٢٩: ٣٣٩.
(٨٩) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة،ص١٠٠، ١٠١.
(٩٠) نفس المرجع ، ص٦٦: ٦٨.
(٩١) نفس المرجع ، ص٤٩: ٥٤.
(٩٢) خزعل الماجدى ، الدين المصرى ، ص٤٧.
(٩٣) ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ، ص١٣٥: ١٤٠.
(٩٤) أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ص١٥٨: ١٦٠.
(٩٥) خزل الماجدى : الدين المصرى ، ص٢٤٤: ٢٥٥.
(٩٦) سليم حسن : موسوعة مصر القديمة ، ح١، ص٢٢٣، ٢٤٤.
(٩٧) أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ص٣٤٨: ٣٥٠.
(٩٨) ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة ، ص ١٦٠، ١٦٤، ٢٣٧.
(٩٩) خزعل الماجدى : الدين المصرى ، ص١٤٢ : ١٤٦.
(١٠٠) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ص٧٩، ٨٠.
(١٠١) جيمس هنرى برستيه : تطور الفقر والدين فى مصر القديمة ، ص ٢٦٧ : ٢٨١.
(١٠٢) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص١٢٥، ١٤٨.
(١٠٣) ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة ، ص٨٢، ٨٣.
(١٠٤) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص١٤٠، ١٤٣.
(١٠٥) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة ، ص ٨٣، ٨٤.
(١٠٦) سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة ، ج٩، ص ٤٤٠ .

الفصل الثالث

الديانة الهندوسية

النشأة والتطور

من العسير رد أصول الديانات الهندية إلى مصدر واحد أو إلى ثقافة بعينها . ويصعب كذلك تحديد الفترة الزمنية التي نشأت فيها هذه الديانات . غير أن الأبحاث الشرقية المعاصرة تؤكد وجود مؤثرات فارسية وسومرية في العقيدة الفيدية ، التي تعد الأصل العام لكل الديانات الهندية . وقد استشهد أصحابها بمواطن الشبه بين الديانات الثلاث : (الفارسية ، السومرية ، الهندية) وكذا صفات الإله وطبيعته، وبعض طقوس وطبيعة القرابين . ولعل ما يميز الديانات الهندية عن شقيقتيها الفارسية والسومرية هو الاعتقاد بالدورات اللانهائية لحياة الأرواح ، ذلك الذي تميزت به هذه الديانات ، وهو يعد إضافة على كتاب الهندوس المقدس (الفيدا) (١) .

بينما يرد بعض الباحثين نشأة الديانة الهندوسية إلى عنصرين أساسيين . أولهما : المعتقدات والتقاليد للدرافيديين أولئك الزنوج الذين سكنوا الهند قبل ٥٠٠٠ عام ق . م .

أما العنصر الثاني : فهو ثقافة الآريين * التي جمعت بين العادات والتقاليد الأوروبية والأسيوية وذلك منذ ألفين سنة قبل الميلاد . ويرد فريق ثالث الأصول العقدية الهندوسية ولا سيما المعتقدات الخاصة

---

* الآرية مشتقة من لفظ آرى وهو لفظ سنسكريتى ويعنى النبيل .
أستخدمه الهندوس لتمييز أنفسهم وغيرهم من الشعوب التي تتكلم اللغات الهندية الإيرانية، ثم أطلق على اللغات الهندية الأوروبية الأخرى . وشاع استخدامه في الكتابات غير العلمية عن الأجناس البشرية .وقد أختلف الباحثون على موطن الآريين ونشأتهم فيردها البعض إلى منطقة إريانا فايجو بفارس المتاخمة لبحر قزوين التي ذكرت في كتب زرادشت وأنهم دخلوا الهند عام ١٥٠٠ ق . م وقد حرم الآريون الغزاة الأختلاط بالدرافيديين فى بداية الأمر ليحافظوا على نقاء سلالتهم غير أن ذلك لم يدم طويلا فسرعان ما تناسلوا وتبادلوا معارفهم وعلومهم . بينما ينزع ماسون أورسيل مدير مدرسة الدراسات العليا فى باريس إلى أن الآريين كانوا يعيشون في وادي الدانوب بوسط وجنوب شرقي أوروبا وأنهم قد عبروا مضيق البوسفور بسبب قحط أصاب أراضيهم حتى وصلوا بلاد فارس واستوطنوها فترة وانطلقوا منها لغزو البنجاب بشمال غرب الهند . أما الآريون الذين آثروا البقاء في الدانوب قد انتشروا في أوروبا ومنهم السيلت والجرمان والسلاف واللاتين والهيلين .

بعالم الأرواح ووحدة الوجود الى حضارة وادي السند التي ظهرت نحو عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وذلك بمؤثرات مصرية وسومرية . ويستندون فى ذلك على تشابه آثار الهندوس من أواني وأسلحة ومجوهرات وأثاثات وأختام منقوشة ودمى وبعض الأناشيد التى كانت تتلى فى الطقوس الدينية ، ذلك فضلا عن التشابه الواضح بين نظرية خلود الروح عند المصريين وبينها عند الهندوس .

وتتفق معظم الدراسات على أن كتاب الفيدا لم يكتبه شخص بعينه وأنه ليس كتاب سماوياً . وترده إلى الآداب الشعبية الهندية وشعراء وحكماء الهندوس الذين ما برحوا يضيفون عليه من أشعارهم ومأثوراتهم تبعاً للثقافة التي كانوا يعيشونها في الأحقاب التاريخية المختلفة . الأمر الذي ساهم في تطور تلك الديانة وحافظ على بقائها رغم تأثرها بالثقافات التي تعاقبت عليها .

ويبدو أن تعاليم الفيدا الساذجة لم تدم طويلا فسرعان ما أدرك ذووها أن تعاليمها فى حاجة لأثواب أسطورية لتحفظها من جهة ، وتيسر تعاليمها من جهة أخرى . فظهرت العديد من الأساطير التى تصور حياة الآلهة ونشأة الكون ومصير الأرواح وقصة النار المقدسة .

وفى القرن الثامن قبل الميلاد أدرك بعض الحكماء أن ديانة الفيدا في حاجة لنظام كهنوتي لتنظيم طقوسها وسن شعائرها وإقامة معابدها فظهرت طبقة البراهمة * (٢) .

وقد حاول حكماء الهندوس صون دياناتهم من العطب والبوار عقب ظهور الحركات الإلحادية المتمثلة في الديانة الجينية والبوذية – التي سوف نتناولهما بشيء من التفصيل فيما بعد – وذلك بقوانين " المانوشا سترا " في القرن الثالث قبل الميلاد وهى عبارة عن شرح للفيدات ، وتبين معالم الهندوسية ومبادئها وأسسها وتنسب إلى " مانو " المشرع ذو الشهرة الأسطورية .

وإذا ما تتبعنا تطور المعتقدات الهندوسية لا نكاد نلمح أثراً للديانتين اليهودية والمسيحية عليها . فى حين يؤكد جفرى بارندر أن

---

* البراهمة أسم يطلق على مجموعة من الحكماء وزعموا أنهم خلقوا من فم الإله براهما ومنهم المعلم والكاهن والقاضي ، وهم ملجأ الجميع فى حالات الزواج والوفاة ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم .

الديانة الهندوسية فى العصر الوسيط كادت أن تزول بفعل تعاليم الإسلام الذى اعتنقه خمس سكان شبه القارة الهندية . ويرى أن آراء صوفية الفرس ولا سيما نظرية العشق الإلهي ووحدة الوجود كانت وراء إقبال الهندوس على الإسلام . وذلك لتشابه هذه الآراء بأصول الأساطير الفيدية حول نشأة الكون ووجود الموجودات . وتعد حركة " بختى " فى مذهب الفشنية خير شاهد على تأثر الهندوس بصوفية الإسلام ، إذ نهجوا نهجهم فى تلاوة الأوراد، وإقامة الخلوات ، وتنصيب المعلم أو الشيخ أو القطب (٣).

ذلك فضلاً عن ظهور الديانة السيخية فى القرن الخامس عشر الميلادى على يد ناناك وهى تعد من الحركات الهندوسية التى حاولت الجمع فى تعاليمها بين الأصول الهندوسية والمعتقدات الإسلامية بعد أن زعم مؤسسها أنه رأى الرب وبشره بنسخ هاتين الديانتين فى دين السيخ الجديد وقد ساهمت الفلسفات الهندوسية الحديثة فى تقويم بعض المعتقدات الفيدية من جهة ، وإرساء دعائم ديانة هندوسية جديدة تجمع بين أصالة تعاليم الفيدا وبعض طقوس البراهمة وجانب كبير من المعتقدات الإسلامية من جهة أخرى .

ويبدو ذلك بوضوح في جمعية " أريا سماج " التى أسسها " ديننداسارسفتى " عام ١٨٧٥ . وفى تعاليم " كيشاب شادراسن " الذى كان يعتبر اعتناق المسيحية أو الإسلام خيانة للقومية الهندوسية وزعم عام ١٨٧٩ أنه تلقى وحياً من السماء أنبأه فيه الإله بنسخ جميع المعتقدات والديانات السابقة فى ملة البراهما الحديثة . وظهرت عقب ذلك العديد من الجمعيات المعاصرة التى تؤمن برب السموات وعزفت عن عبادة الأوثان والأيقونات منها جمعية " راما كرشنا " التى مازالت تبشر بالهندوسية ، وتصلح من معابدها وطقوسها ومعتقداتها محاولة التوفيق بينها وبين ثقافة العصر .

وفى أخريات القرن التاسع عشر إنتشرت ديانة الثيوصوفية فى الهند وكانت ترمى الى الدفاع عن المعتقدات الروحية ضد هجمات الفلسفات المادية الإلحادية وجمعت فى تعاليمها بين عقيدة تناسخ الأرواح والنظريات العلمية الحديثة التى أثبتت وجود عوالم غير منظورة فى الكون (عالم الجن والملائكة) وقد إزدهرت هذه النحلة

على يد " آنى بزنط " رئيسة المؤتمر الوطنى الهندى عام ١٩١٧ خلفا لمؤسسة جمعية الثيوصوفية الأمريكية مدام بلافتسكى .

وعلى الرغم من هذا التطور الذى طرأ على الديانة الهندوسية ، مابرح الهندوس يرددون أشعار الفيدا ويعلمون أبنائهم طقوس البراهمة ويروون لهم جوانب غير قليلة من أساطيرهم العريقة (٤) .

* * *

مفهوم الألوهية

لقد جمع الهندوس فى فكرتهم عن الإله بين العديد من الصور والصيغ التى عُرفت فى الثقافات الغابرة . ويبدو ذلك بوضوح فى أساطيرها التى جمعت بين فكرة الوحدة والكثرة والتجريد والتجسيد، وخلطت بين اللاهوت والناسوت الأمر الذى جعل من هذه الديانة مزيجاً ثرياً من الخيال المفعم بالقصص الأسطورى والنسق الفلسفى .

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم على مصدر فكرة التأليه الهندوسية . فذهب البعض الى أنها من نتاج شعراء وحكماء الهند القدامى، أولئك الذين قاموا بكتابة الفيدا فى أحقاب متعاقبة على مر ثلاثة آلاف عام .

ويرى البعض الأخر أن معظم أفكار الهندوس عن الآلهة وحياتهم وقصصهم قد إستمدوها من الثقافات الآرية كنار الفرس وآلهة الأوليمب عند اليونان .

ويعد نفر من الباحثين فكرة الألوهية عند الهندوس مجرد انحرافاً، أو إلحاداً عن ديانة سماوية قديمة قد وصلت إليهم عن طريق الشعوب المجاورة من السومريين والبابليين أو الفرس (٥) .

ولا يمكننا القطع بصحة أحد هذه الآراء ، ولا تتبع حركة تطور فكرة الألوهية وتعيين أطوار انتقالها من الوحدة إلى الكثرة أو العكس. وذلك لغيبة الوثائق التاريخية ، وكثرة الأقلام التى دونت الفيدا ،

وتجاهلها البعد التاريخى فى التدوين . واتساع مفهوم الإله وتعدد صفاته وكثرة تحولاته فى الأساطير الهندوسية .

ذلك على الرغم من تأكيد الدراسات المعاصرة على أن الفيدا وما يحويه من أشعار وقصص وأساطير عن عالم الآلهة من نتاج الدرافيديين أي الهندوس الأوائل ، وكلها تؤكد فكرة محورية واحدة ألا وهى وحدة الوجود وانبثاق الموجودات عن عالم الروح .

ويبقى سؤال لم تستطع كل الأبحاث المعنية بدراسة الفكر الهندوسي الإجابة عنه ألا وهو : من هو الإله وما هي طبيعته وصفاته ومن أين وجد ؟

ويبدو أن فكرة الإله المجرد لم تكن واضحة فى الفكر الهندوسى فى بداية الأمر . وتشهد بذلك عبادة أرواح الأسلاف وعبادة الشجر والأصنام والأجسام والأبقار والأفاعى بجانب آ لهة السماء . وأغلب الظن أنها من الأفكار الوافدة أو المولدة من إحتكاك القبائل الهندية بالثقافات التي تفاعلت معها .

لذا سوف نحاول في السطور التالية عرض عالم الآلهة الهندوسية في صورة تتوائم مع الفكرة الرئيسية لهذا العالم في معتقداتهم بغض النظر عن البعد التاريخي الذي نجهله .

صورة الإله الواحد أو رئيس الآلهة مبدع الكون :

تعددت الأساطير الهندوسية عن عالم الروح وما يدور فيه من أحداث، وسكانه من الأرواح البشرية وأرواح الجن والعفاريت وأرواح الآلهة ومراتبها . ولعل أشهر هذه الحكايات هي تلك التي تتحدث عن ذلك الإله المجرد الروح الخالصة السرمدية ، التي تشكلت ذات يوم على صورة الإنسان ، الذي نزل من عليائه إلى الوجود الذي كان يتصوره قبل خلقه إياه فضجر بوحشة الوحدة ، فأوجد قرين له يشبهه فى الصورة ويختلف عنه كل الاختلاف فى الطبيعة ثم قام بشطر هذا القرين إلى قسمين ، وجعلهما ذكر وأنثى . وتسلسلت على هذا النحو البشرية(٦) .

وهناك قصة أخرى تروى أن الله المجرد . أدرك أن العالم لم يتحقق وجوده الكامل بعد فأخرجه من الظلمة إلى النور فجعله مرئياً

وعناصره الخمسة . ثم أراد عمران هذا الكون فأخذ قبساً من مادته "طبيعته الإلهية" فأوجد الماء ووضع فيه جرثومة فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب ، وعاشت داخلها الذات الصلبة على صورة . براهما .

وهو جد جميع الكائنات وبعد عام روحي (وهو يعادل ملايين السنين الأرضية) قام الإله المجرد بشطر البيضة إلى شطرين فصارت عالمين هما عالم السماء وعالم الأرض ، وعمرهما بالموجودات المختلفة من آلهة وجن وكواكب وأنهار وبحار وجبال وحيوانات ونباتات ثم زمان يسبحون فيه وقام أخيراً بتحديد أسماء لهذه الكائنات .

وهناك حكاية ثالثة ترويها الأساطير الهندية وهى أن الإله المجرد قد تشكل فى صورة مادية . وأطلق على ذاته "براجاباتى" فاشتاقت طبيعته الجديدة الى التكثر فأجابه عالم الآلهة وحققوا له مطلبه فقاموا بتقطيعه إرباً ، ونثروا أجزاؤه فى جميع البقاع فتكونت منها جميع الموجودات . غير أن "براجاباتى" سرعان ما أفاق من سكرته وأراد العودة إلى وحدته وهذا هو سر التجاذب الخفي الموجود فى جميع عناصر الكون وعلة شوق الكائنات إلى الاتحاد مرة ثانية بأصولها الروحية (٧) .

وقد أدرك الإنسان هذه الحقيقة بوصفه أحد هذه الأجزاء . فراح يقدم القرابين من لحم وخمر ولبن وأرز وخبز وأعشاب عطرة للنار المقدسة لتوصلها لعالم الآلهة مستجدياً إياها أن تجمع شتاته وتعيده لعالم الخلود .

آلهة السماء من التجريد الى التجسيد ومن الوحدة إلى الكثرة :

اختلفت الدراسات حول طبيعة الكثرة والتجسيد في الفكر الإلهي الهندوسي . فترى بعض الأبحاث أن تعدد الآلهة الهندية لا يعدو أن يكون تعدد صور نموذج واحد ، وهو " براهمان " الذي اتفقت جل الأساطير الهندية على أنه الإله المجرد ، الذي لا يمكن تصوره أو وصفه بصفات محسوسة .

فهو الذى يتجلى فى صورة " فشنو " الإله الحافظ ، وفى صورة الإله " شيفا " الإله المهلك . وتصبح بذلك الصور الثلاثة براهمان الموجد وفشنو وشيفا صفات لإله واحد .

وعلى النقيض من ذلك تؤكد بحوث أخرى على أن كثرة الآلهة الموجودة فى الأساطير الهندية كثرة حقيقية ترجع الى سببين رئيسيين :-

أولهما : تصور عالم الآلهة الذى تمثله أرواح الأسلاف والأجداد فى أساطير الهندوس الإول .

وثانيهما : يرتبط بطبيعة الثقافة الهندوسية التى نزعت إلى التعدد ، ولاسيما فى الأحقاب التاريخية التى ساد فيها النظام القبلى، وغابت فيها الوحدة السياسية والسلطة الكهنوتية . الأمر الذى ساعد على ظهور عشرات الآلهة المعبودة تبعاً لتصور هذه القبائل . وترد فكرة الإله الواحد المجرد إلى تصورات الفلاسفة .

ويفسر فريق ثالث من الدارسين كثرة الآلهة بأنها مجرد إنحراف عن فكرة الواحدية الأولى ، ساقهم إليها عاملان :-

الأول : ضعف الديانة الأصلية بتأثير من الثقافة الآرية وأساطيرها ، التى تبرر فكرة الثنائية تارة ، والكثرة تارة أخرى .

الثانى : ساسة الكهنة الذين قاموا بانتحال الأساطير التى تبرر أفعالهم وتعمل على تحقيق أغراضهم (٨) .

وسوف نحاول فى السطور التالية عرض أهم أسماء آلهة السماء، ووظائفها وجانب من الأساطير التى نسجت حول وجودها وعلاقتها بالكون .

* **براهمان** : هو أقدم الآلهة التى ذكرت فى الفيدا ومعناه كلمة الكينونة وهو المطلق غير المشخص .
* **شيفا** : إله الصفح والمبشر بالخير وهو من آلهة الفيدا أيضا . له عدة صور ووظائف وتجسدات فتارة يبدو فى صورة اللنجا " الحجر القضيب "، وتارة يتجسد فى صورة الكاهن لاكولا - وهو مؤسس أقدم الفرق لعبادته وهى فرقة باشوباتا -، وتارة ثالثة يصبح الإله "رودرا" إله العواصف والشفاء والمرضى ، وتارة رابعة يصبح الإله "شامبهو" إله الرأفة والرحمة ، وتارة خامسة يصبح الإله " شانكارا " إله الإحسان أو المحسن .
* **فشنو** : الإله المحسن على الدوام وهو الإله الراكض فى الماء الذى تلتف حوله أفعى متعددة الرؤوس وتخرج من سرته زهرة اللوتس وله عدة تجسدات هى السمكة التى أنقذت " مانو " (أو الإنسان الأول) والحكماء والفيدا من الطوفان العظيم . والسلحفاة

التى ركب الآلهة فوق ظهرها واستولوا على قمة جبل مندارا ومن هناك مخضوا محيط اللبن كيما يستردوا طعام الآلهة الذى فقدوه فى الطوفان . والخنزير البرى الذى قتل "هيراينكاشا " وأنقذ الأرض من المحيط الكونى الذى ألقاها فيه الشيطان . والإنسان الأسد الذى قتل الشيطان "هيراينكاشايبو" . والقزم واسع الخطوات الذى يخطو الأرض والهواء والسماء فى خطوتين أما الثالثة فتركها للشيطان " بالى " وهى إلى عالم الموتى . وراما صاحب الفأس الذى دافع عن البراهمة ضد النهب الملكى . وراما ملك أيوذيا بطل الرمايانا الذى قتل الشيطان "رافانا " الذى يقطن سرى‌لانكا وظهرت عبادته فى عصر الفتوحات الإسلامية . وربما أضيف "بوذا" الى هذه التجسدات لكى يجذب العناصر المارقة الى المذهب الفشنوى . وكالكين وهو المخلص المنتظر الذى سوف يحكم العالم بالعدل بعد تطهيره من الشرور ويقتل الشيطان بسيفه الملتهب (٩) .

* **شانديكا** : ربة الخصب ولها في الأساطير عدة صور وصفات فهى " بارفتى " سيدة الجبال وعروس شيفا الجميلة ، وهى " كالى " القبيحة المتعطشة للدماء التى تطلب ضحية من الحيوان قرباناً وفى بعض الأحيان تطلب قرباناً بشرياً ، وبوصفها ساكنة جبال فينديا س فإنها تتربص بالمسافرين كما هى راعية اللصوص وقطاع الطرق ، وهى " دورجا " التى ذبحت الشيطان .
* **براجاباتى** : الإله الخالق وهو الكل وهو الذى كان وهو الذي سيكون ، وكان له ألف رأس وألف عين وألف رجل وإليه ترد كل القرابين والموسيقى والأغانى والتعاويذ السحرية . وقد مزقته الآلهة تلبية لرغبته فخرج القمر من نفسه ، والشمس من عينه ، وآندرا إله الرعد والحرب وآجنى إله النار من فمه ، والريح من أنفه ، والسماء الوسطى من سرته ، والسماء العليا من رأسه ، والأرض من قدميه وهكذا خلق العالم . وهو الأب الذى أفتتن بجمال ابنته " أوشاس " إلهة الفجر الجميلة فراح يتعقبها ليطأها فهربت منه فى بداية الأمر . ثم حاصرها فنال منها ما أراد فحملت وأنجب منها أول أفراد الجنس البشرى .
* **آندرا** : إله الحرب وملك آلهة السماء الذى خلف "هوديوس بيتر" إله

السماء الأول . وهو إبن إلهة الأرض الأم وإله السماء الأب وقد تقوى بشراب السوما المسكر وتسلح بالصواعق التى أعدها له الإله تفشترى الصانع البارع لكى يواجه "فرتيرا" قائد فرقة الدفافوس فذبحه وتدفق من بطنه الممزقة سبعة جداول حبلى بجنين الشمس . وهكذا خرجت العناصر التى تدعم الحياة وهى الرطوبة والحرارة والنور . ثم قام بفصل السماء عن الأرض . ثم قسم العالم الأرضى الذى كان على شكل كرة الى قسمين :-

عالم سفلى تسكنه الشياطين ، وعالم علوى يسكنه البشر ، تسقط عليه أشعة الشمس وتمده السماء بأمطارها . أما عالم السماء فظل مهيمناً على الأرض (١٠) .

* **كالى** : وهى ربة الموت والدمار ومن أسمائها دورجا وشاكتى وماتا ولاكشمى وهى إبنة إله الغضب وزوجة الإله شيفا ومن تجلياتها الأم التى تقدم لأبنائها العزاء والأمن ، وهى ربة الخوف والرعب الكامنين فى الوجود ، وهى أيضا التى تساعد أبنائها على فهم عناصر العنف والمعاناة ، وهى القوة المنشطة لطاقة الوعى والحديث ، وهى القوة المدمرة للمردة لإنقاذ الأرباب والحفاظ على العالم وقد صورت فى معابدها على هيئة إمرأة لها بشرة خشنة وعيون غائرة حمراء وفم كبير يبرز منه لسان دموى يحيطه أنياب مدببة وأزرع قوية تحمل فى إحداها عصا تعلوها جمجمة وفى الثانية مشنقة الموت والثالثة سيفاً ومقص والرابعة وعاء رمزاً للتغذية وزهرة اللوتس مرتدية جلد نمر ضارب للسواد وقلادة من الجماجم تهتز على وقع رقصاتها فوق جثة زوجها شيفا وهى من الأرباب الثنائية التى تمنح القوة والسعادة لعبادها وتجنى رؤوس أعدائها بسيفها الطويل .

تلك كانت أهم آلهة الهندوس الكبرى التى نسجت حولها الأساطير وعمد كتاب الفيدا إلى تطويرها منذ نشأتها الساذجة إلى أيامنا هذه .

ويجدر بنا أن نشير إلى وجود عشرات من الآلهة الصغرى التى ذكرتها أساطير الفيدا أيضا بوصفها آلهة صغرى أو محدودة الأثر من أمثال :-

* **الإله آجنى** : إله النار وهو الذى يربط عالم الناس وعالم الآلهة لأنه هو الذى يحمل القرابين المحترقة إلى الآلهة .

* **إله السوما** : الذى اتحد بإله القمر وأصبح إلها يشرف على نمو المحاصيل وصحة الأجنة .
* **الإله مترا** : إله القسم والاتفاقات .
* **الإله فارونا** : حامى الأخلاق وخبير بأفعال البشر السري منها والمعلن ونواياهم المضمرة .
* **الإله جانشا** : إله العقبات .
* **الإله ياما** : وهو حارس عالم أرواح الأجداد بكلابه السوداء الداكنة .
* **الإله هانومان** : الإله القرد مساعد راما .
* **الإله رودرا** : إله الشفاء والمرض وإله العواصف .
* **الإله جاما** : إله الموت .
* **الإله يارجانيا** : إله المطر والمياه والأنهار .
* **الإلهة سربيا** : إلهة الشمس .
* **الإلهة سيتا** : إلهة العفة والوفاء .

وتشير بعض الدراسات أن عدد الآلهة المعبودة فى الهند قد تجاوز الثلاثين إلها .

ويمكننا أن نلاحظ من العرض السابق لفكرة الألوهية عند الهندوس ، الجمع بين التجريد والتجسيد فى مفهوم الإله مع ازدحام الأساطير بالآلهة المجسدة ذات الوظائف المتعددة . الأمر الذى كان وراء عناية البراهمة ومن ورائهم الفلاسفة بتهذيب هذه الأفكار ، وإعادة صياغتها فى سياق معقول . ويبدو بوضوح فى تعاليم البراهمة الذين أكدوا على وجود براهمان باعتباره إلهاً متعالياً يوحى إليهم بتعاليمه الناسخة للمعتقدات السابقة عليهم وكذا كتابات الفلاسفة التى حاولت درأ التعارض بين فكرة التجريد العقلية والتجسيد الحسية الأسطورية للإله وذلك بجعلها براهمان هو الإله الذي لا يمكن تصوره إلا بالعقل ومن ثم كانت تجلياته في الأساطير من سبيل الرمز والتبسيط . كما أكدت أن براهمان هو فشنو وشيفا وكالى أى هو إله الحب وعلة وجود الحياة والضامن لاستمرار وجودها ، وهو أيضا نهر الحب والعلم والحكمة المتدفق .

الذى يقوم بإزالة القديم ليفسح الطريق أمام المياه الجديدة التى تخصب الأرض بعلومها ومعارفها ، وهو أيضا إلهة القوة والموت

والعدل والسلام (١١) .
ومن ثم فالأرباب المتعددة عندهم ما هى إلا رمز لوجود وواقع أسمى لإله مجرد وأن تجليات هذا الإله وحلوله فى بعض الصور ليس فى الحقيقة أكثر من تواضع منه ليتواصل مع سائر الموجودات المعلولة له لعلة الوجود ، والمنبثقة منه مع الاحتفاظ بوجود المستقل عنها .
أما العوام فمازالوا يحتفظون بالأيقونات المقدسة ، ويصلون لصور الآلهة وتماثيلها فى منازلهم ومعابدهم ، ويقدمون لها القرابين ويمسحونها بالطيب ، ويلبسونها أغلى الثياب ويحلونها بأنفس الجواهر ويقيمون من أجلها كل الشعائر الطقسية طامعين فى استرضائها .
وعلى الرغم من كثرة معبودات الهندوس وتباينها لا نجد شقاقاً أو نزاعاً بين طوائف العباد . وذلك يرجع الى الاعتقاد فى أن كل الصور المعبودة من أبقار وإناس وجمادات ما هى إلا أجزاءً أو صوراً للإله الكامن فى الوجود بكل ما فيه .
وأن رياضة اليوجا هى المرحلة النهائية لكل الديانات لأنها تسعى الى العود الأبدي أي الإتحاد بالإله مرة ثانية . ومن ثم فالفكر العقدي عندهم مجرد مراحل يقطعها العقل البشرى من الفلسفة الى الدين ومن الدين الى الفلسفة . فلسفات تخلق أديان وأديان تخلق فلسفات وكله على صواب عندهم لأن جميعهم يعبد الإله في صوره المتباينة (١٢) .

الكتب المقدسة والنبوة والوحي :

لا نجد من بين الكتّاب فى فلسفة الدين أو المعنيين بمبحث مقارنة الأديان من يُورد سبباً مباشراً لتقديس الهندوس لكتابهم الفيدا
فتشير بعض الدراسات إلى أن صفة القداسة التى وسم بها هذا الكتاب وملحقاته ترجع إلى عبادة أرواح الأسلاف التى كانت تقدس الأجداد وتراثهم . فأشعار الفيدا وأساطيره ما هى إلا الحكمة التى خلفها الأجداد لأبنائهم ، ومن ثم يجب تقديسها والحفاظ عليها . وهناك دراسات أخرى ترى أن صفة القداسة لم تلحق بشذرات الفيدا إلا عقب ظهور فرقة البراهمة ، الذين زعموا كما ذكرنا بأنهم أسباط الآلهة

العظام وأنهم يتلقون الوحي من براهما الإله الخالق وزوجته " سارسفاتي " ربة الموسيقي والكلام .

بينما يرى البعض أن الفيدا كتاب سماوى تنزل على حكماء الهندوس فى الماضى السحيق وهو قديم بقدم من أرسله .

وعلى ذلك فهو وحى وحكمة أزلية هبطت على الشعراء الهندوس وحكمائهم ومازالوا يتلقونه حتى الآن . الأمر الذى يبرر عملية الحذف والإضافة التى يقوم بها الفقهاء والفلاسفة الهندوس منذ كتابة الفيدا وحتى الآن (١٣) .

وينقسم الفيدا الى أربعة أقسام رئيسية كتبت تباعاً :-

* **القسم الأول** : الريج فيدا (أى المعرفة الملكية) ويرد تاريخ كتابته إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد . ويعده بعض المؤرخين من أقدم النصوص المقدسة المكتوبة عند الشعوب ، ويقع فى عشرة أجزاء ويحتوى على ١٠٢٨ ترنيمة شعرية فى مديح الآلهة . وقد تناقلتها الأجيال الهندوسية شفاهة جيلاً بعد جيل إلى أن دونت فى القرن الثامن قبل الميلاد . ومازال الهندوس يرددونها ويتغنون بها فى صلواتهم وأداء طقوسهم الدينية .
* **القسم الثانى** : ياجورا فيدا (أي المعرفة الهوائية) وتضم مجموعتين يدعى إحداهما بالياجورا فيدا البيضاء والأخرى بالياجورا فيدا السوداء ويحوى القسمان التراتيل النثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين .
* **القسم الثالث** :الساما فيدا (أى المعرفة الشمسية) وهى مؤلفة من قسمين ، الأول تراتيل دينية ، والثانى تعاليم متعلقة بالعبادات والواجبات الدينية . ويشمل الأغانى التى ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية .
* **القسم الرابع** : آثار فيدا أو أترا فيدا ويطلق عليه سفر الفقراء أو دين العوام وذلك لما يحويه من أساطير وخرافات وتعاويذ ورقى وطلاسم سحرية ، لتحضير الجان والعفاريت وقد كتب فى عهد متأخر . أما الأقسام الفرعية للفيدا فتنقسم أيضا إلى أربعة أقسام هى :

* السماهيتا وتمثل الأدعية البدائية التى يرددها الهندوس القدامي عند تقديم القرابين .

* البراهمن ويمثل الشروح على متون الفيدا على نحو ما تستخدم فى تقديم القرابين وآداب الطقوس ، وأنواع القرابين وتفاصيلها ومواسمها ، وتوضح المضمون الرمزى لأعمال الكهنة .
* الأرانياكا أى نصوص الغابة وتمثل الإرشادات والعبادات التى يقوم بها كبار السن الذين تجاوزوا سن الأربعين عوضاً عن القرابين التى يعجزون عن تقديمها .
* الأبانيشادات وهي الأسرار والكشوف والرؤى ، التى يختص بها الرهبان والمتصوفة ، الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها وتمثل المذهب الروحي (١٤) .

ولا يستمد الفيدا قوته من سمو مصدره أو فصاحة أسلوبه بل يستمد هذه القوة من إقبال الناس على إعتناقه جيلاً بعد جيل . وقد ظهرت له شروحاً وملخصات كثيرة تبعاً لتطور اللغة وارتقاء الثقافات وكلها مقدسة عند الهندوس .

ومن الكتب التى يقدسها الهندوس أيضا " المهابهارتا " و" كيتا " و" يوجاواسستها " و" رامايانا " .

فالأول يرد الى الحكيم "وياس" وهو أشبه بالإلياذة والأوديسة فهو ملحمة الهند الكبرى وهى تصور قصة حرب جرت بين ملوك الهند مستعينين بالآلهة التى كان لها دور فى المعارك . أما الثاني فينسب إلى "كرشنا" أحد أبطال الهندوس المقدسين وهو يعد استطراداً للملحمة الكبرى .

أما الثالث فمجهول المؤلف ويحتوى على أربعة وستين ألف من الأبيات ، ومختلف حول موعد ظهوره ويرجح أنه ظهر فى القرن السادس الميلادى . وهو يقص حواراً بين تلميذ وأستاذه حول المعتقدات واللاهوت والفلسفات التى يدين بها الهندوس .

أما الكتاب الرابع وهو كذلك مجهول المؤلف وتاريخ التأليف ويعنى بشرح الجانب السياسى ونظم الحكم التى يؤمن بها الهندوس .
والجافاجيتا هى من أوسع الآداب الكلاسيكية إنتشاراً عند الهندوس وأوفرها نصيباً من الرعاية والإعزاز وهى بمثابة العهد الجديد فى الهند . والهنود يبجلونها بعد كتب الفيدا نفسها ثم يستعملونها لحلف الأيمان فى المحاكم كما يستعمل الإنجيل .

ويجدر بنا الإشارة إلى وجود بعض رسائل إصلاحية وأدبية قد

حظيت بقدر وفير من التبجيل والاحترام عند الهندوس منها :-

* الأرتا شاسترا التى كتبها "كوتبلايا" وهو من كبار رجالات السياسة والإقتصاد الهندوسي ، وهى تقوم بتبرير الحاجة إلى وسائل المعيشة المختلفة وأهميتها .
* المانوشاسترا التى كتبها المشرع الهندى ذو الشهرة الأسطورية وهى تقوم بتوضيح كيفية ضمان وجود العدالة والنظام فى المجتمع على يد الملك والمؤسسات الحكومية (١٥) .

مفهوم النبوة والوحى :

لقد كانت صفات براهمان المجردة من جهة ، وغيبة المعابد والطقوس الكهنوتية فى الديانة الهندية من جهة أخرى ، وراء ظهور فكرتى النبوة والوحى فى الديانة الهندية وقد أدرك جماعة من الحكماء والساسة الهندوس ، أن معتقداتهم فى حاجة إلى التقويم والتنظيم . فزعموا أن "براهمان" المجرد قد تجلى فى صورة براهما الإله الخير الذى تجلى بدوره فى صورة إنسان خرج من رأسه طبقة البراهمة ، ومن ذراعية طبقة المحاربين ، ومن فخذيه طبقة التجار ، ومن قدميه طائفة الخدم .

ويعد البراهمة بذلك أول من أدخلوا النظام الكهنوتى فى الديانة الهندوسية ، ويرد إليهم فكرة بناء المعابد وما بداخلها من تماثيل للآلهة والنار المقدسة والمباخر ... وكذا الأعياد الدينية وطقوس الصلوات ونظم الحج وشروط الصوم .

وينسب لهم كذلك فكرة الوحي أو الإلهام السماوي الذي خصوا به أنفسهم عن سائر الهندوس فكل ما يأتون به من نظم وقيم ومناسك من عند براهما. وعلى المؤمنين به التسليم والطاعة. وأنهم دون سواهم المنوطون بتسليم القرابين ، والإشراف على الطقوس الجنائزية، وتلقى الآمال والدعوات من عبدة براهما وتبليغها له، ثم حمل البركات والنعم لأصحابها.

وقد تبوؤا بذلك أعلى مراتب السلم الاجتماعي الهندوسي فالبراهمانا أو البراهمة هم الكهنة والمعلمون الذين يعدون بصفة عامة حملة الثقافة، والمعنيون بالإرشاد والتوجيه ، والحفاظ على المعارف التراثية وحقوق الآلهة وحراسة العدالة والأخلاق (١٦) .

* * *

أهم المعتقدات والطقوس :

إن من يتأمل المعتقدات الهندية على تعددها وتباينها سوف يدرك أنها ترد إلى فكرة جوهرية رئيسية وهى روحانية العالم بدءً من عقيدة وحدة الوجود ومروراً بخلود النفس الإنسانية وتناسخ الأرواح وإنتهاءً بعقيدة الإتحاد التي تعيد الكثرة المادية إلى وحدتها الروحية بعد تطهرها .

وسوف نحاول فى السطور التالية توضيح مدى اتساق الفكر العقدي الهندوسي مع الأصول التى نبع منها من جهة ، وفكرة الألوهية التي كرس لها كل تراثه الأسطوري من جهة أخرى .

وحدة الوجود :

يرى فقهاء الهندوس أن العلاقة بين سائر الموجودات وبراهمان (الإله المطلق) هي علاقة انبثاق الضوء عن الشمس وأن الصلة بين الروح الإنساني والروح الإلهي هي الصلة التي تربط البذرة بالشجرة. ومن ثم يكون الموت هو بداية رحلة التطهر التي تسلكها الروح للعودة مرة ثانية للاتحاد بالله صاحب القوى الثلاث الخلق والحفظ والهلاك .

وترد إلى هذا المعتقد العديد من الأفكار والأعراف .

فهو يتسق تماماً مع جل الأساطير التي حاولت توضيح العلاقة بين وجود الإله ووجود العالم – التي أشرنا إلى بعضها سالفاً – .

ويتفق كذلك مع فكرة تعدد الآلهة وتباين المعبودات في الديانة الهندوسية .

وذلك لأن المعبود وثناً كان أو حيواناً أو إنساناً ، ما هو فى حقيقته إلا جزءً من الإله . ومن ثم ليس هناك شركاً أو إلحاداً فى تغيير المعبود أو تفضيل إلهاً على غيره .

ويفسر هذا الاعتقاد أيضاً علة عزوف الهندوس عن الحرب والقتال وتحريمهم قتل الحيوانات والحشرات بحجة أنها إحدى تجليات الإله . ويبرر كذلك عدائهم للمسلمين الذين يذبحون الأبقار وهى من أكابر معبوداتهم (١٧) .

وقد نشرت الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٠٠١/١/١٠ أن

القردة بالهند قد استولت على دور الحكومة ، واقتحمت على سكان المدن منازلهم ، ولم تستطع الشرطة الهندية وقوات الأمن مجابهة هذا الهجوم إلا بجمع هذه القردة وتوزيعها على الولايات الهندية دون أدنى قدر من العنف . الأمر الذي يؤكد رسوخ هذا المعتقد إلى الآن.

تناسخ الأرواح :

وهى عودة الروح مرة ثانية بعد خروجها من الجسد بالموت إلى العالم الأرضي ويبرر المعتقدون في عودتها هذا الارتداد بأمور عديدة :- منها تعلق الروح بالعالم الأرضي بكل ما فيه من أهواء ورغبات ومن ثم يكون العود رغبة من الروح في تحقيقها ورغبتها في الاتصال بالآخرين وداً أو عداءً أو قصاصاً .

وقد أختلف القائلون بتناسخ الأرواح حول دوافعه ونتائجه . وذهب البعض الى أنه عمل إرادي تقوم به الروح فى جسد ويرى البعض الأخر أن التناسخ والعود يتم وفق عدالة عالم الروح التى تقتضى عودة الروح الشريرة إلى الأرض ثانية لتكفر عن آثامها مرتدية أجساد الحيوانات أو الحشرات أو الأفاعي تبعاً لطبيعة الذنوب وكثرتها . أما الأرواح الخيرة فتهيم فى العالمين الروحي والمادي تبعاً لإرادتها وفى نهاية المطاف تتحد بالبراهما وتمتزج به .

ويرتبط هذا الاعتقاد بنظام الطبقات الهندوسي الذي يقضى بعدم تناسل طبقة مع دونها من الطبقات حفاظاً على نقاء الأعراق وأصالة الأنساب . وذلك لأن هذا المعتقد يعطى الأمل للطبقات الدنيا في الاتصال بالطبقات العليا في دورة أخرى من دورات حيواتهم المقبلة إذا أحسنوا وخفت موازينهم ، ويحذر كذلك أصحاب الطبقات العليا من الذلل والخطيئة التي تسوقهم إلى المذلة والاسترقاق ، بل وإلى الجحيم عند عودتهم ثانية إلى الأرض للتفكير عن ذنوبهم وآثامهم وهى تبرر كذلك ذلك التقسيم الطبقي أغنياء وفقراء ونبلاء وصعاليق بحجة أن مصير اليوم وغداً صنيعة الأمس (١٨) .

الإنعتاق والاتصال :

هو الامتزاج ببراهما ، الأمر الذى لا يتحقق إلا للروح التى تخلصت تماماً من أهواء وميول ورغبات الجسد الترابى وأنطلقت

طواعية نحو الحقيقة الأبدية لتتحد بها . ومن ثم فالزهد فى الدنيا والعزوف عن الشهوات ، والتضرع للعبادة هو السبيل الأقوم للاتصال بالإله .

الكارما " الجزاء من جنس العمل "

الكارما كلمة سنسكريتية من لغة الآريين ومعناها الجزاء . وهذا القانون هو المسئول عن الثواب والعقاب وإليه يرجع اختيار الصورة التى تتناسخ فيها الروح على أساس ارتباط المعلول بالعلة فتنساق الروح تلقائياً داخل إطاره للتلبس بالجسد الجديد الذى تتوافق ملابسات حياته مع الميول الذاتية لهذه الروح ومع أعمالها فى دورة حياة سابقة . أى أن نظام الكون يقتضى أن أفعال المرء المسئول عنها يجب أن يجازى عنها ثواباً أو عقاباً فى حياته الدنيوية أو فى حيواته الروحية وذلك عن طريق تناسخ الأرواح .

النار المقدسة :

وهى نار يشعلها جل المؤمنين بالفيدا فى بيوتهم عقب الزواج مباشرة " البيت الآرى " وهى تشتعل بحك أنواع خاصة من الخشب بعضها ببعض ويقوم رب البيت برعايتها حتى لا تخمد فيزودها بالأخشاب ويقوم بتضحيات خمس هى :-

- عبادة براهمان روح العالم وذلك بتلاوة الفيدا .
- عبادة الآباء بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم حتى لا تفنى أرواحهم ، وكذا إعداد كرة الأرز لهم فى أول كل شهر قمرى .
- عبادة الآلهة بإحراق القرابين .
- عبادة بهوتاس وهى الموجودات الحية أو الأرواح بنثر الحبوب فى الجهات الأربع والمركز وفى الهواء وعلى أوانى المنزل ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات .
- عبادة الرجال عن طريق تقديم الضيافة الى الآرى ويفضل البرهمى العليم بالفيدا .

ويبدو أن هذا المعتقد دخيلاً على الديانة الهندوسية . ولا يخلو من أثر فارسي كبير وعلى الرغم من ذلك فإن الهندوس قد طوعوه لخدمة الفكرة الرئيسية لعالم الروح . فالنار هى أكثر العناصر الأربعة قدرة

على تحويل القرابين على اختلافها الى أبخرة تتصاعد إلى السماء ، وتنتشر فى الآفاق لتغذى أرواح الأجداد والآلهة الصغرى على حد سواء .

التنسك :

وهو الانقطاع للعبادة وهو لا يتم إلا بعد المرور بثلاثة مراحل هى :- التفقه والدراسة على يد البراهمان ثم الزواج والإنجاب ثم التنسك فى الغابة حتى يرقى إلى رتبة الناسك المتجول وذلك اعتقاداً منهم بأن هذه المراحل بمثابة ديون يجب على الفرد أدائها . ويعتبرون الأول والثانى ديون عامة وهى للآلهة والآباء . أما دين الحكماء من الديون الخاصة وتوفى هذه الديون بقراءة الفيدا وإنجاب الابن وتقديم أضحية . ويعد الزوج الكاهن الأكبر لعائلته وذلك لأنه المنوط بتقديم القرابين لأجداده ، والمعلم الذى يعد أبنائه الذكور ليخلفوه فى هذه العمل . ذلك فضلاً على تدريبهم على خدمة النار المقدسة .

وملاحظ أن هذه المعتقدات قد ضعفت بمرور الوقت ولم يظل منها إلا المظاهر الخاصة بالاحتفالات فحسب . وقد حلت عقيدة تناسخ الأرواح بدلا منها .

وقد انتشرت عبادة إله السموات بدلا من عبادة الأسلاف .

والتنسك فى الهندوسية يعنى السبيل للخلاص من عذابات الكارما وتكرار حيوات الروح وذلك بالإتحاد بالبراهمان أى الإله حيث عالم السعادة الأبدية . وذلك لا يتحقق عندهم إلا بالتكفير عن الخطايا التى ارتكبتها الروح فى حيواتها السابقة وذلك عن طريق التأمل الدائم ، والانصراف عن سائر اللذات أو تعذيب البدن باعتباره مصدر كل الشرور وذلك بالإضجاع وسط النيران والتحديق فى الشمس ، والوقوف على ساق واحد أو الجلوس جلسة غير مريحة لفترات زمنية طويلة (١٩) .

الخلاص الإلهي :

وهو الاعتقاد بأن الإله فشنو الإله الحافظ وناصر الخير على الشر يهبط إلى الأرض عند نهر الكانج لإغاثة المحتاجين والمظلومين

ويهلك الأشرار ، ممتطياً طائر الكارودا وحاملاً سيفاً من لهب .
ويعتقد أنه أنحدر تسع مرات وما يزال له انحدار عاشر يأتى فيه راكباً جواداً أبيض ومتسيفاً بسيفه الفارسى لخلاص العالم وذلك فى الدورة الرابعة من عمر الأرض .

ويبدو أن هذا المعتقد دخيلاً أيضاً على الديانة الهندوسية القديمة ولعله مأخوذ عن فكرة المخلص أو المهدى المنتظر فى الآداب الشرقية العريقة . وذلك لأن الخلاص فى العقيدة الهندوسية يلقى على عاتق المرء نفسه طبقاً لقانون الكارما الذى أشرنا إليه .

الموت والعالم الآخر :

توجد ثلاث نظريات رئيسة مترابطة تتناول مصير النفس الإنسانية بعد مفارقتها البدن .

تذهب الأولى إلى أن النفس تعيش حياة لا نهائية وذلك بتكرار حركة الميلاد والتجسد مرة تلو مرة وهى العقيدة التى تسمى السمسارا التى تؤمن بخلود الروح وتعدد الحيوات للنفس الواحدة . وتذهب الثانية الى أن عملية التناسخ تمضى وفق قانون الكارما الذى يرى أن مصير الروح بعد مفارقتها البدن مرهون بالأعمال الخيرة والشريرة التى ارتكبتها خلال اتصالها بالبدن وهى تمضى إلى أعلى أو إلى عالم السعادة تبعاً لأعمالها بينما تسوقها أفعالها الشريرة إلى عالم الجحيم ، وهكذا تتكرر دورة الحياة بالنسبة لها (الجزاء من جنس العمل) .

أما الخلاص من تكرار هذه الحيوات لا يتحقق إلا بالموكشا أى الإتحاد بالإله أو المكوث فى عالم الأرواح الأعلى(٢٠)+(٥٦) .

القدر :

يبدو أن فكرة القدر متمثلة عند الهندوس فى تلك العلاقة القائمة بين الروح والبدن فالإنسان المكون من روح وبدن مسئول مسئولية كاملة عن كل أفعاله التى يخلقها بإرادته الحرة ويخطط بمقتضاها مستقبل الروح فى حيواتها المقبلة . ويستوى فى هذا الأمر الإنسان والإله :- فالآلهة لا تملك إلا أقدارها الفردية ومن ثم لا جبر ولا قدر مكتوب من قبل الآلهة على البشر .

الأهمسا أو اللاعنف :

هو معتقد يرى أن إزهاق حياة حيوان أو إنسان تحت أى ظرف من الظروف هو عمل آثم ويؤدى إلى ميلاد جديد فى كائن حى آخر أدنى وهذا المعتقد ظهر مع ظهور الحركات الإلحادية ولاسيما الجينية الأمر الذى أدى إلى ظهور النباتيين ومقدسى الأبقار .

وإذا ما انتقلنا إلى الطقوس فسوف نجد معظمها من اختلاق البراهمة الذين يرد إليهم الجانب الأكبر من المعتقدات الدينية ولاسيما المتأخر منها وكذا بناء المعابد والاحتفالات الطقسية وتقديس التمائم والأيقونات -كما ذكرنا سلفاً- والطقوس الهندوسية بالجملة تتفق إلى حد كبير مع العقائد الرئيسية مع تأثرها بالديانات المنشقة عليها مثل الجينية والبوذية والسيخية وسوف نشير إلى أهمها بشئ من الإيجاز .

احتفال البندا :

وهو يقام مع بداية كل شهر قمرى يقدم فيه كرة الأرز لأرواح الآباء أو الأسلاف وإلى روح البيت التى تسكن الركن الشمالي الشرقي فى المنزل وتسمى العناصر الأساسية فى هذا الاحتفال شراذا وهى كما يلى :-

يجلس كبار فقهاء البراهمة فى مكان مكشوف على العشب المقدس ثم يقوم رب الأسرة بحرق قرابين الآلهة فى النار المقدسة ثم يقوم بالحدث الرئيسي ألا وهو تقديم كرات الأرز إلى أرواح الآباء والأسلاف فيقوم برش الماء ثم نسج سجادة من العشب المقدس ووضع فوقها ثلاث كرات مطهية من الأرز . أما الأرز العالق فى يديه من أثر صناعة كرات الأرز فيقوم بمسحه فى تلك السجادة العشبية ويقوم بعد ذلك بسكب الماء المبارك من الفقهاء على الأرض بالقرب من البندا (أى كرات الأرز) .

أما الكرات الثلاث يقوم بتوزيعها على أضيافه من البراهمة ، وما تبقى منهم يقدم إلى سائر الضيوف بالمنزل ثم يقوم بعد ذلك بجمع العشب ويلقيه فى النار المقدسة ليكون طعاماً لأرواح الآباء التى تقوم بدورها بمنحهم البركات والنجاح والذرية . ويشرب الهندوسي شراب السوما عند تقديم القرابين للنار وهو مصنوع من نبات القنب الهندى المخمر (٢١) .

الطقوس الجنائزية :

تحمل الجثة بعد الوفاة بقليل إلى أرض المحرقة فى موكب من الأقارب يتقدمه الابن الأكبر الذى يسير على رأس المحزونين ويخلف المرحوم كرب للبيت ثم تلقى الجثة فى المحرقة ويطوف حولها أهل الميت بعكس اتجاه عقارب الساعة ثم يغتسلون ويعودون إلى منازلهم يتقدمهم أصغر الأبناء . وفى اليوم الثالث من حرق الجثة تلقى العظام فى الأنهار المقدسة ومنها نهر الكينج ، ثم يقوم أهل الميت بسكب الماء وتقديم قرابين الأرز لروح الميت لمدة عشر أيام متواصلة . وبعد عام يقام له احتفال يسمى السبندكرانا وذلك ليتمكن روح الميت من تناول كرات الأرز مع أسلافه فى احتفال الشرذا الذى يقام له شهرياً ويحرم من هذه الطقوس الصبى والفتاة العذراء والناسك الذى لم يتزوج فأولئك يدفنون فى الأرض بحجة أن روحهم سوف تبعث فور دفنهم لتقوم بدورة حياة جديدة تمارس فيها ما كفت عن ممارسته فى حياتها السابقة .

السمسكار (الترسيم) :

وهو الاحتفال الذى يتم فيه ترسيم الأفراد عند انضمامهم لأى جماعة دينية وهى تنقسم الى ثلاثة طقوس :-

أولها تقام قبل الولادة لتشجيع الحمل وإنجاب طفل ذكر وضمان صحة الجنين .

وثانيها تقام بعد الولادة لمدة عشر أيام وتتوالى بعد ذلك الطقوس الصغرى عقب خرم أذنه ثم عقب تناوله أول طعام جاف وأول مرة يرى فيها الشمس بعد خروجه من المنزل وعقب حلق رأسه ماعدا حصلة فى قمة الرأس يتركها طيلة حياته .

أما الطقس الثالث فهو الترسيم ويتم عندما يكون الطفل بين سن الثامنة والثانية عشرة وذلك بارتداء الطفل زى الناسك ويمسك فى يده صولجان مع خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه اليمنى ثم يتلوا الكاهن الرسمى بعض أبيات من الريج فيدا ثم يقوم الطفل بأستجداء الصدقات ويتخير له معلماً من البراهمة ليفقهه فى الدين حتى ينعم على يديه بالخلود والسعادة الأبدية وتستمر مرحلة

التعليم والدراسة إثنتا عشرة سنة يقوم بعدها الطالب بالاغتسال وعندئذ يتوقع أن يتزوج الأرى فى الحال .

القرابين :

أما القرابين فلم تكن فى بداية الأمر إلا طقوساً تؤدى بأضحية عند تنصيب الملك أو عند موت عائل الأسرة وقد تطورت على يد البراهمة الذين ألبسوها ثوباً سحرياً وألصقوا بها عشرات الأناشيد والترانيم الخاصة بها الأمر الذى جعل منه سلطة كهنوتية لتوصيل القرابين ومنح البركات .

التبرك بالأيقونات :

وهى تلك الصور أو التماثيل التي تشبه الإله ويقدسها البعض تبركاً يذكرهم بالإله ويحفظهم من الشرور ، وهى نحلة هندوسية لم تكن موجودة فى الديانة الفيدية الأولى التى لم تقم معابداً للإله ولا طقوساً كهنوتية لعبادة النار المقدسة . ويرجعها البعض الى سكان وادى السند الذين برعوا فى صناعة الأيقونات وتماثيل الآلهة . ولا سيما الإلهة الأم الكبرى التي صوروها على صورة أنثى حامل . أما باقي الآلهات فمعظمها نسائية عارية أما الآلهة الذكور على هيئة رجل جالساً متخذاً أحد أوضاع اليوجا (٢٢) .

الوشم والهيئة :

لقد أتخذ الهندوس المتأخرون بعض الأشكال والهيئات ليميزوا بين فرقهم . فعلى سبيل المثال نجد عبدة فشنو لهم علامتان متوازيتان من وشم ترابى أبيض ، ينحدر من خط الشعر حتى قصبة الأنف مع خط رأس يربط بينها فى الأسفل ، مع إضافة علامة مميزة خاصة بالفرقة التى ينتمون إليها وارتدائهم عقوداً ومسابح مصنوعة من خشب شجيرة مقدسة عند فشنو .

أما أتباع شيفا فهم يضعون ثلاثة خطوط أفقية متوازية من وشم ترابى على جباههم . وهذه الأشكال لا تعدو أن تكون إلا شفرات لا يقدر على حل طلاسمها إلا المعلم الروحى لهذه الطائفة ، الذى يحدد لهم طرق العبادة ومواقيت الصلاة .

اليوجا :

اليوجا تعد بمثابة عقيدة الخلاص من الكارما أى التناسخ فى حيوات متعددة للتكفير عن الخطايا حتى لا تستمر عملية التناسخ إلى مالا نهاية متفادية لهذا العبث الذى تقوم به الروح . أخترع الهندوس شعيرة اليوجا بغية السيطرة على النفس إتقاءً لعمل الخطايا أو إرتكاب الذنوب من جهة، وميراناً على التحكم فى العالم بعد ذلك من جهة أخرى فقد بدأت بحركات رياضية وتنفسية ثم أصبحت نظاماً للتفكير مع إعتبار التقشف تعليماً أولياً لها ، وزعموا أن اليوجيين يستطيعون تطهير أنفسهم وإخراج أرواحهم من جسدها لإنقاذ أنفسهم من عذابات الجسد وتهيأتها للاتحاد بالذات الإلهية العالية . ذلك فضلا عن صنع المعجزات كالسير فى الهواء والخوض فى النار والتقاط الأعيرة النارية (٢٣) .

* * *

المجترؤن والملحدون

يبدو أن التجديف والإلحاد فى الديانة الهندوسية له مفهوم خاص جداً فالشرك أو تفضيل إله عن آخر لا يعد فى الهندوسية إلحاداً وكذا استحداث طقوس للعبادة لا يعتبر من باب البدع ولا يدرج تحت التجديف فتهمة الهرطقة أو الإلحاد أو الكفر لا توصم عندهم إلا لمن يخرج على تعاليم البراهمة بوصفهم ظل الله على الأرض ولسانه الذى يحاورهم أو ينكر قداسة نصوص الفيدا .

وسوف نستعرض فى السطور التالية أهم الفرق والنزعات الإلحادية طبقاً لهذا المفهوم .

المنبوذون :

ويمثلهم زنوج الهند الذين لم يعتنقوا الهندوسية وتتلخص عبادتهم

فى عبادة الأرواح ، وأشهر آلهتهم كومة من الآجر تمثل أم القرية أو شيطانها الذى يمنح الخصب للعواقر . وقد تمردوا على تعاليم البراهمة التى تفرق بين طبقات المجتمع الهندى ، وتجعل منهم مجرد خدام لا حقوق لهم فى مجتمع السادة . الأمر الذى جعلهم يجحدون كل التعاليم الهندوسية وقد جمعوا فى دعوتهم بين الأساطير الخرافية التى تؤكد وجود عالم الآلهة وعالم الشياطين وبين بعض التعاليم المسيحية والإسلامية التى تدعو إلى التسامح والمساواة . ويرى أتباع هذه الفرقة أنهم أحق الطبقات بثروات الهند لأنهم سكانها الأصليون (٢٤).

الشكاك والمرتابون :

إن جذور الهرطقة والارتياب يمكن التماسها فى ملحقات كتاب الفيدا نفسه وبالتحديد فى الأوبانيشاد حيث ورد قصة شاب يدعى ناسيكيتاس أرسله والده إلى إله الموت فلم يجده فراح ينتظره حتى جاء وقام الإله بالاعتذار للشاب عن التأخير وطلب منه أن يتمنى ثلاثة أمنيات فسأله الشاب أن يخبره بمصير الروح بعد الموت وأخبره إله الموت بأن هذا السر لا يعلمه الآلهة . فانصرف الشاب عنه وهو مرتاب فى أمر خلود الروح والتناسخ والكارما .

ويمكننا الوقوف كذلك على إحدى دروب الارتياب فى تعاليم الفيدا وأحاديث البراهمة عند السوفسطائيين الهندوس أولئك الذين سخروا من كل ما جاء فى أساطير الفيدا وأشعار الكهنة وشككوا فى المعارف التى حوتها .وأكدوا أن الحقيقة لا توجد فى الكتب المقدسة بل التى يرونها بحواسهم ويحكمون عليها طبقاً لوجودها فى الواقع .

وبدا الإلحاد كذلك واضحاً عند الماديين اللادينيين أولئك الذين راحوا يسخرون من تعاليم الفيدا ومن أقاويل كهنة البراهمة وأولئك عرفوا " باللوكايانا " (أى بالماديين) .

وتبدو كذلك عند المدرسة اليوجية التى لم تعبأ بتعاليم البراهمانية بحجة أنها تافهة وغير معقولة ، وباعتقادها أن الإنسان هو الحقيقة الوحيدة فى العالم . ويؤمن أنصار هذه المدرسة بأن الدين الحق يخلو من الطقوس والقرابين . بل يقوم على نبذ الشهوات واجتناب الرذائل وذلك عن طريق ترويض النفس على الفضيلة .

البوذية :

وهى حركة إصلاحية دينية ضد سلطة البراهمة وتعاليمهم واستحالت بعد ذلك إلى ديانة كبرى سوف نتحدث عنها بشيء من الإسهاب فيما بعد .

الجينية :

وهى حركة روحية أقرب في تعاليمها من طرق الصوفية وترمى إلى الخلاص والإنعتاق من تعدد الحيوات وتناسخ الأرواح وقانون الكارما . وقد تحولت إلى ديانة فى القرن الخامس عشر وسوف نتناولها بشئ من التفصيل فى الصفحات التالية (٢٥) .

السيخية :

وهى فرقة حاولت الجمع بين التعاليم الهندوسية والديانة الإسلامية وسوف نتناولها أيضاً بشئ من التفصيل .

فرقة براهمو :

وهى ترد الى " رام موهان روى " وقد ظهرت فى كلكتا عام ١٨٢٨ وقد حاول مؤسسها الجمع فى دعوته بين الأديان السماوية والمعتقدات الهندوسية . فراح يؤكد على أن جوهر البوذية والجينية والمسيحية والإسلام واحد ، ونادى بعقيدة التوحيد وعبادة الله المنزه عن التجسيد والتشبيه وأنكر أساطير الفيدا وشكك فى مصداقية أقوال البراهمة .

حركة أريا :

نادى أصحابها بالعود الى النصوص الفيدية الساذجة باعتبارها الكتاب المقدس الذى يحوى كل القيم والمبادئ والنظم وسائر العلوم وذلك بعد تخليصها من المؤثرات الدخيلة عليها من مسيحية وإسلامية وبوذية وجينية والأساطير الوثنية والنظريات الفلسفية وعلى رأسها فكرة وحدة الوجود ودعا مؤسسها إلى الوحدانية ونبذ طقوس البراهمة والتأويل العلمى لأشعار الفيدا .

وقد أنقسم أتباع هذه الحركة المعاصرين إلى فريقين : - محافظين وهم الذين تمسكوا بحرفية نصوص الفيدا . وليبرالين وهم الذين أعملوا

العقل فى تلك النصوص وأولوها بما يتوافق مع ثقافة العصر .

الحركة العلمانية :

وترمى إلى نبذ الهندوسية بكل ما فيها من أساطير ومعتقدات روحية بوصفها درب من الخرافة وإتباع الأسلوب العلمي فى التفكير والاتخاذ من الفلسفات المادية ولا سيما الشيوعية سبيلا للتقدم وإقامة العدالة الاجتماعية .

وإذا ما استعرضنا المحتوى العقدي للفرق السابقة سوف نتبين أنها تشتمل على جل أشكال الإلحاد واتجاهاته :-

فالمنبوذون يمثلون الإلحاد الناقص لأنهم مؤلهة أما وجهتهم فهي أقرب إلى الثورة على الفكر الاجتماعي الديني الذي سلبهم حقوقهم وأحط من شأنهم .

أما الشكاك والمرتابون فهم يمثلون إحدى صور الكفر بالمحتوى المعرفي للدين وتمثل نقودهم عزوفاً عن التراث الغيبي العقدي .

أما إلحاد البوذيين والجينيين فلا يعد تجديفاً على جوهر العقيدة الروحية أو إنكاراً للألوهية بل بعد إنكاراً لتعاليم البراهمة والشعائر والطقوس التي ابتدعوها . ومن ثم يعد هذا الإلحاد لوناً من ألوان الثورة على سياسة رجال الدين من جهة ، وشكلاً من أشكال الإلحاد التقويمي الذي يسعى إلى الإصلاح العقدي من جهة أخرى .

بينما يمثل إلحاد العلمانيين صورة الإلحاد الكامل وذلك لأنه يرفض الدين الهندوسي بالجملة (العقيدة – الشريعة – الطقوس والشعائر) . ويدين بالعلم والفلسفة بدلاً منه غير عابئ بقضايا التأليه وعالم الروح (٢٦) .

تعقيب

* لا ينبغي علينا تقدير تلك المؤثرات أو مواطن الشبه التي تجمع بين بعض المعتقدات الهندوسية وآراء بعض الصوفية من جهة ، وفرقة السيخية من جهة أخري . وذلك لأن جميعها لا يربو أن يكون لوناً من ألوان الإلحاد أو المعتقد الفاسد الذي يخرج صاحبه من الهندوسية والإسلام معاً ولم نورد هذه الأوجه من التشابه إلا مسايرة لطبيعة المنهج المقارن المتبع في دراسة الملل والنحل وإن كانت هذه الأفكار كلها من منظور الإسلام ملفوظة تماماً باعتبارها إلحاداً خالصاً .

قال تعالي : **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}** (المائدة الآية ٧٧) .

* إن محاولة البراهمة لتجريد الآلهة وجمعها في صورة براهمان محاولة فاسدة لأنها لم ترق إلي التنزيه الذي يخرج الإله من صيغ التأنيث والتذكير والصور المحسوسة والنسب والمحاكاة والتولد التي نفتها الأديان السماوية باعتبار أنها تكلمت عن الله بما أخبر رسله .

جاء في القرآن الكريم **{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** (الشورى الآية ١١) .

وأيضاً سورة الإخلاص : **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ}** إلي آخر السورة.

ولا يعد ما جاء في الأناجيل والتوراة من صور للتجسيد حجة ضد صفات التنزيه الخالص التي وردت في القرآن . وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل في موضعه من هذا الكتاب .

* أن صفة القداسة التي يضيفها علي كتبهم لا تعدو أن تكون إكباراً وتبجيلاً لموروث فاسد ، يضم بين جنباته كماً هائلاً من الآداب والأشعار والأساطير وأقوال الكهنة السابق منهم واللاحق - إلي غير ذلك كما بينا :- .

الأمر الذي يصرف صفة القداسة عن دلالتها ومعناها فالمقدس عندهم من صنع أيديهم علي حين أن الأمر يختلف تماماً في الأديان السماوية بعامة وفي الإسلام علي وجه الخصوص .

فالقداسة في الدين الإسلامي محصورة في القرآن وما صح عن رسول الله وما دونهما قابل للنقد والنقض .

قال تعالي : **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}** (الزمر الآية ٢٣).

وأيضاً : **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً}** (النساء الآية ١٢٢) .

وأيضا : **{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً}** (النساء الآية ٨٧) .

وقد وضع العلماء بعض الضوابط التي تغلق الباب أمام كل من يريد إضفاء صفة القداسة علي تعاليم أو معتقدات مغايرة لأصول الديانة . ويدخل في هذا الباب تعاليم الشيعة والبابية والبهائية والقديانية وغيرها من الفرق الفاسدة .

قال تعالي : **{مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىَ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىَ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىَ وَالْيَتَامَىَ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** (الحشر الآية ٧) .

وقول النبي ﷺ : **{من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه رد}** .

* أن مفهوم النبوة في الديانة الهندوسية يجمع بين الكاهن والفيلسوف والعراف وأصحاب القدرات الخاصة من السحرة والمشعوذين مما يجعل من النبوة أمراً مكتسباً وهذا المفهوم يخالف تماماً المفهوم الشرعي للنبوة .

  إذ النبوة في الشرع اصطفاء من الله لمن يشاء من عباده .

جاء في القرآن : **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** (الحج الآية ٧٥) .

والجدير بالإشارة أن بعض فلاسفة الإسلام قد دنا من هذا الرأي

ومنهم الفارابي وغلاة الصوفية والشيعة علي مختلف طوائفهم وقد وضعوا نصوصاً مكذوبة لخدمة أفكارهم . وقد أغلق القرآن الكريم هذا الباب تماماً .

قال تعالي : **{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}** (الأحزاب الآية ٤٠) .

* إن اعتقاد الهندوس بالتناسخ ، وإنكار البعث وإيمانهم بقانون الكارما، الذي يجعل من الإنسان رباً لمقدراته . وكذا فكرة وحدة الوجود، وجعل الاتحاد بالله هو الملجأ والخلاص . وتحول الكائنات من جنس إلي آخر .

كل ذلك يتعارض مع ما جاء في القرآن .

قال تعالي:**{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}** (الإسراء الآية ٧٠) .

وقال تعالي: **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}** .* الصافات الآية ٩٦ .

وأيضاً قوله تعالي : **{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ }** (الأنعام الآية ١٠٢) .

وأيضاً قوله تعالي :**{ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }** (البقرة الآية ٢٨).

والجدير بالذكر أن هذه القضايا العقدية والفكرية كانت مسار متناقضات ومساجلات المتكلمين والفلاسفة والصوفية في الحضارة الإسلامية أولاً ثم انتقلت لمفكري اليهودية والمسيحية بعد ذلك .

* أن مفهوم القرابين في الديانة الهندوسية يختلف تماماً عن مفهوم الأضاحي في الديانة الإسلامية وذلك لأن الله لا يناله شيء البتة مما يُقدم من الأضاحي والنذور والهبات قرباناً لله تعالي .

قال تعالي : **{ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون . لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ }** (الحج الآيات ٣٦، ٣٧) .

مراجع الفصل الثالث

مرتبة حسب ترتيب الورود

(١) أورسيل بول ماسون : الفلسفة في الشرق ، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف القاهرة، ١٩٤٥، ص١١٢، ١١٣ .

(٢) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة عبد الغفار مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة ، ع١٧٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، مايو ١٩٩٣، ص١٣٧، ١٣٨ .

(٣) أ. و. ف توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠، ص١٧٠، ١٧١.

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الندوة العلمية للشباب الإسلامي، الرياضي، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ، ص٥٣١ .

(٥) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٩٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يوليو ١٩٩٥، ص٣٩، ٤٢ .

(٦) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص١٨٢، ١٨٣ .

(٧) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٢٨٣ .

(٨) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص١٩١: ١٩٣

(٩) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١١، ١٩٩٩، ص٥٠، ٥١ .

(١٠) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٣٨، ص٩٦، ٩٧ .

(١١) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص١٥٠، ١٥١ .

(١٢) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص٤٦ .

(١٣) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص١٠٢ .

(١٤) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص١٦٩، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦ .

(١٥) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ،ص٩٧، ١٠٥ .

(١٦) جفري بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص١٥٢، ١٥٣ .

(١٧) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص١٥٨، ١٦٢ .

(١٨) نفس المرجع ، ص١٤٧: ١٤٩ .

(١٩) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص٩٤ .
(٢٠) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص١٥٦ .
(٢١) أحمد شلبي ، أديان الهند الكبرى ، ص٤٨ .
(٢٢) أورسيل بول ماسون : الفلسفة في الشرق ، ص١٢٨: ١٣٠ .
(٢٣) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص٣٨ .
(٢٤) أديب صعب : الأديان الحية نشوؤها وتطورها ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٩٥، ص٣٠ .
(٢٥) أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى ، ص٤٠ .
(٢٦) جون كولر : الفكر الشرقي القديم ، ص٤٢ .



الفصل الرابع

الديانة الكونفوشسية

يجمع معظم الباحثين في تاريخ الأديان علي أن الكونفوشيوسية أقرب إلي ميدان الفلسفة منها إلي ميدان الدين والعقائد .

فهي لا تعد عندهم إلا نسقاً أخلاقياً وسياسياً واجتماعياً ، استمدته من الثقافة الموروثة .

وأن كونفوشيوس الذي ترد إليه هذه الفلسفة لا يعدو أن يكون أحد الحكماء الذين قاموا بتهذيب الموروث من العادات والتقاليد والأعراف.

متجاهلين بذلك المظاهر الدينية الكونفوشية من طقوس وعبادات وقرابين ومعابد وآلهة وغير ذلك من الأمور المعهودة فى الديانات الوضعية القديمة(١) .

– ويبررون ما ذهبوا إليه بأن كنفوشيوس قد ظهر فى عصر ازدهار الفلسفة الصينية * الممتد من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، وأن جل أفكاره جاءت مبررة للتغيرات السياسية والاجتماعية التى عاشها الصينيون آنذاك . وأن تعاليمه لا تعدو أن تكون نظرية أخلاقية فلسفية وإن بدت فى ثوب ميثولوجى أسطوري(٢) .

ذلك فضلاً عن اعتراف كونفوشيوس نفسه بأنه ليس قديساً بل حكيماً.

بينما يعدها بعض الدارسين تطوراً لديانة أسرة شانج – التى حكمت الصين من القرن السادس عشر حتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد – تلك التى كانت تؤمن بالعرافة وعالم الروح وإمكانية الاتصال به ومخاطبته عن طريق الكهنة ، وتؤله قوى الطبيعة بجانب

---

* ظهرت الفلسفة الصينية فى طبقة النبلاء وقام المشتغلون بها بمهمة تعليم أبناء الطبقة الأرستقراطية (فن الحياة – الحكمة العامة – الحكمة الدينية – الشعر والموسيقى) وظهرت أول أكاديمية للفلاسفة فى القرن الرابع قبل الميلاد وكانت بمثابة الإرهاصات الأولى لأكاديميات العصر الإمبراطوري والجماعات الصينية الحديثة . وقد حرص الأمراء منذ ذلك الحين على مصاحبة الفلاسفة والتأدب عليهم وعقد المناظرات بينهم فى قصورهم . وكان كونفوشيوس واحد من أولئك الحكماء الذين اشتغلوا بالتدريس وكان لهم مدرسة فلسفية عريقة .

أرواح الموتى التى عرفت بنحلة الأرواحية * التى عملت أسرة تشو – التى حكمت الصين من ١٠٢٧ الى ٧٧١ ق.م – على ترسيخها حتى أضحت أقوى الديانات الشعبية الصينية آنذاك .

وقد ذهب أنصار هذا الاتجاه الى اعتبار كونفوشيوس مهذباً لهذه الديانة وأنه نجح بإصلاحاته وتقويماته فى تطويرها ويستشهدون على صحة آرائهم بهاتيك التعاليم والمبادئ التى انتحلها كونفوشيوس من ديانة أسرة تشو باعتبارها الأصول الروحية والتراثية المقدسة لدعوته الجديدة المتمثلة فى إقراره بنظرية التنصيب السماوى لحكماء الصين، وقدرية حركة التاريخ التى تولد وتبقى وتفنى بمقتضاها الحضارات ، وإيمانه بوجود الموجود الأسمى إله السماء. ذلك كله فضلاً عن تقديس الصينيين له باعتباره إلهاً معبوداً تقدم له القرابين (٣) .

وإذا تجاوزنا هذا الخلاف الذى مازال قائماً بين الباحثين المعاصرين حول طبيعة الفكر الكونفوشيوسى ونظرنا إلى الكونفوشيوسية باعتبارها إحدى الديانات المعاصرة العريقة فسوف ندرك أن أصولها ومعظم تعاليمها ترد الى كونفوشيوس ** (٥٥١ – ٤٧٩ ق .م) أما تأويلاتها

---

* الأرواحية ANIMISME إحدى النحل التى تؤمن بأن العالم مكون من كائنات روحية. وأن هناك ملكات غير محسوسة كامنة وراء الاحساسات والعقل . وأن التفكير والإبداع الفنى وليد الإلهام الذى أحدثه نشاط غير عادى لهذه الملكات . وتعتقد كذلك فى نظرية الطرح الجزئى التى تقضى بأن الأرواح البشرية تقوم بسياحات كونية بعيداً عن الجسد أثناء النوم وقد تتحد بالروح الكلى أو تهبط لمحادثة أرواح الجن والعفاريت أو تتصل بأرواح الكائنات الدنيا كالحيوانات والنباتات والحشرات والجمادات . ويعد هذا الإعتقاد من أقدم المعتقدات الروحية المعروفة فى الديانات الشعبية العريقة .

** كونفوشيوس هو كونج فوتسو أى المعلم كونج وقد انحدر من أسرة نبيلة كانت تحكم ولاية سانج وهى إحدى ولايات الصين . وتروى بعض الروايات أنه كان ابناً غير شرعي عاشر والده " هو " أمه دون موافقة أسرته وقد توفى بعد ولادته مباشرة وقد نشأ كونفوشيوس نشأة دينية وعمل برعى الأغنام والإشراف على الحدائق والأشغال العمومية عند أحد الأمراء وقام بتثقيف ذهنه بقراءة التاريخ وحفظ الشعر وسماع الموسيقى ثم ارتحل بعد ذلك وراح يبشر بحكمة أخلاقية جديدة وأنشأ مدرسة لذلك وهو فى الثانية والعشرين . وبلغ عدد تلاميذه ثلاثة آلاف تلميذاً أصبحوا بعد ذلك من أكابر رجالات السياسة والفلسفة فى عصره . وكان كونفوشيوس طويل القامة أنيق الملبس كثير المرح دائم السخرية فصيحاً وخطيباً بارعاً عميق الفكرة موجز فى حكمته محافظاً فى آرائه وكان عل دين العوام ، وقد أخذ عنه تلاميذه معظم هذه

فترد إلى تلاميذه وأتباعه (٤) .

وقد مرت الكونفوشيوسية بأطوار عديدة :- فظهرت بدايتها على شكل حكم أخلاقية ونصائح تربوية على لسان كونفوشيوس الذى ما برح يطورها لتشمل كل أمور الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى أضحت تعاليمه بمثابة حلماً يوتوبياً أو مدينة فاضلة وعلى الرغم من افتقار الحكم الكونفوشيوسية للاتئاق الفلسفي المعهود فى النظريات الفلسفية الكبرى إلا أن شذراتها على تباينها كانت تخلو من مواطن النقص والتناقض الأمر الذى كان وراء رسوخها عند تلاميذه ومريديه (٥) .

وقد ساهمت وجهة كونفوشيوس المحافظة تجاه المعتقدات السابقة عليه [الاعتراف برب السماء - احترام الطقوس الدينية - الإيمان بعبادة أرواح الأجداد - تأليه الحكام والأبطال] وتجنبه الصدام بالقوى

= الخصال . وسرعان ما أدرك كونفوشيوس أنه فى حاجه لتعلم الحكمة العقلية والدينية فارتحل برفقه أحد تلاميذه إلى مقاطعة تشو وتتلمذ هناك على الفيلسوف الصينى لاوتسو (نحو ٦٠٤ ق.م) - وهو مؤسس الديانة التاوية وصاحب كتاب الطريق والفضيلة - وتعلم الموسيقى على هيسانج تسى وتعلم كذلك الحساب وقيادة العربات والرسم والرماية والطقوس الدينية على كثير من حكماء الصين الذين قابلهم فى ترحاله . وفى سن الثلاثين أى نحو عام ٥٢٢ ق.م عاد الى بلدته " لو " ليعمل بالتدريس ثانية فى مدرسته وبتأديب أبناء الأمراء . وفى سن الخمسين عمل قاضياً بمقاطعة شانج تى وقد أطلق عليها سكانها المدينة الفاضلة نظراً لعدالة وحكمة كونفوشيوس فى تسييسها . وقد أهلته كياسته فى السياسة إلى بلوغ منصب رئيساً لوزراء دوق مدينة لو ، وقد بلغت حكمته السياسية مداها واخترقت شهرته الآفاق حتى لقبه الصينيون بالمعلم الداهية ، وراح أمراء الصين يستشيرونه فى كيفية تدبير شئون مقاطعتهم . غير أن حاكم " لو " أهمل شئون دولته واستجاب لإغراءات النساء الأمر الذى دفع كونفوشيوس الى مغادرة مدينته إلى ولاية " واى " غرب " لو " ولم يستقم هناك له المقام فارتحل ثانية الى ولاية " تشن " ومنها إلى ولاية واى وفى أبريل عام ٤٧٩ ق.م توفى كونفوشيوس فى مدينة لو مسقط رأسه ودفن على نهر إستس وقد تجمع حول مقبرته تلاميذه وعائلاتهم حتى أضحت هذه المنطقة قرية قديمة أطلق عليها كونج أو كنج واستحال قبره إلى معبد تقام عنده الذبائح وحفظت فى هذا المعبد ملابسه وآلاته الموسيقية وكتبه وعرباته . وقد بالغ تلاميذه وأتباعه فى تعظيمه حتى رفعوه إلى مصاف الآلهة وفى عهد الإمبراطور الأول لأسرة " هان " أى حوالى عام ٢٠٦ ق.م عبد كونفوشيوس مع آلهة الصين وقدمت لروحه القرابين .

السياسية الحاكمة فى انتشار تعاليمه ورفعة مكانته عند الصينيين (٦).

وقد تطورت تعاليمه على يد تلاميذه الذين انقسموا من بعده إلى اتجاهين وذلك منذ مطلع القرن الرابع قبل الميلاد ويمثل الاتجاه الأول "منج كو" الملقب بمنشيوس (٣٩٠-٣٠٥ ق.م) وقد وصفه المؤرخون بأفلاطون الصين ويرجع ذلك لوجهته المثالية فى تأويل تعاليم كونفوشيوس . إذ ذهب الى أن غاية الإنسان هى الوصول إلى الخير الأسمى والتحلي بالفضيلة التى تميزه عن سائر المخلوقات وأن الحب هو الطريق الذى يؤدى إلى العدالة المطلقة وأن الحاكم الحق هو الذى يرعى شعبه ويحقق لهم بحكمته العدالة والمساواة (٧).

ومن ثم ذهب إلى أن الفضيلة وحدها لا القوة هي التي تعلى من شأن الحاكم ، وتؤهله لاعتلاء العرش وتضمن له ولاء رعيته .

وعلى الرغم من مثاليته الأخلاقية رفض شعار المحبة الإنسانية الذي رفعه كونفوشيوس وأعلى عليه الولاء العائلي والإجتماعى ، وجعلهما نقطة الانطلاقة للولاء والتآخي الإنساني (٨) . وأقر كونفوشيوس على أن الإنسان خير بفطرته وأن الفضيلة مقرها العقل وأن الإنسان يستطيع أن يتحكم فى مقداراته عن طريق تهذيب نفسه وتقويم عقله وتنقيته من الأفكار الفاسدة غير أنه خلص الإنسان من قدرية الحاكم التى كانت تؤيدها المعتقدات السابقة . وفرق بين الطبيعة الفطرية الخيرة للإنسان وبين السلوك الأخلاقي الذي يكتسبه بمحض إرادته وبقدر علمه . ورد وجود الشر إلى سوء التربية ، وعجز الفرد عن قمع شهواته وأخيراً جهله وقلة معارفه (٩) .

وقد عالج بذلك مواطن القصور فى تعاليم كونفوشيوس إذ انصب اهتمامه على الشعب ، وجعل مصلحته فى مقدمة الفضائل التي يجب على الحاكم تحقيقها حتى يصبح إنساناً فاضلاً وبطلاً معبوداً .

أما الإتجاه الثانى فيمثله هسون تسو (٣١٢ - ٢٣٨ ق.م) وهو يعد الرجل الثالث فى الديانة الكونفوشية ، ويرد إليه صياغة تعاليمها فى صورة منطقية . حيث ذهب إلى أن الفضيلة ليست إرثاً ولا فطرة بل هى مطمح ومطمع وسعى يجب أن يسلكه الفرد من أجل التخلص من فطرته الشريرة . ومن ثم تكون الفضيلة عنده مكتسبة وتكمن سبل تحصيلها فى التعليم والإقتداء بسنة الحكماء الأجداد وقد جعل العلم لا القوة هى السلم

الأوحد للإرتقاء إلى كرسى الحكم(١٠) .

وقد نحى هسون تسو منحى إلهياً مغايراً لسابقيه إذ رغب عن فكرة إله السماء وفكرة المثال الأخلاقى . وأعرب عن انكاره لفكرة وجود إله متعالى ، والإعتقاد فى الصيرورة والطبيعة غير المشخصة .

ويبدو أن هذا التطور الذى طرأ على تعاليم كونفوشيوس لم ينجح فى إقناع الرأى العام الذى لم يجد فى تلك التعاليم جواباً شافياً عن العديد من التساؤلات التى طالما سعت الأديان إلى الإجابة عنها منها : ما الموت ؟ وما هو مصير الروح بعده ؟ وما هو الثواب الذى يثابه المرء عن أفعاله الخيرة ؟ وغير ذلك من الأمور الغيبية التى لم يتطرق إليها شراح كونفوشيوس فى هذه الآونة .

ذلك فضلاً عن عزوف تلاميذه عن مناقشة النظام الاجتماعي الطبقي السائد فى الصين آنذاك . الأمر الذى كان وراء إقبال الصينيين على اعتناق البوذية التى تسللت إلى الثقافة الصينية منذ أواخر القرن الثاني الميلادي

وانتحال بعض الأفكار التاوية التى قام بتطويرها " شوانغ تسو " فى هذه الحقبة ذاتها(١١) .

فقد تأثرت الكونفوشية تأثراً كبيراً بالمعتقدات الروحية الصوفية للديانتين البوذية والتاوية فى عهد أسرة هان(٢٠٦ ق.م-٢٢٠ .م) الأمر الذى دفع أتباع كونفوشيوس لصياغة بعض الأساطير التى تجعل لفكرة تأليه الأبطال أسس عقدية وأنساب إلهية محاولة منهم للتصدى للأفكار البوذية واستمالة الأباطرة والنبلاء إليهم . وفى عام ٢١٢ ق.م واجهت الكونفوشية اضطهاداً عظيماً فى عهد الإمبراطور " تشى إن شهوانج " إذ قام بحرق كتبهم وتفسيراتهم ودفنهم أحياءً ثم ثار الشعب على الحاكم من جراء هذا الفعل(١٢) .

وفى عهد الإمبراطور ووتى (١٤٠ - ٨٧ ق.م) أصبحت الكونفوشية ديناً رسمياً فى الصين .

وفى عام ٥٩م صدر مرسوم إمبراطورى بتقديم القرابين لكونفوشيوس باعتباره أحد الآلهة .

غير أن هذه المحاولات كلها لم تفلح فى الحد من انتشار البوذية التى كان يعتبرها الجمهور طوق النجاة من الحكم الطبقى وظلم الحاكم

الذى جعلته الكونفوشية قدراً عليهم لا مرد له .

فتذكر بعض الكتابات أن البوذية فى عام ٣٨١ م قد انتشرت فى شمال غرب الصين انتشاراً كبيراً ، بلغت نسبة معتنقيها ٩٠% من سكان هذه المنطقة . على حين انتشرت التاوية فى جنوب غرب الصين ، وقد بلغت الكتب البوذية المقدسة المترجمة إلى الصينية فى هذه الفترة أربعة وتسعين كتاباً .

غير أن كفاح الكونفوشيين للبوذية والتاوية لم ينقطع ففى عام ٥٠٥ م أوعزوا للإمبراطور "وو" ببناء معبد لكونفوشيوس فى عاصمة الصين (١٣) .

بيد أن جهودهم لم تفلح أيضاً فسرعان ما تحول الإمبراطور فى أخريات عهده – الذى إمتد من (٥٠٢ – ٥٤٩م) – إلى البوذية فسن أول قوانين صينية بوذية حرم فيها ذبح الحيوانات أو ايذاءها ، لتتافى ذلك مع تعاليم بوذا . وزاد فى عهده عدد المعابد والأوقاف والنساك البوذيين .

وقد استشعر الإقطاعيون وكهنة الكونفوشية وأمراء وأباطرة الصين خطر تعاليم بوذا على كيانهم السياسى . فحاولوا بعث تعاليم كونفوشيوس فى الثقافة الصينية من جديد فقرر الإمبراطور " تاى تسانج " فى عام ٦٣٠ م بناء معابد مزودة بتماثيل لكونفوشيوس فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأنشأ أيضاً فى عام ٦٤٧ م كليات إمبراطورية لتعليم الآراء والفلسفة والدين الكونفوشى(١٤) .

وفى عام ٦٦٥ م أطلق على كونفوشيوس لقب الأستاذ العظيم . وفى هذه الآونة تسللت الديانة المسيحية والمانوية والمزدكية والإسلامية الى الصين بيد أن أثرها جميعاً كان محدوداً جداً .

وفى عام ٧٣٥ م منح كونفوشيوس لقب ملك .

وعلى الرغم من ذلك لم تنجح الكونفوشية فى القضاء على البوذية فى الصين . الأمر الذى دفع بعض رجالاتهم بمعاونة كهنة التاوية فى تحريض الأباطرة الصينيين على البوذية ففى عام ٨٤٥م أمر الإمبراطور بهدم نحو أربعين ألفا من المعابد البوذية وتحويل مائتين وستين ألف ناسك وراهبة عنها(١٥) .

وفى الفترة من القرن التاسع إلى بدايات القرن الثانى عشر نجحت الكونفوشية فى استرداد بعض هيمنتها على الثقافة الصينية بفضل

نزعتها التوفيقية التى نجحت فى طبع المسيحية والبوذية والتاوية بطابعها وأطلق زعماءها على مذهبهم اسم الكونفوشية الجديدة .

وقد مثل هذا الإتجاه أتباع منشيوس الذين أضفوا على الكونفوشية طابعاً صوفياً يجمع بين تعاليم كونفوشيوس الأخلاقية الإنسانية وبين رهبنة بوذا الروحية ، وزعموا أن روح كونفوشيوس قد أملت عليهم تعاليم جديدة أو ملاحق عالج فيها الأمور التى لم يتعرض لها فى حياته الأرضية مثل خلق الكون ومصير الروح .

ويعد "تشوهى" (١١٣٠ - ١٢٠٠م) "وليوهسياتج شان" (١١٣٩ - ١١٩٣ م) من أعظم ممثلى هذه المدرسة . فيمثل الأول إتجاه المبدأ الذى يرى أن كل الأشياء مكونة من مبدأ روحى ومادة ، تُرد أصوله إلى مبدأ أعظم هو الأول الأسمى السرمدي .

أما "ليوهسيانج شان" فيمثل الاتجاه الحدسي ، الذي يرى أن إدراك الحقيقة يتم عن طريق الحدس أي المشاهدة الذهنية(١٦) .

وفى عام ١٠١٣ م لقب كونفوشيوس بالقديس الأعظم . وفى عام ١٣٣٠ م منح الأفراد المنحدرون من سلالته مرتبة الشرف وأصبحوا من طبقة النبلاء .

وفى عام ١٥٣٠ م بدلت تماثيل كونفوشيوس باللوحات حتى لا تختلط الكونفوشية بالوثنية(١٧) .

وفى عام ١٦٠٠ م نجحت جمعيات الجيزويت التبشيرية فى دخول الصين ونشر المسيحية على نطاق أوسع وذلك بمعاونة الخارجين على الكونفوشية .

ومنذ مطلع القرن العشرين بدأ نجم الكونفوشية فى الأفول ففى عام ١٩٠٥ م ألغت الحكومة شرط الحصول على شهادة من مؤسسة التعليم الكونفوشية للتوظيف فى الحكومة . وذلك عقب إنتحال أساتذتها العديد من عقائد الديانات إذ تأثروا فى تعاليمهم بصابئة الشرق فاقروا عبادة النجوم ، وفكرة وحدة الوجود البوذية ، وتقديس الإله المتجسد فى صورة الإنسان التى جاءت فى المسيحية .

وفى عام ١٩١٢ م ثار الشعب الصيني على النظام الإمبراطوري عقب سقوط الشهاب " هالى " إعتقاداً منهم بأن سقوطه يعبر عن استياء إله السماء من أفعال أسرة مانتشو وللنظام الإمبراطوري كله

الأمر الذى برر تبنى الصين النظام الجمهورى . وفى نفس العام ألغت الدولة تدريس تعاليم كونفوشيوس فى مدارسها الحكومية(١٨).

وفى عام ١٩١٤ حاول رئيس الصين "ياه شاه كى" إحياء الديانة الكونفوشية فقدم القرابين وأقام الطقوس لإله السماء وفق تعاليم كونفوشيوس ، وبنيت كنيسة كونفوشية وجامعة للعلوم فى بكين .

غير أن هذه المحاولات لم تستطع الصمود أمام جحود الشباب للعقيدة الكونفوشية وتعاليمها التى وصفوها بأنها ديانة رجعية تعمل على تقييد الحريات .

وفى عام ١٩١٦ م أسس " تشين تو – هسيو" مجلة الشباب الجديد وتزعم حركة تستند على دعامتين هما الديمقراطية والعلم .

وأعرب عن رفضه لكل المعتقدات الدينية التليدة (التاوية – البوذية – الكونفوشية) ، ونادى باقتفاء الغرب فى نظمه السياسية .

وفى عام ١٩٢٨ م حرمت الدولة تقديم القرابين إلى كونفوشيوس .

وفى عام ١٩٣٤ م عادت فألغت القانون ،وأباحت تقديم القرابين له .

وأصبح يوم ٢٧ أغسطس عيداً وطنياً فى الصين . وتزعم الجنرال تشانج كاى تشك (١٨٨٧ – ١٩٧٥) حركة البعث الجديد للديانة الكونفوشية ، وأشاع أتباعه أن علة هزيمة الصين فى حربها مع اليابان عام ١٩٣١ م ترجع الى إهمال الكونفوشية(١٩) .

ولم تتوقف هذه الحركة إلا بعد سيطرة الشيوعيين على الصين عام ١٩٤٩م .

وفى عام ١٩٣٧ م أقامت الحكومة الصينية هيكلاً فى نانكينج بكيانج عاصمة كوانج سى . يجمع بين الطابع الكلاسيكى الدينى والسمات العلمانية المعاصرة . رفعت أعلاه لوحة تحوى حكماً لكونفوشيوس وتحتها تمثال رخام نصفى لمؤسس الصين الحديثة صن يات سين ، ومن حوله لوحات تمثل آباء الحضارة الحديثة مثل نيوتن وباستور وجاليليو وجيمس واط وبنجامين فرانكلين .

وأراد المستنيرون الصينيون بذلك التعبير عن السمات الثقافية التى تترسمها الصين لمستقبلها (٢٠) .

ويبدو ذلك بوضوح فى تصريحات ماوتسى تونج (١٨٩٣ – ١٩٧٦ م) فى أخريات العقد السادس من القرن العشرين . التى

رفض فيها منطق القوة الشيوعى السوفيتى فى القضاء على المتناقضات الثقافية الداخلية إيمانا منه بأن الشيوعية لن تستطيع إقتلاع الدين من تربة الثقافة الصينية مؤكداً أن المساواة التى يدعو إليها ماركس ولينين ليست أعز على الصينيين من تاويتهم أو بوذيتهم أو كونفوشيتهم . وأن تقدم الصين مرهون بقدرة زعماء الشيوعية ، على استحالة شيوعيتهم إلى دين يجمع بين الثوابت الأخلاقية " التابوذ فوشية " ، وبين العلوم الحديثة والديمقراطية التى تعمل على توعية الشعب وترقيته .

وقد ظهرت تأويلات كونفوشية جديدة على يد شوانج شيه لى (١٨٨٥ - ١٩٦٨) لتأكيد هذا المنحى (٢١) .

وفى عام ١٩٧٦ م دعا موتسي تونج الى إعادة المعابد التاوية والبوذية وبعض الكنائس والمساجد ، إعترافا منه برسوخ الوازع الدينى فى الثقافة الصينية ، وتعبيراً عن تسامحه تجاه المتدينين .

وقد أيدت هذه الحركة من قبل بعض الصحفيين الشيوعيين ، الذين أعربوا عن تسليمهم بأن الدين من الثوابت التى لا يمكن الإطاحة بها . وذلك فى صحيفة العلم الأحمر عام ١٩٨١ .

ويبدو أن الثقافة الثنائية الصينية التى جمعت بين الدين والعلم فى سياق واحد قد مكنت قاداتها المعاصرين من تفسير وتبرير وتغيير سياساتهم تبعاً للظروف المحيطة .

فها هي الكونفوشية تقف وراء الاتجاه الليبرالي المعاصر في الصين وتساند التسامح الديني ، الذي أتاح للمبشرين المسيحيين ودعاة الإسلام قدراً موفوراً من حرية الدعوة (٢٢) .

ويجمع المعنيون بتاريخ الأديان على أن الجانب العقدي والأخلاقي من الكونفوشية لم يتزعزع فى وجدان الصينيين . وأنه كان وراء ثبات الهوية الصينية ووحدتها القومية .

ويجدر بنا الإشارة إلى أن الكونفوشية قد تخطت حدود الصين منذ عشرين قرناً .

فقد ظهرت فى كوريا واليابان فى القرن الثالث الميلادي . وسادت على غيرها من الديانات فى العصور الوسطى ولا سيما فى البرامج التربوية والمناهج الدراسية . لا فى كوريا واليابان وحدهما

بل في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقي (٢٣) .

ففي القرن السابع الميلادي درجت جامعة " نارا " اليابانية مؤلفات كونفوشيوس ضمن مناهجها التعليمية .

وفى عام ١٨٩٠ حاكت القواعد الإمبراطورية اليابانية في التربية تعاليم كونفوشيوس .

أما فى أوروبا فظهرت الكونفوشية فى القرن السابع عشر على شكل مؤلفات فلسفية مترجمة منها أحدث الطرائف الصينية للفيلسوف الفرنسى ليبنز عام ١٦٩٧ م .

وقد ترجمت أعمال كونفوشيوس إلى اللغات الحية على يد الأب اليسوعى بيتر نويل عام ١٧١١ م (٢٤) .

* * *

مفهوم الألوهية والكتب المقدسة

لقد جمعت الديانة الكونفوشية فى فكرها الإلهى بين العديد من الصيغ والأنماط المتناقضة فعلى الرغم من اعترافها بوجود إله مجرد نجدها تقر تأليه البشر ويتمثل ذلك فى عبادة الأبطال والأباطرة بحجة أن لهم أنساباً إلهية مقدسة . وتجمع كذلك بين فكرة الوحدة ، والثنائية والكثرة :-

فتبدو الوحدة في إله السماء السرمدى الذى ترد إليه كل الموجودات وتتمثل الثنائية فى دربين :- أولهما علاقة إله السماء بإله الأرض وتعاونهما فى خلق الحياة . وثانيهما تبدو فى تفويض إله السماء ابنه الحاكم فى تسييس شئون دولته (٢٥) .

أما الكثرة فتمثلها عبادة أرواح الأجداد والأجرام السماوية .

وسوف نتحدث عن هذه الصيغ بشئ من التفصيل

* **شانج تى إله السماء الأعلى** وهو لفظ مرادف لتين أى السماء. ومن أسماءه فى العصور الحديثة " تاو " إله النظام العالمي ، وهو

عند البروتستانت الصينيين الإله الأب بجانب " تشن شن " ، ويطلق عليه الكاثوليك الصينيون لقط " تين شو " ، وهو عند المسلمين الصينيين الله (٢٦) .

ويعده كونفوشيوس العلة الأولى لجميع الموجودات ، وواضع السنن الكونية التى تسير عليها كل المخلوقات ، والمتحكم فى مقدرات الآلهة والمصطفى لحكام الممالك – الذى ينعم عليهم بتأييده ونصره فى رضاه ، وينقم عليهم فيدحر ممالكهم عقاباً لعصيانهم له وتعبيراً عن غضبه عليهم – وهو المتحكم فى حركة التاريخ .

* **تشن تزو** Chun Tze ابن إله السماء المتحكم بتفويض منه فى تنظيم العالم الأرضي والمخول باختيار من ينوب عنه من الملوك والحكام الذين يقومون بدورهم بإعداد التقارير الخاصة بأحوال الممالك الأرضية وأخبار الزرع وتقديم القرابين لأرواح الأسلاف بعامة والإله الأعلى بخاصة وغير ذلك من الطقوس وهى بمثابة المواثيق الدينية المثبتة لحكمه على الأرض والضامنة لرضا وولاء شعبه نحوه .
* **الآلهة الخمسة** ظهرت هذه الفكرة عقب موت كونفوشيوس وتأليهه. فقد نحى تلاميذه منحاه التوفيقى فى معالجتهم لفكرة الألوهية إذ جمعوا بين الآلهة التليدة المعبودة ، وبين الفكر الثقافي السائد ، وبين الفكر الوليد المطروح . فعبد كونفوشيوس باعتباره إلها بجانب أربعة آلهة آخرى تليدة وهى إله السماء الأعظم وإله الأرض وأرواح الأجداد والأبطال وآلهة الجبال والأنهار . وكانت تقدم لهم جميعاً القرابين خرافاً وثيراناً وخموراً وعطوراً ، وأقيمت لهم تماثيل منصوبة فى متحف العظماء (٢٧).
* **أرواح الأجداد** تعد فكرة تأليه الأجداد من الأفكار التى ورثتها الكونفوشية من الديانات الشعبية القديمة وأكدتها الهندوسية والتاوية ولم تنكرها البوذية .

ويبرر الكونفوشيون عبادة أرواح الأجداد بعديد من المبررات منها أنها تعبيراً عن الحب والشوق الذى يكنه الأبناء نحو الأباء .

ومظهراً للطاعة والانصياع لهم تقديراً للبركات التى تمنحها هذه الأرواح لأحفادها مثل وهبهم القدرة على الإنجاب ، والمباركة فى الزرع والبيع .

وشكراً لهم على النصائح التى يسدونها تبعا لعلمهم غير المحدود .

فيعتقد الكونفوشيون بأن هناك لغة رمزية يرسلها ساكنوا السماء إلى ساكني الأرض لإنبائهم عن الأخطار الآتية والخيرات المنتظرة (٢٨) .

هذا كله فضلاً عن حق التبعية الذي نص عليه عقد الاستخلاف على الأرض المبرم بين إله السماء وبين خليفته البشرى (الأمير أو الإمبراطور) فكان يعتقد الكونفوشيون فى أن تنصيب الحاكم من الأقدار السماوية ومن ثم على المؤمنين طاعة أوامر الحاكم باعتبارها أوامر إلهية أفضى بها إله السماء لمن استخلفه على الأرض .

وقد طور كونفوشيوس هذا المعتقد إذ جعل طاعة الآباء الأحياء واجباً مقدساً يجب على كل من يؤمن بالكونفوشية أداءه حتى لا تصيبه اللعنات . الأمر الذى جعل بعض الباحثين فى فلسفة الدين تشبيهه بسقراط الذى أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض (٢٩) .

* **البطل** لقد قدس الكونفوشيون البطل فى صورتين .

أولهما صورة القائد أو البطل البشرى ويمثله " يو " الأكبر باعتباره منشئ النظام الملكى وبطل الطوفان الأول وجد لأسرة تسو .

وهو – تش أمير ميلت والجد الأكبر لعشيرة تشى .

وقد روى عن كونفوشيوس أنه أباح الكفر بعبادة البطل الحاكم، والخروج عليه . وذلك عند تخليه عن فضيلة العدالة ، ونكسه العهد الذى أبرمه مع إله السماء عند توقيع ميثاق تفويضه فى حكم الأرض. ومما جاء عنه فى ذلك << أن أساس التفويض الإلهى هو أن يستخدم الحاكم هذا التفويض لمصلحة الشعب ، وهنا يكون الشعب ملزماً بالخضوع والطاعة لإدارة الحاكم – أما إذا حاد الحاكم عن الأخلاق الفاضلة واستغل التفويض لمصالحه الذاتية فان الشعب لا يكون ملزما بأية طاعة له ، وعليه أن يثور لكى يأتى مكانه مفوض آخر يراعى حدود التفويض >> .

وثانيهما صورة البطل الإلهى الأسطورى ويمثله " فو – هى " و " نيو – كوا " وهما زوجان قد أوكل لهما عملية تنظيم وجود الأجناس فى سائر الموجودات . و " ياؤو " ذو الشكل الشمسى ، المتحكم فى الكواكب المضيئة ومؤسس الآداب الإجتماعية والأخلاقية . و " شوين " وهو راعى الإخلاص وغارس بذور المحبة بين البشر(٣٠)

وتتميز فكرة عبادة البطل الصينية عن دونها من الديانات . بأن البطل فيها ينال حظاً موفوراً من التقدير والتقديس والقرابين شأن الآلهة الكبار . ولا شئ يميزه عنهم إلا أن عبادتهم صوريه مرهونة بوجوده ، فسرعان ما يتحول عنه عباده إلى عبادة بطل آخر إذا غاب أو انتهى عهده أو أفل نجمه .

***النجمة القطبية** : وهى من المعبودات المستحدثة فى الديانة الكونفوشية وذلك لأنها لم تظهر إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد بعد وفاة كونفوشيوس ولا يوجد ما يفسر عبادتها فى شذراته وتلاميذه الأول فذهب البعض إلى أن الصينيين يعتبرونها رمزاً للحاكم ويرى البعض الآخر أنها كانت عندهم تمثل إحدى تجليات إله السماء بينما يرى فريق ثالث أنها فكر صابئ قد انتقل إلى بعض الصينيين من ديانات الشرق الأوسط (٣١) .

الكتب المقدسة

يجمع المعنيون بمقارنة الأديان على أن الكتب الكونفوشية المقدسة تحمل طابعاً يميزها عن مثيلاتها فى الديانات المختلفة ويرجع ذلك إلى أن صفة القداسة التى وسمت بها هاتيك الكتب لا ترد إلى قوى غيبية عليا [وحى – حديث الأرواح السماوية] ولا ترجع كذلك إلى مؤسسها الذى طالما أكد على أنه ليس بمبتدع فى تعاليمه . بل أكد على أن حكمه مستقاه من تراث الأجداد الزاخر . وأن تعاليمه ما هى إلا إحياء لسنن السابقين عليه ولم يصرح بأنه يأتيه الخبر من السماء إلا فى شذرات محدودة ، يبدو أنها قد نحلت عليه من قبل بعض تلاميذه الذين غالوا فى تبجيله . فزعموا أنه مفوض من السماء لهداية البشرية ، ووسموه بأنه . (معلم الجنس البشرى) . واعتبروا كتابه المنتخبات بمثابة الإنجيل الكونفوشى وفسروا وصيته لتلاميذه بحفظ حكمه وتبليغها من بعده باعتيارها وصية نبى (٣٢) .

غير أن مضمون التراث الكلاسيكى الكونفوشى يؤكد أن

كونفوشيوس لم يكن سوى مصنفاً ممتازاً لتاريخ أمته . أو قل إن شئت رائداً من رواد التحقيق القلائل الذين انتحوا النقد والتقويم منحاً فى عرض وتحليل الفكر الموروث ، الأمر الذى يبرر تقديس الكونفوشيين لكتب كونفوشيوس . فهى عندهم المرآة الصافية التى تعكس لهم أخبار الأسلاف وتحدثهم عن أمجاد الأقدمين وتذكرهم بمجد حضارتهم العريقة التى يستمدون منها الولاء والإنتماء والهوية الثقافية (٣٣) .

وسنستعرض فى السطور التالية هذه الكتب المنسوبة لكونفوشيوس وتلاميذه من بعده ، مشيرين إلى محتواها ومضامينها العقدية .

كتاب الأغانى :

وهو مختارات من الشعر الصينى المبكر وترنيمات لملوك أسرة تشو وله أهمية خاصة بوصفه أول تعبير أدبى للصينيين عن المشاعر الدينية ويشتمل على عدة ترنيمات وابتهالات واعترافات موجهة إلى الأسلاف من الملوك ، وتراتيل قصصية تروى للآلهة أعمال البسالة وأخبار المعارك وأغانى تشيد بمحاسن الملك وأخرى عهود من الكهنة والرعية للطاعة له بوصفه الحاكم المختار من قبل السماء .

وتحدثنا بعض الكتابات على أن نصيب كونفوشيوس من هذا المصنف يتمثل فى تلك الأناشيد الأخلاقية والترنيمات المنغمة التى تشرح أهمية الموسيقى فى أداء الطقوس الدينية أثناء تقديم القرابين (٣٤)

كتاب حوليات الربيع والخريف :

يتضمن شذرات من تاريخ مملكة " لو " قام كونفوشيوس بتجميعه وقام من بعده الكتاب الصينيون بشرحه وتفسيره والتعليق عليه كما ظهرت له تفاسير خاصة عرفت بالتفاسير السرية كتبت فى عهد أسرة هان . ويحتوى على الأفكار الدينية التى كانت سائدة فى تلك الحقبة ونصوص بعض المعاهدات والطقوس الخاصة بالزواج والوفاة فى البيت الملكى وبعض الأحداث المشؤمة مثل ظهور مواليد مشوهة أو الكوارث الطبيعية .

ويشيد بعض الباحثين بالشروح التى كتبت لهذا الكتاب ومنه من إرتأى أنها أهم من المتن الذى قام كونفوشيوس بوضعه .

* **ترنيمات الشامان :**

وهى عبارة عن تسع ترنيمات وهى جزء من مرثيات تشو وطقوس الإحتفالات وبعض الأشعار الجنسية والغزلية والنواح (٣٥) + (٦٥) .

* **المختارات أو المنتخبات :**

ويقع فى عشرين مجلداً تضمن أقوال كونفوشيوس وبعض التعاليم المنحولة عليه من أقوال السابقين وهى الجزء الأكبر من الشريعة الكونفوشية المقدسة – وقد قام تلاميذ كونفوشيوس بإضافة العديد من التفاسير والشروح إلى المختارات على متنه . وكان يعتبره الصينيون إنجيل كونفوشيوس المقدس .

* الأعمال الكلاسيكية الخمسة أو الجنجات الخمسة أو كتب القانون الخمسة :- وهى الأسماء التى أطلقها الكونفوشيون على مصنفات كونفوشيوس وشروحها وتأويلات تلاميذه وتشتمل على خمسة مصنفات هى :-

كتاب الشعائر

(لى – تشى) وهو جامع للمبادئ الأخلاقية الكونفوشية الخاصة بآداب السلوك الروحى والطبيعى .

كتاب التغيرات

(آى – تشنج) ويشتمل على شروح وتعقيبات وتأويلات مختلفة على كتاب الشعائر .

كتاب القصائد

(شى – تشنج) ويحوى نصائح وحكم ومواعظ كونفوشيوس الأخلاقية .

كتاب حوليات الربيع والخريف

(تشون – تشيو) الذى تحدثنا عنه سلفاً.
وكتاب التاريخ (شو– تشنج) .

كتاب الانسجام المركزى

كتبه حفيد كونفوشيوس تزتس ويعتبر من المؤلفات الأربعة

الرئيسية التى كتبها تلاميذ كونفوشيوس وأتباعه لعرض مبادئ الكونفوشية ونشرها بين الناس .

المؤلفات الأربعة

وهى من أعمال تلاميذ كونفوشيوس وتحوى أربع مصنفات تدور كلها حول تأويلات أقوال كونفوشيوس وهى :-

* كتاب الانسجام الطبيعي سابق الذكر
* كتاب المقتطفات الأدبية أو الشذرات وهو عبارة عن أقوال مأثورة لكونفوشيوس (٣٦) .

كتاب العلم العظيم

الذى يعتبره الكثيرون من طلاب العلم أوضح ملخص للعقيدة الكونفوشية .

وهذين الكتابين الأخيرين لا يعرف لهما مؤلفاً على وجه الدقة والتحديد .

أما الكتاب الرابع فهو :

كتاب منشيوس

وقد كتب على غرار المختارات ويحتوى على أقوال المنشيوس وحكايات توضيحية وحكم وأمثال سائرة . وقد امتاز ببساطة أسلوبه والاسهاب فى شرح التعاليم . ويعاب عليه تشتت أفكاره ، وتبعثر آراءه التى قام فيها بتأويل الكتابات السابقة عليه (٣٧) .

* * *

أهم المعتقدات والطقوس

لقد اتخذت المعتقدات الكونفوشية منحى تقليدى محافظ الى حد كبير . فلا نكاد نلمح من بين العقائد التى أقرها كونفوشيوس فى دعوته ما يخالف المألوف والسائد فى مجتمعه . الأمر الذى يجعلنا لا نجانب الصواب عندما نصف العقائد الكونفوشية بأنها عقائد تبريرية فى المقام الأول ، وأن دعوتها للتغيير أقل بكثير من الدور التفسيرى الذى اضطلعت به(٣٨) .

فقد عكف كونفوشيوس – كما أشرنا سلفا على دراسة الفكر الموروث ، لينتقى منه ما يعينه على تبرير الواقع الذى يعيش فيه . وقد مكنته أريحيته من فحص القيم الموروثة وانتخاب الأصيل والثابت منها، ليعيد تأويله وتفسيره ثم وضعه فى سياق يتوائم مع متطلبات عصره . وقد انتهج تلاميذه من بعده عين المنهج فظهرت العديد من الشروح والتفسيرات لكتابات أستاذهم ، وكلها تسعى إلى نفس المقصد أى تبرير الواقع والتأكيد على أن التراث المقدس قادر دائما على مواكبة المتغيرات الحضارية(٣٩)+(٦٣) .

أما الجانب الجديد والطريف فى المعتقدات الكونفوشية يكمن فى انتقاء الأفكار التليدة وتفسيرها وتأويلها . وسوف نحاول فى السطور التالية توضيح ذلك :

الجين

وهو مثال المثل فى العقائد الكونفوشية وله عند كونفوشيوس وتلاميذه دلالات عديدة أهمها الفطرة ، الفضيلة ، الخير الإنسانى ، الرجولة الحقة ، الطابع الأخلاقى ، الإحسان ، الحب والعدالة .

وهو يرمز إلى العنصر المهذب فى العشيرة الأولى التى يجب على كل فرد فى المجتمع الإقتداء بها ثم أصبحت بعد ذلك دلالة على كل الأفعال الخيرة مثل إنعدام الأنانية ، الإخلاص للأمير واحترام الآخرين . ثم أضحى مثلاً للحاكم النبيل وسبيلاً للإرتقاء الروحى الذى ينتهى به إلى الألوهية والقداسة و يقول كونفوشيوس فى ذلك << إن المثقف الحاذق ،

ورجل الإنسانية " الجين " لا يسعى قط للحياة على حساب الإنسانية " الجين " وهو الذي يؤثر التضحية بحياته لكى يحقق الإنسانية >> .

الفضيلة " تى "

وهى القوة التى تدفع الفرد نحو الجين أى العمل الخير والحياة الروحية . وهى باطنية ملازمة للفرد يستمد منها قوته على إحداث الأفعال وآداء الطقوس الدينية ومراعاة الآداب الإجتماعية وقد أكد كونفوشيوس على أن كل أشكال العبادة وكل أنواع القرابين لا تحقق السعادة لمن يتجاهل الآخرين ويرفض مساعدتهم وتقديم العون لهم فالفضيلة عنده تبدأ من حب المرء لأخيه وطاعته للحاكم . ويعدها الوسط الذهبى بين رذيلتين *

فالطبيعة الإنسانية عنده تتكون من عنصرين أولهما الذات الإنسانية المحضة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقي ويعدها كونفوشيوس الوسط أما العنصر الثانى فهو الانفعالات الإنسانية مثل (الفرح – الحزن – الغضب) ويؤدى انسجامها في النفس الإنسانية إلى القانون الأخلاقي (٤٠) .

والرجل الفاضل هو الذي يسير على نمط الطبيعة الإنسانية فيكيف نفسه وفق الظروف ويلزم الوسط في تصرفاته بلا إفراط أو تفريط .

والرجل غير الفاضل هو الذي يجنح عن القانون الأخلاقي إما بالتدني أو بالتعالي (٤١) .

فالإفراط فى النبل رذيلة والإفراط فى التواضع نقيصة ويقول كونفوشيوس << إننى أعرف الآن لماذا لا يفهم كثير من الناس القانون الأخلاقى فالأفراد ذوو الطباع السامية يعيشون فى مستوى أخلاقى يعلو القانون الأخلاقى أى أعلى من ذاتهم الأخلاقية العادية .

والأفراد ذوو الأخلاق المنحطة يعيشون فى مستوى يقل عن المستوى العادى للقانون الأخلاقى >> (٤٢)

---

* نظرا لتعاصر بوذا مع كونفوشيوس وإطلاع كل منهما على فكر الآخر لا يستطيع الباحثون القطع بنسبة هذه الفكرة لواحد منهم (أى الفضيلة وسط بين رذيلتين) غير أنه من الواضح أن أرسطو (٣٨٤- ٣٢٢ ق.م) قد تأثر بها فى كتابه الشهير " الأخلاق النيقوماخية " وقد أخذها عن واحد منهما .

الواجب

يرد كونفوشيوس القانون الأخلاقى أو الخير الأسمى لإله السماء الذى ورثه بدوره لعقل الإنسان فأصبح بمثابة الجوهر الثابت الذى لا يتغير ، والفطرة السليمة التى لا تتحول . ويتمثل فى مبدأ الواجب الذى نشعر نحوه بالجبر والإلزام . ويرد كونفوشيوس الشرور إلى الجهل الذى يمرض الضمائر التى لا تنشط إلا بالتعليم والتزود بالمعارف المختلفة . الأمر الذى يبرر إعلائه من شأن الحكماء على غيرهم << أن الناس يولدون خيريين سواسية بطبيعتهم ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكتسب من عادات >> << إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة فإذا افتقد الإنسان هذه الإستقامة أثناء حياته افتقد معها السعادة >> << إن الطريق العملى لتحقيق الواجب هو الإذعان لهذا الصوت الداخلى وأن الضمان المطمئن هو مداومة مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها ، فإذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الإنسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل(٤٣) . والعلة فى هذا هى أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتمنعنا من أن نحكم أحكاما صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجى . >>

الولاء (هسياو)

وهو إجلال الآباء والإخلاص لسيرة الأسلاف فيؤكد كونفوشيوس على أن احترام الأبناء لآبائهم من أعلى وأسمى الفضائل وهى القاعدة الأساسية التى شيدت عليها عبادة أرواح الأسلاف و الأجداد والولاء الذى قدم لهم فى حياتهم الأرضية . وللولاء عند كونفوشيوس صور خمس هى الولاء للأمير وللأبوين وللأخ الأكبر وللزوج وللصديق (٤٤) + (٦١) .

المانا

هى القوى الداخلية التى تمنحها أرواح الأسلاف لخلفائهم فتجعلهم أبطالاً أو ملوكاً وتمنحهم القدرة على الإنجاب وتضن بها إذا غضبت عليهم ، وهى كذلك علة تخصيب الأرض والحيوانات .

مدينة الله وطبقات المجتمع :

يرد الكونفوشيون الحاكمية الى إله السماء ويعدون الحاكم كبير الكهنة المفوض بحكم الأرض من قبله أما المعلمون فهم بمثابة الرهبان والكهنة الصغار.أما التلاميذ فهم بمثابة الحواريين الذين يمثلون الطبقة الوسطى بين طبقة النبلاء والطبقة الشعبية وهم جميعا يعبدون إله السماء وإله الأرض وكونفوشيوس وأرواح الأجداد(٤٥)

* الوجود

يرى الكونفوشيون أن الموجودات وليدة العلاقة الروحية القائمة بين إله السماء والأرض تلك التى تمخض عنها كل الكائنات. والعالم عندهم ملئ بالأرواح المتجسدة فى صور متباينة والإنسان هو مركز الكون باعتباره الكائن الذى جمع بين عناصر إله السماء الروحية وإله الأرض المادية وقد ورث عنهما معاً سبعة انفعالات هى البوح والغضب والحزن والحب والكره والرغبة والخوف .

وعلى الإنسان السوي أن يعتدل فى سلوكه بمقتضى هذه الانفعالات (٤٦) .

تقديس الخمسات :

يقدس الكونفوشيون رقم خمسة باعتباره أكمل الأشكال الهندسية وينسبون إليه العديد من الأسرار وله عندهم عدة دلالات وأشكال منها :-

- العناصر الخمسة التى تتكون منها الأشياء وهى المعدن، الخشب ، الماء ، النار ، التراب .
- الجهات الخمس هى شرق ، غرب ، شمال ، جنوب ، وسط .
- القرابين الخمس وهى الخمور، العطور ، اللبن ، الدماء ، الأرز.
- الآلهة الخمس إله السماء ، وإله الأرض ، إله الجبال ، إله الأنهار، وأرواح الأجداد .
- درجات القرابة خمس هى : الأبوة ، والأمومة ، و البنوة والأخوة ، والزوجية .
- الألوان الخمس الرئيسية هى : الأبيض ، الأسود ، الأحمر ، الأخضر ، الأزرق .

- المفاتيح الموسيقية الخمس: ری، مى ، صول ، لا ، سى (٤٧) .

الرهبنة :

تعد رهبنة كونفوشيوس متميزة عن سائر أنماط الديانات الأخرى وذلك لخلوها من شعائر التنسك ورفضها العزلة فى المعابد والأديرة والكهوف ، فالراهب عنده ذلك الذى يحمل بين يديه أنفس الجواهر ليوزعها على الناس ويسدى لهم النصيحة ويرشدهم إلى الفضيلة ، وهو الرجل الأمين الصادق الذى لا يخشى فى الحق سطوة ظالم ولا يذله ويحط من كبريائه قوة حاكم ، وهو المعتدل فى حياته ، واللين فى نصحه ، والمحافظ على ميراث الأجداد ، معتزل الفتنة ، واسع المعرفة ، محب للناس كافة والحزم والتواضع والكرم (٤٨).

* الموسيقى والطقوس :

يبالغ الكونفوشيون فى إجلال وتعظيم الموسيقى فهى عندهم علة نظام الكون والنظم الإجتماعية والسياسية والأخلاقية وعلة إنسجام عناصر الطبيعة وهى السبب الأول فى تصالح الآلهة . أما الطقوس فهى التى تحدد مراتبهم ، وهى اللغة التى إخترعها الإله ليسوس مخلوقاته ، وهى كلمة الحب بين السماء إلى الأرض ، وهى كلمة الشكر من الموجودات الأرضية إلى السماء .

وهناك نوعان من الطقوس : الأولى تؤدى إلى أرواح الأجداد وهى مأخوذة عن الهندوسية والبوذية . أما البوذية فتؤدى فى المعابد ولها مراسم ونظم يقوم بأدائها الكهنة المنوطون بتقديم القرابين دون غيرهم وعلى رأسهم الحاكم باعتباره الكاهن الأكبر وابن السماء (٤٩) .

ويقام لعبادة الأسلاف معبداً ضمن مجموعة مبانى القصر فى المبنى المركزى ويتكون هذا المعبد من ضريح أسلاف أسرة تشو . ويقوم الكهنة (النبلاء والأمراء) بتجهيز الحاكم للدخول إلى المعبد والإشراف على تقديم القرابين ، ويستبيح الكهنة دماء أسرى الحروب باعتبارها قرباناً لأرواح الأسلاف عندما يأتى بهم أمراء المقاطعات . ويقدم للملك ذبائح وخمور ثم يولم عليها فى اليوم التالى حيث تقدم أجزاءً منها إلى الرعايا المجتمعين (٥٠) .

الروح ومصيرها بعد الموت :

لم يتطرق كونفوشيوس ولا تلاميذه من بعده إلى موضوع الروح وعقيدة التناسخ والثواب والعقاب وتحضير الأرواح الأمر الذى كان وراء إستمرار العديد من العقائد الشعبية وسيادتها على الثقافة الصينية قبل وبعد ظهور الكونفوشية باعتبارها دين قومى . ويبدو أن معتنقى الكونفوشية لم يجدوا غضاضة فى الإيمان بحلول الروح وتناسخها والإتصال بها وغير ذلك من الأفكار التى اعتنقتها الديانات الشعبية ويبررون ذلك بأن كونفوشيوس نفسه كان يؤمن بها إيمان العوام الذين يعدون الإرتياب فى هذه الأمورإثم وضلال ويروى أن كونفوشيوس سئل ذات يوم عن الموت فأجاب << إننا لم ندرس الحياة بعد فكيف نستطيع أن ندرس الموت >> وهو فى هذا قريب الشبه ببوذا (٥١) .

ونخلص من العرض السابق إلى أنه على الرغم من المنحى التقليدى الذى اتسمت به الكونفوشية وانتحال معظم مبادئها من الفكر الموروث إلا أنها تتسم بسمات تميزها عن غيرها من الديانات الكبرى وعلى رأسها البوذية .

ويبدو ذلك بوضوح فى هذه المقابلة : -

فالبوذية تعد ثورة أو تمرد على الواقع وقد رمى معتنقوها بالإلحاد من قبل براهمة الهندوسية (٥٢) . بينما الكونفوشية أقرب ما تكون إلى الاتجاهات التوفيقية الإصلاحية التى تعمل على استيعاب الموروث ، وتوظيف ثوابته فى دعوتها ، وتحييد الجانب الآخر وتجنب الصدام به مع حرصها على تبرير الفكر السائد(٥٣) .

وذلك من خلال مبدأي " الين " و " اليانج " أى الثبات والتغير الذين يتحكمان فى حركة الحياة والتاريخ (٥٤) .

- ترفض الأولى نظام الطبقات الاجتماعية في حين أن الثانية تفسره وتؤكده
- أن الأقدار فى الأولى من صنع الإنسان وفى الثانية من صنع إله السماء .
- أن موقف الأولى من الغيبيات (الله - الروح) والعالم الآخر كان موقفاً لا أدرياً فى حين أن الكونفوشية سلمت بصحته تسليم السذج

وأخفت الشكوك التى تطل من عقول معتنقيها . الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه أمام الملاحدة والمجترئين وكان وراء العزوف عنها واعتناق البوذية أو الإرتداد إلى التاوية

- أن الأولى لم تتدخل فى السياسة تدخلاً مباشراً . فى حين أن الصينية ربطت السياسة بالدين وهى من أوائل النحل التى نزعت هذا المنزع .
- إن بوذا يعترف بالمعرفة الإشراقية الحدس الفوجائى . فى حين أن كونفوشيوس لم يتعرض قط لهذا الموضوع ولم يدع أنه يأتيه الخبر من السماء .
- إن القرابين فى البوذية من الشعائر الدينية . فى حين أنها فى الكونفوشية قيمة أخلاقية تعبر عن حمد وشكر العباد لإله السماء .

* * *

لم تكن وظيفة تبرير الواقع السياسى الدينى التى اضطلعت بها الديانة الكونفوشية وحدها وراء ظهور الإتجاهات الإلحادية . بل هناك عامل أهم حثت عليه تعاليم كونفوشيوس ذاتها ألا وهو التعقل وتحصيل العلم وتوظيف ذلك لخدمة الواقع .

الأمر الذى جعل الملحدين الكونفوشيين من أكثر المؤمنين بها، وذلك لأنهم استطاعوا استيعاب المعانى الكامنة وراء النص أى حكم كونفوشيوس << إن المعلم الحق هو الذى يفتح لتلاميذه الطريق نحو ما يجب عليهم عمله دون أن يصحبهم فيه أو يدفعهم إليه كرهاً >> وسوف يتضح من النماذج التى سنسوقها ونقوم بعرضها :-

أن جل الملحدين الكونفوشيين لم يسعوا إلى نقض صلب العقيدة أو إنكار جوهر الشريعة أو التجديف على مؤسسها بل على العكس من ذلك تماماً كان اجتراؤهم على ما نهى عنه كونفوشيوس ولم يهدم كفرهم إلا ما لا يتناسب مع الواقع وينكره العقل (٥٧) .

موتسو (٤٧٩- ٣٨١ ق.م)

يمثل مذهب المنفعة وقد رفض سلطة القدماء ونقض كذلك التعاليم الصوفية وذهب إلى أن قضايا الواقع لا يمكن معالجتها إلا بنبذ السلطة القائمة والمعتقدات القديمة والإصغاء للعقل وحده والإيمان بأن العدالة الإلهية لم تفرق بين البشر ومن ثم لا توجد أدنى فروق بين الحاكم والمحكوم إلا العلم ونادى بالمحبة للناس جميعا .وذهب إلى أن القاعدة الأساسية التى يجب أن تقوم عليها السياسة هى المنفعة العامة والعمل من أجل الصالح العام بموافقة الرأي العام (٥٨) .

* هسون تسو

هو من أكابر رجالات الدين الكونفوشى الذين آمنوا بتعاليم كونفوشيوس وفطنوا إلى مقاصده واجتهدوا فى تأويلها وتقويمها وتطويرها – كما ذكرنا سلفاً – وقد أعلى من شأن العقل الإنساني ووضعه فى مكان الآلهة ، وقام بنقض الطقوس و العبادات السائدة

منها صلاة الاستسقاء والعلاج من الأمراض بالرقى والتعاويذ ، وقراءة بخت المرء من ملامح وجهه(٥٩) .
وأنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة وجعل من أرواح الأسلاف وقوى الطبيعة مجرد رموز تحث على الإصلاح الخلقى .

* موتزو حوالي ٢٠٠م

وهو من المفكرين الذين نبذوا الكونفوشية واعتنقوا التاوية وانتهى بهم الأمر إلى البوذية وقد رماه معاصروه بالردة والتجديف وذلك لقوله أن الكونفوشية القديمة تعادل الأزهار ولكن البوذية هى الفاكهة وأن الحقيقة التي تقدمها البوذية أوسع مجالاً وأوضح صورة من الديانة التاوية (٦١) .

* * *

تعقيب

القدرية

يمكننا أن نلاحظ تشابهاً كبيراً بين قول كنفوشيوس بالجبر ونفيه قدرة الإنسان علي التغيير أو التحكم في مجري التاريخ وبين القائلين بالجبر من الفرق الإسلامية ، غير أن الإسلام قد منح الإنسان قدراً كبيراً من الحرية في تفسير وتبرير وتغيير واقعه .
{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً} (سورة الكهف الآية ٢٩) .
وقال أيضاً : **{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** (سورة البلد الآية ١٠) .
فهذه المسألة وإن كانت من أعوص المسائل العقدية إلا إننا اخترنا فيها ما يتفق وروح الشرعية الإسلامية .
بيد أن كنفوشيوس قد قبل منطق الجبر مدفوعاً بدافع سياسي ألا وهو تبرير تعريفات الحاكم بأنها قدر إلهي .

العصور الإسلامية

إن مفهوم الألوهية في الديانة الكنفوشية مغاير تماماً لمفهومها في

الإسلام ، وذلك لأنها تجمع في طياتها بين الشرك والتجسيد وبين الوحدة والتجريد ويتمثل ذلك في تأليه الحاكم وتجويز عبادة البشر وعبادة أرواح الموتي بجانب تقديس إله السماء المجرد الأمر الذي يعد كفراً بيناً في العقيدة الإسلامية قال تعالي : **{إِنّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَىَ إِثْماً عَظِيماً}** (سورة النساء الآية ٤٨) .

وقد أنكر القرآن الكريم تبرير المشركين لعبادة الأوثان قال تعالي **{أَلاَ لِلّهِ الدّينُ الْخَالِصُ وَالّذِينَ اتّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرّبُونَآ إِلَى اللّهِ زُلْفَىَ إِنّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفّارٌ}** (سورة الزمر الآية ٣) .

أما اعتقاد الكنفوشيين بعصمة الحاكم وتنصيبه من قبل إله السماء الذي يقوم باستخلافه علي الأرض اعتقاد فاسد أيضاً من وجهة نظر الإسلام لأن خلافة الإنسان علي الأرض لا تعني كونه معبوداً مشاركاً لله بل هو خلق من مخلوقاته استخلفه الله علي الأرض لعبادته – **{وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً قَالُوَاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إِنّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** (سورة البقرة الآية ٣٠) .

ولا نجد من بين الفرق الإسلامية من نحي هذا المنحي إلا غلاة الشيعة من الإسماعيلية الباطنية ومن لف لفهم .

يلاحظ أن الكنفوشية قد نجحت في صبغة العديد من المعتقدات بصبغتها فهناك كنائس مسيحية كنفوشية طوعت تعاليمها لتتوائم مع مفهوم الإله في هذه الديانة .

وهذا المنحي التلفيقي ملفوظ تماماً من وجهة نظر الإسلام لأنه لا تبديل لكلمات الله ولا تأويل لها يفسد جوهرها فالإسلام هو الإسلام في مكة كان أو في الصين ومفهوم الألوهية ثابت لا يتغير باختلاف الأمكنة والثقافات والأزمنة .

{قُلْ يَأَيّهَا الْكَافِرُونَ – لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ – وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ – وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مّا عَبَدتّمْ – وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ – لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (سورة الكافرون) .

مراجع الفصل الرابع

مرتبة حسب ترتيب الورود

(١) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام سلسلة عالم المعرفة ع١٩٩، تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، يوليو ١٩٩٥، ص٣٣٣.

(٢) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة عبد الغفار مكاوى ، سلسلة عالم المعرفة ع١٧٣، تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت مايو ١٩٩٣، ص٢٧٠، ٢٧٦.

(٣) حسن شحاتة : كونفوشيوس النبى الصينى ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ، ١٩٥٦، ص١٣.

(٤) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٨٩: ٢٩٣.

(٥) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص ٣٦٩: ٣٧٢.

(٦) هـ. ج. كريل : الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتس تونج، ترجمة عبد الحميد سليم مراجعة على أدهم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨، ص٢٤٤.

(٧) جعفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٨.

(٨) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٠.

(٩) هـ. ج. كريل الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتسى تويج، ص٢٣٥، ٢٦٢.

(١٠) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٤.

(١١) جعفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٢٩، ٢٣٠.

(١٢) هـ. ج. كريل : الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتس تونج، ص٢٣٦.

(١٣) حسن شحاته : كزنفوشيوس النبى الصينى ، ص١٣٨.

(١٤) هـ . ج . كريل : الفكر الصينى ، ص٢٤٧: ٢٤٩.

(١٥) فؤاد محمد شبل : حكمة الصين : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨، ج٢، ص٤٨، ٤٩.

(١٦) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٤.

(١٧) هـ . ج . كريل : الفكر الصينى ، ص ٢٦٤.

(١٨) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٢: ١٢٥.
(١٩) فؤاد محمد شبل ، حكمة الصين ، ص١٦٥.
(٢٠) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٥، ١٢٦.
(٢١) أديب صعب : الأديان الحية نشوؤها وتطورها ، دار النهار ، بيروت ط٢، ١٩٩٥، ص٩٣.
(٢٢) فؤاد محمد شبل : حكمة الصين ، ص٢٣٧.
(٢٣) هـ . ج . كريل : الفكر الصينى ، ص٢٥٦.
(٢٤) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص٤٣٤.
(٢٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٣٣١، ٣٣٢.
(٢٦) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة : السفرة العالمية للشباب الإسلامى ، المملكة العربية السعودية ، الرياض، ١٤٠٩هـ ، ص٤٢٧.
(٢٧) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٨.
(٢٨) نفس المرجع ، ص٦٥: ٧٢ ، ١٢١.
(٢٩) جفرى بارند : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٢، ٢٧٣.
(٣٠) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ص١٢٣، ١٢٤.
(٣١) رؤوف شلبى : التفكير الدينى فى العالم قبل الإسلام ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٣، ص١٠٤: ١٠٧.
(٣٢) أورسيل بول ماسون : الفلسفة فى الشرق ، ترجمة محمد موسى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٥، ص١٦٣، ١٦٤.
(٣٣) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص٧٢.
(٣٤) أورسيل بول ماسون : الفلسفة فى الشرق ، ص١٦٣، ١٦٤.
(٣٥) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٢٢.
(٣٦) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٤.
(٣٧) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٧.
(٣٨) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٨.
(٣٩) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ب د ، القاهرة ، ١٩٣٨، ص٢٥٣.
(٤٠) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٩.
(٤١) نفس المرجع ، ص٢٨٦.
(٤٢) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص٦٩.
(٤٣) أ . و . ف . تomlين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، مراجعة على أدهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠، ص٢٩٦، ٢٩٧.

(٤٤) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى ، ص١٣.
(٤٥) أ . و . ف . توملين ، فلاسفة الشرق ، ص٢٩٧.
(٤٦) جفرى بارندر ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٨٩، ٢٩٠.
(٤٧) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص٢٥٠.
(٤٨) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٨٦، ٢٨٧.
(٤٩) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص٢٥٠.
(٥٠) جفرى بارندر : المعتقدات لدى الشعوب ، ص٢٨٧، ٢٨٨.
(٥١) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى، ص٤١.
(٥٢) نفس المرجع ، ص٥٠، ٥١.
(٥٣) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ص٢٦٦.
(٥٤) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٨٨.
(٥٥) نفس المرجع ، ص٢٧٦.
(٥٦) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى، ص١٢١.
(٥٧) نفس المرجع ، ص٦٤.
(٥٨) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٤٢٥، ٤٢٦.
(٥٩) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى، ص٣٨.
(٦٠) نفس المرجع ، ص٩٥، ٩٦.
(٦١) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٧٤.
(٦٢) نفس المرجع ، ص٣٠٩.
(٦٣) حسن شحاته : كونفوشيوس النبى الصينى، ص٥٤.
(٦٤) نفس المرجع ، ص١٠١.
(٦٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص٢٩٧.
(٦٦) نفس المرجع ، ص ٢٩٥.
(٦٧) هـ . ج . كريل : الفكر الصينى ، ص٢٣٢، ٢٣٣.

الفصل الخامس

الديانة البوذية

النشأة والتطور

ظهرت البوذية كحركة إلحادية عن الديانة الهندوسية وهى أقرب في تعاليمها إلي الزهد والتقشف مع إيمانها بعقيدة الهندوس الروحية حيث التناسخ والكارما ، ومن ثم سعت منذ نشأتها إلى البحث عن الخلاص من الدورات اللانهائية للروح . وذلك عن طريق تأمل الذات والتقشف والزهد في الحياة . الأمر الذي أضفى عليها صبغة تشاؤمية في أول عهدها . وقد ناهضت كذلك تعاليم البراهمة ورفضت سلطتهم الزائفة ومجت مجادلاتهم العقيمة الأمر الذي كان وراء خلو البوذية من السلطة الكهنوتية .

وقد ظهرت في الهند على يد جوتاما بوذا * (٥٦٠ -٤٨٠ ق.م)

* هو سيدارثا جوتاما ولقب ببوذا ويعنى العالم وأطلق عليه أيضا بسكيا مونى أى المعتكف ، والتتاجانا أي الغامض . ولد فى منطقة سهلية خصبة على سفوح الهملايا بالقرب من بينارس شمال الهند من أبوين نبيلين إذ كان والده زعيما لإحدى القبائل الهندوسية فشب مترفا . وفى سن التاسعة عشر تزوج من إحدى أميرات منطقة الجوار وأنجب ابنا أسمه راهولا . وقد اتصل في هذه الأونة بأحد الرهبان المتقشفين فأدرك أن السعادة ليست في البذخ والترف . فخلع ثياب الإمارة وارتدى جلبابا أصفرا خشنا وضرب في البراري وحيدا ليبدأ رحلة تنسكه واستمر على هذه الحال مدة ست سنوات جمع فيها بين دربين من دروب الرهبنة الهندوسية والتأمل الفلسفى ،شأن الهندوس الأوائل ، والتنسك الصارم على غرار الجنيين وسرعان ما رغب عن الدربين وقام فى كهف تحت شجرة عرفت بعد ذلك بشجرة العرفان أو شجرة " بو " وراح يتأمل ذاته وأدرك أن تأمل الكون أو إذلال البدن لا يؤدى كلاهما الى الحقيقة ، بل إن ترقية النفس من الآثام وتطهيرها من الأحقاد وكفها عن الشهوات هو الطريق الأوحد للوصول للحقيقة . وعلم من ساعتها أنه أصبح بوذا (أى الإنسان المستنير) فراح يبشر بطريق الخلاص الذى اهتدى اليه فبدأ دعوته بأصحابه النساك الخمسة الذين قد قابلهم فى بداية رحلة تنسكه فراح يعظهم وقد أطلق على النصائح التى أسداها إليهم (موعظة حديقة الأيائل) وظلت تعاليم البوذية مجرد دعوة تنويرية أخلاقية حتى وفاة بوذا .وقد نسجت بعد ذلك حول مؤسسها الأساطير مثل ولادته العذرية ، وظهور نجم فى السماء يبشر بقدومه، وتحدثه فى المهد ، وحديثه مع الشيطان الذى انتهى بانتصار بوذا ، وأن اثنا عشر تلميذا قد اتبعوه ، ووقوع زلزال عند وفاته ، ثم تأليهه فى نهاية المطاف . وقد اختلف المعنيون بدراسة الأديان المقارنة حول تبرير التشابه الواضح بين الأساطير التى نسجت حول بوذا وبين ما صورته الأناجيل لحياة المسيح.

وسرعان ما نقلها أربابها الى الصين واليابان والتبت ونيبال وسومطرة وسيلان وبورما وسيام (٢٥)

البوذية فى الهند :

وقد انتشرت تعاليم بوذا فى حوض نهر الكنج وعقب وفاته مباشرة اجتمع خمسمائة من النساك ، وأقروا قداسته واعتبروا كتاب " السلال العظيم " بمثابة دستورهم العقدى . وبعد مرور قرن على هذا الاجتماع عقد مجمع ثان فى منطقة فيسالى لتيسير بعض القواعد التى وردت فى الكتاب المذكور .

وقد انقسم البوذيون عقب هذا المجمع الى فريقين أصوليين ومتحرريين ، تمسك الفريق الأول بكل تعاليم بوذا بينما أحل الفريق الثانى لنفسه شرب الخمر وإقتناء الذهب والنوم على الأسرة المرتفعة وبعض الأطعمة التى كان يحرمها بوذا فى وصاياه العشر. وقد عرف المحافظون بعد ذلك باسم الهينايانا أى الوسيلة الصغرى ، وكتبت لهم الغلبة على المتحرريين واعتبروهم مجدفين ولا سيما بعد انضمام الإمبراطور أسوكا (٢٧٣- ٢٣٢ ق.م) حاكم ماغادا للبوذية فى القرن الثالث قبل الميلاد وهو يعد المؤسس الثانى للبوذية التى تحولت على يده من حركة الى ديانة عالمية واسعة الإنتشار. فقد حرص منذ انضمامه اليها على بناء معابد وأديرة لرهبانها وأرسل الدعاة للتبشير بها فى شتى أنحاء مملكته وكذا فى الإمبراطوريات المجاورة (٢٦).

وقد عقد فى عهده مجمعا بوذيا ثالثا نحو عام ٢٥٠ ق.م لمناقشة بعض الطقوس والممارسات الشكلية التى يمارسها النساك البوذيون ، وتحديد الأماكن المقدسة لشعيرة الحج ، وبحث الموضوعات العقدية التى انقسم حولها البوذيون وعلى رأسها عقيدة الصيرورة وطبيعة الحقيقة وقد انقسموا إلى فريقين :-

---

وقد اختلفوا أيضا حول شخصية بوذا فبعضهم وصفه بأنه نبى يتلقى الخبر من السماء ، والبعض الآخر يعده فيلسوفا روحيا . ويعده فريق ثالث مصلحا اجتماعيا أثر الثورة والإلحاد على قبول الدين السائد والفكر المهيمن فى عصره .

التقليديون أنصار الصيرورة (الستافيراس) والمثبتون العقليون (السارفا ستقادين) .

وقد اختلط البوذيون فى هذه الآونة بالهلنستيين ولا سيما دعاة الفلسفة الرواقية فتأثرت أفكارهم ومعتقداتهم بفكرة الإخاء والمساواة العالمية والعدالة الاجتماعية التي كان يدعو لها الرواقيون .

وقد حاكوا اليونانيين فى صناعة التماثيل العملاقة لأربابهم فظهرت فى هذه الآونة العديد من التماثيل لبوذا وكانت قريبة الشبه من صورة أبولون إله النور والشعر والموسيقى والنبوءات عند اليونان.

وقد تأثرت البوذية بالعديد من الأفكار الكنفوشيوسية والجينية والزرادشتية ، وكادت أن تمحى تعاليم بوذا الأصلية ولا سيما بعد ثراء الجانب الأسطوري فى الفكر البوذي على يد بعض الرهبان ، الذين حاولوا الرد على التساؤلات الفلسفية المطروحة حول نشأة الكون ، ووجود الإله ، وطبيعة عالم الروح . وغير ذلك من الأمور التى عزف بوذا عن الخوض فيها بحجة أنها أمور غير مفيدة .ثم طور الراهب البوذي " نكارجونا" نظرية بوذا فى صيرورة العالم الى نظرية فلسفية متكاملة أقرب ما تكون من نظرية النسبية لاينشتاين ، التى على الرغم من إثباتها بنسبية الزمان والمكان إلا أنها فى الوقت نفسه تؤكد وجود المطلق المجرد (٢٧) .

وفى القرن الرابع الميلادي ظهرت مدرستان بوذيتان متباينتان هما : الميناياتا والمهايانا .

فالأولى هى المدرسة العقدية الكلاسيكية وهى تنحو منحا بوذا فى التنسك والعبادة ، وقد أعلت من شأن الرهبان عن العوام . وذهبت الى أن الخلاص المرجو لن يتحقق إلا عن طريق التأمل الذاتي فى الأديرة .

أما الثانية فقد أولت تعاليم بوذا وذهبت إلى أن العبادة الحقة هي خدمة الآخرين سواء داخل الأديرة أو خارجها ، وأكدت على أن الراهب البوذي لا يختلف عن سائر الناس إلا بقوة إيمانه . ورفضت كلية الجانب الكهنوتي للبوذية بحجة أنه يشكل سلطة تجعل من رجال الدين طبقة تميزهم عن سائر البوذيين . الأمر الذي حاربه بوذا طيلة حياته . وبينت أن طريق النرفانا أى الخلاص والعتق من تكرار الميلاد لا يتعارض مع الإخلاص للمعبودات الشعبية . ورفضت شعار

وحدة جوهر الأديان والتسامح العقدي ، وأقرت مبدأ " البوذيستفا " فى الخلاص الذي يقضى بأن بداية طريق السعادة فى التفاني فى خدمة الآخرين ، وينتهي بادراك أن الذات الفردية لم تبلغ كمالها إلا بعد إدراكها - عن طريق التأمل الداخلي - أنها جزء من كل وأنه لزاما عليها أن تذوب طواعية فى المجموع وتتخلص نهائيا من الأنانية وقد أحيت بذلك عقيدة " الأراهات "
(أي أهل الفضل والاستحقاق عند بوذا) .

وفى نهاية القرن الرابع الميلادي ظهرت مدرسة " اليوجا كارا " أي اليوجا العملية وكانت تهدف إلى إحياء النزعة البوذية التأملية ، التي ترمى الى توقد الذهن وايقاظ الوعي وتنقية الروح وكان يتزعمها اسنجا (٣١٠ - ٢٩٠م) وفاسوباندا (٣٢٠ - ٤٠٠ م) (٢٨).

وقد ازدهرت البوذية فى القرن السابع الميلادى وتطورت مباحثها الفلسفية ولا سيما فى التبت على يد " بادما - سامبهافا " الذى قام بتهذيب أناشيد الطقوس وأدعية الاحتفالات ، وقام بتقنين رموز اليوجا كارا السحرية . وعلى الرغم من الضعف الذى أصاب البوذية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادي فى الهند إلا أننا نجد فى القرن الحادي عشر محاولات لإحيائها من جديد على يد الراهب البنجالى " أتيشا " ، غير أن جهوده باءت بالفشل على إ ثر هدم معابدها على أيدى الهندوس من جهة ، والمسلمين الفاتحين من جهة أخرى .

وقد رحبت الهندوسية بانهيار البوذية وحفل رهبانها وكهنتها بهذا الميراث الثمين ، الذى عمل على تطور العديد من العقائد الهندوسية(٢٩).

ويعد الفيلسوف الهندي " سنكارا " ثمرة مزج البوذية والهندوسية فى بوتقة واحدة . وعلى الرغم من ذلك لا تخلو الأراضي الهندية من وجود البوذيين إذ بلغ عددهم فى أخريات القرن التاسع عشر خمسة ملايين نسمة يتمركز معظمهم فى ولاية " مهارا شترا "(٣٠) .

انتشار البوذية وتطور معتقداتها :

لقد أدى اتصال البوذيين المباشر بجيرانهم من سيلان والبنجاب والصين وكوريا واليابان بداية من عام ٢٥٠ ق.م الى تطورها

ودخول العديد من المعتقدات على أصولها وظهور الفرق والمذاهب العقدية والفلسفية على معتقداتها .

فقد دخلت البوذية سيلان على يد دعاتها الذين أوفدهم الإمبراطور أسوكا – كما أشرنا – وقد قوبلت هناك بالحفاوة والقبول وحفظ أهلها تعاليم بوذا عن ظهر قلب ، وأقاموا الأديرة والمعابد والنصب البوذية . وقد دونت هناك أقدم المخطوطات لتعاليم بوذا بلغة البالى (السيلانية) . وفى القرن الخامس الميلادى ترجمت النصوص البوذية من البالى الى اللغة الهندية وما يزال معظم السيلانيين ينتمون الى الثيرافادا أو الهينايانا وهى مدرسة الحكمة البوذية القديمة(٣١).

وقد دخلت البوذية فى البنجاب فى القرن الأول قبل الميلاد . عقب اعتناق ملكها " كانشيكا " عقائدها وهو يعد الرجل الثالث فى البوذية – بعد بوذا وأسوكا – الذى يرد إليه تطور الطقوس والشعائر البوذية فى ظل ازدهار فن العمارة والنحت اليونانى هناك . فقد عنى ببناء المعابد ونحت التماثيل لبوذا كما تطورت على يديه المهايانا وانتشرت على أوسع نطاق .

وفى أواخر القرن الثانى الميلادى دخلت البوذية الصين . وفى عهد الإمبراطور "مينغ تى" بنى أول معبد للبوذية هناك ، وترجمت نصوصها المقدسة إلى اللغة الصينية .

بيد أن البوذية وجهت بالرفض من المتعصبين الكونفوشسيين والطاويين وفى عام ٨٤٥ م حطمت المعابد البوذية على يد الإمبراطور ووتسونغ . وظهر اتجاه حدسى باسم " تشان " عاد بالبوذية الى النزعة التأملية والمعرفة الإشراقية الحدسية التى يستقبلها الناسك بالسكون التام وتنقية الذهن من التفكير فى كل الأمور .

وظهرت هناك مدرستان :–

الأولى " لين تشى" تقول بالحدس المفاجئ لإكتساب المعرفة .

الثانية " تساو تونغ " تقول باكتساب المعرفة عبر قراءة الكتب ، وتحصيل المعارف حتى الوصول الى التنور التدريجى(٣٢) .

وانتشرت البوذية فى سرى لانكا فى القرن الثالث الميلادى على يد الملك "ديفا نمبيا" وكثرت المعابد وتماثيل بوذا ودخلت البوذية كوريا بعد انتشارها فى الصين خلال القرن الرابع الميلادى.

وفى عام ٥٨٨م دخلت البوذية اليابان على يد الإمبراطور شوتوكوتايشى وحلت محل الشنتو وهى الديانة اليابانية التقليدية .

وقد تأثرت المدرسة البوذية اليابانية بمثيلتها الصينية فازدهر الاتجاه الحدسى ومدرسة الزن التى تعد امتداد لمدرسة تشان فأحيت فى البوذية فكرة وحدة الوجود الهندوسية وتجلى الإله فى كل الكائنات. وتطورت فكرة التأمل البوذية وأضحى لا فصام فيها بين الذات والموضوع ، وجعلت من الحاضر نقطة انطلاق إلى الفعل وذلك لأن اللحظة الراهنة التى يتأمل فيها الفرد لذاته وما يدور حوله تجمع بين الماضى والحاضر معا ، ومن ثم يصير التأمل فعلاً ويبدو ذلك بوضوح فى تعاليم دوجن - مؤسس اتجاه السوتو اليابانى فى القرن الثالث عشر وهو أحد اتجاهات مدرسة الزن - الذى يقر بأن الهدف الحقيقى للزن هو عيش الحياة العادية بكل ما فيها مع عدم تجاوز أى ناحية من نواحيها فبالممارسة والإستنارة تتحقق السعادة والخلاص الأبدى .

وفى القرن السابع عشر تعرضت البوذية لحركة تمرد من قبل المؤمنين بديانة الشنتو فى القرن التاسع عشر ، اضطهد أتباعها من قبل المبشرين المسيحيين . ثم إستعادت البوذية قوتها منذ أخريات القرن التاسع عشر وما زالت تطور على يد اليابانيين .

ويرجع الفضل لمدرسة الزن اليابانية فى انتشار البوذية فى العالم الغربى ولا سيما فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ومازالت البوذية تعد من أكبر الديانات فى آسيا ويتمركز المؤمنون بها فى اليابان وكوريا وبورما وتايلند والتبت وسومطرة ونيبال وسيلان وسيام وأنحاء مختلفة من الصين والهند (٣٤) .

* * *

مفهوم الألوهية

لقد اجتمعت الدراسات الحديثة المعنية بفلسفة الدين على أن فكرة الألوهية عند البوذيين تعد من أعقد أفكارهم وأكثرها غموضاً وتناقضاً ويرجع ذلك الى جمعهم بين العديد من صور وأشكال التأليه ونسبتها جميعاً الى شخصية بوذا .

فتنزع بعض الكائنات البوذية إلى أن بوذا هو ابن الإله ، وكلمته التى جسدها فى رحم أمه " مايا " بينما تصفه شذرات أخرى بأنه أحد المخلصين ، الذين يهبطون إلى الأرض كل خمسمائة عام لإصلاح الدين السائد .

ويروق لبعض أتباعه درجه ضمن الأبرار ، والصديقيين الذين يتلقوا الخبر من السماء معتمدين فى ذلك على تصريح بوذا نفسه، الذى روى فى قصة تأمله بالكهف الذى انتهى به إلى المعرفة اليقينية عن طريق الحدث العقلى والإشراق القلبى .

ويغالى بعض أتباعه فى تعظيمه ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية. ويجزم بعضهم بأن بوذا غير مؤله ولم يتحدث قط عن وجود إله، بل لم يعنيه أمر عالم الروح السماوى الشاغل بالآلهة عند الهندوس من قريب أو بعيد . و يتجه البعض إلى أنه أقر بالوحدانية مع الإعتراف بوجود إله سماوي مجرد .

وقد تباينت الآراء حول شخصية بوذا نفسه فزعم أحد الباحثين فى فلسفة الدين وهو السير وليامز – الأستاذ بجامعة إكسفورد عام ١٨٤٥م في مؤتمر اللجنة الآسيوية الملكية بلندن – أن بوذا شخصية أسطورية ، وأن ما يروى عنه ما هو إلا من اختلاق الآداب الشعبية.

فى حين يعده الأستاذ حامد عبد القادر (١٨٩٥ – ١٩٦٦) – مدير عام شئون اللغة العربية والدين بوزارة المعارف ، ووكيل كلية أصول الدين بالأزهر وأستاذ الدراسات السامية والشرقية وفقه اللغة بالجامعة المصرية ، وعضو مجمع اللغة العربية – أحد أنبياء الله المرسلين ، وزعم أنه ذكر فى القرآن فى سورة التين :– إذ رمز الله فى قسمه بالتين إلى بوذا وبالزيتون إلى عيسى عليه السلام وبطور

سنين إلى موسى عليه السلام وبالبلد الأمين إلى سيدنا محمد ﷺ (٣٥).

وحسبنا أن نطرح هذه الآراء المتناقضة جانبا لنقف على أهم الأساطير التى تصور فكرة الإله عند أتباع بوذا . فتعد قصة بوذا الأكبر الذى تجسد ليخلص العالم من أكبر الأساطير التى نسجت حول الألوهية عند البوذيين .

فتروى الأسطورة أن روح بوذا فى إحدى دوراتها الحياتية قد علمت بأنها سوف تهبط إلى الأرض ثانية وتحل فى جسد المنقذ المنتظر الذى سوف يخلص العالم من عذابات تكرار المولد وقانون الكارما . وقد اختارت هذه الروح العصر والمكان وطبيعة الجسد الذى سوف تتجسد فيه لتبدأ رحلة حياتها الجديدة . فاختارت زمن ولادة بوذا وبلاد الهند ومايا محظية ملك ساكياس لتكون أما لجسد هذا البوذا المنتظر.

وروى أن أمه رأت فى أحلامها أن بوذا هبط من السماء واستقر فى رحمها فى صورة فيل أبيض ، وأنه سوف يصبح ذات يوم من أعاظم الرجال . وفى طريق رحلتها إلى عائلتها جاءها المخاض فجلست تحت احدى أشجار السال ووضعت وليدها وأسمته سيدارثا أى (محقق الآمال) .

ويقال أن الإله قد خلق شجرة "البو" يوم ولادته . ويقال أيضا أن الكون احتفل بولادته فتفتحت عند قدميه الزهور ، واستحالت مياه البحار إلى عذبة حلوة المذاق وأن رائحة ذكية انتشرت وعمت جميع أرجاء الفضاء .

وروى أن بوذا تكلم فى مهده وسار سبع خطوات إلى الأمام وتفحص الكون ليتيقن خلوه من نظير له . وأنه قد حضر ولادته بعض الآلهة فى مقدمتهم آندرا اله الرعد والمطر وأن أربعة من ملائكة براهما قد تلقوه عند الولادة (٣٦).

وفسر بعض البوذيين ذلك بأن بوذا إبن الإله وكلمته الخالدة .

وروى كذلك أن بوذا وقف ذات يوم فى أصحابه مبيناً أن فكرة وجود الإله فكرة غامضة يجب التخلى عنها أو عدم ارهاق الذهن فى التفكير فيها << إن الرهبان الذين يتكلمون عن الله ، وهم لايرونه وجها لوجه كالعاشق الذى يذوب كمدا وهو لا يعرف من هى حبيبته ،

أو كالذى يبنى السلم وهولا يدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فينادى الشاطئ الآخر ليقدم له >> .

وتحدثنا رواية أخرى أن بوذا كان لا ينكر وجود الإله بل كان يرى أن أثره محدود على البشر، وأن الروح شاغلة بخلاصها من دورات الحيوات المتكررة . الأمر الذى يجعل دعوته للإستنارة وتأمل الذات أفضل من التفكير فى هذا العالم . وبذا جعل الخلاص من الأمور الإنسانية التى لا شأن للآلهة فيها(٣٧) .

وإذا ما انتقلنا بالحديث لمناقشة فكرة الوحدة والكثرة أو التجريد والتجسيد فى البوذية سوف نجدها لا تخلو من خلط شأنها شأن الديانة الهندوسية . فنجد من البوذيين من يوحد بين فكرة الإستنارة المجردة وبين الوحدة المطلقة والحقيقية الأبدية ، ونألف معظمهم يدرج بوذا ضمن الآلهة المختلفة المعبودة ، ومن أشهر الآلهة التى اعترفت بها البوذية :-

* مانجو سرى إله المنطق ويصور على جدران المعابد برجل يمسك سيفاً يمثل المنطق وكتاباً يمثل الحقيقة البوذية أو القانون . أفالوكيتا وهو إله الرحمة وتمثله الرسوم بأمير يمسك فى يده اليسرى زهرة لوتس حمراء ومادا يده اليمنى دلالة على العطف.
* فيروكانا ابن الشمس ويعبد فى جاوا واليابان .
* أميتابا حاكم الفردوس ويعتقد عباده فى الصين واليابان بأن الصلاة له تكفى من غير أى عمل للحصول على الخلاص وهو يحضر فوق رؤوس المؤمنين به عند ساعة موتهم كى يموتوا براحة ويولدوا بعد ذلك فى الفردوس أى الأرض الطاهرة التى يحكمها اميتابا .
* الكامى وهى إلهة اليابانيين القديمة ، وقد أقر البوذيون بعبادتها بعد ذلك.
* بوذا وهو كلمة الإله التى تجسدت لتخليص العالم ، ثم تحولت إلى كائن نورانى ، وعاد مرة ثانية لطبيعته الإلهية حيث الإتحاد مع الحقيقة المطلقة والإستنارة الأبدية .

ويجمع المشتغلون فى مبحث فلسفة الدين على أن تناقض فكرة الألوهية وتهافتها عند البوذيين ، وعدم اشتراط البوذية جحد من يؤمن بها لعقيدته السابقة ، وإلحاده الآلهة التى كان يؤمن بها . كل ذلك كان وراء اندحارها ، ونجاح براهمة الهندوسية فى القضاء عليها . بوصفها احدى الحركات الإلحادية (٣٨) .

الكتب المقدسة :

تستمد الكتب البوذية مصداقيتها وقداستها من نسبتها إلى بوذا ولا نكاد نلمح من بين شراحها من يردها إلى وحى سماوى أو إلهام ربوبى إلا نفر من البوذيين المعاصرين الذين إعتبروا لحظة الحدث والإشراق التى مر بها بوذا فى كهفه تحت شجرة البو بمثابة الإلهام الإلهى الذى راح يبشر به ويفصح عن جوهره .

وترد معظم الشذرات المكتوبة لبوذا إلى طائفة السنغا الذين قاموا بحفظ أحاديث بوذا وحكمه وتعاليمه شفاهة ثم قاموا بتدوينها باللغة البالية * فى أسفار أطلق عليها القانون البالى نحو عام ٢٥٠ ق.م ومازالت جماعة السنغا تقوم بطبع الكتب البوذية الكلاسيكية حتى الآن ولا سيما مدرسة ترافادا البوذية المنتشرة فى سرى لانكا وجنوب شرق آسيا(٣٩). ومن أهم هذه الكتب :-

* كتاب السلال الثلاث وترجع تسميته بهذا الاسم إلى طريقة جمع وتصنيف الشذرات الشفهية من رواتها إذ عنى الكتبة بتقسيم أقوال بوذا إلى عقائد وشريعة وحكايات . وحرصا منهم على عدم اختلاط هذه الشذرات وضعوا كل مجموعة منها فى سلة . فأطلق على كتابهم الأول " كتاب السلال الثلاث " وهو أقدم المخطوطات البوذية وأقلها تحريفا . وهو الآن يقع فى عشرين مجلد وهو بمثابة النواة الأولى والنص الأصلى لجل المعتقدات البوذية وأطلق عليه أيضا البيتكات أى النصائح الناطقة بلسان بوذا نفسه.
* كتاب الجاتاكا ويروى قصة ميلاد بوذا العذرى حيث مروره بحيوات عديدة ارتقى فيها كل الكمالات حتى وصل أخيرا إلى الكمال المطلق فى السماء ، وهبط على الأرض ليخلص الإنسانية من شرورها ، ويعتقها من عذابات التناسخ ويهديها إلى طريق

---

* اللغة البالية : هى إحدى اللغات المنقرضة . وتنتمى إلى أسرة اللغات الهندية من الفصيلة الفرعية الهندية الإيرانية للغات الهندو - أوربية ، وتعد كذلك إحدى اللهجات السنسكريتية .

الاستنارة . وهو من الشذرات المختلف على زمن تدوينها.

* كتاب لوتس القانون الصالح ويشتمل على مجموعة أقوال وأحاديث لبوذا كتبت باللغة السنسكريتية خلال الخمسة قرون الأولى بعد الميلاد.
* كتاب أميتابا وهو يصف الأرض الطاهرة وطريقة الوصول إليها.
* كتاب الحكمة الأزلية وهو شذرات فى الحكمة الإلهية ويرده البوذيون الى شراح بوذا الأول .
* كتاب الباتيموخا أى (النواهى والمحاذير) ويشتمل على ٢٥٠ بندا يجب على البوذيين اجتنابها بوصفها من المحرمات وهذه البنود تتلى في كل اجتماع كامل تعقده الجماعة كل ١٤ يوم وعقوبة من ينتهك هذه البنود أدناها الإيقاف لمدة معينة ، وأقصاها الطرد من نظام الرهبنة .
* كتاب السيجالوفادا سوتا أى (آداب التعامل مع الآخرين) وهى تحدد آداب التعامل بين الأب وأولاده والأخت لأخيها والزوجة لزوجها والخدم نحو مستخدميهم والتلاميذ نحو معلميهم وواجبات الرهبان نحو عامة الشعب وواجبات عامة الناس نحو معلميهم الدينيين .

وقد ترجمت معظم الكتب المقدسة البوذية إلى جل اللغات الحية ولا سيما الصينية واليابانية والفارسية والإنجليزية والفرنسية وقد ظهرت شذرات منها فى العربية باسم إنجيل بوذا (٤٠) .

أهم المعتقدات والطقوس

لقد أوضحنا سلفا أن البوذية لا تعد ديانة كاملة الأركان وذلك لافتقارها للبنية العقدية التى تميزها عن غيرها . ومن ثم فهى لا تعدو أن تكون حركة إلحادية عن الديانة الهندوسية ، أو إتجاه تأويلى للمعتقدات السائدة يرمى إلى إصلاحها و ينشد تقويمها ، وسوف يتضح ذلك جلياً فى موقف بوذا وأتباعه من العقائد الهندوسية .

التناسخ :

يسلم بوذا بنظرية التناسخ الهندية غير أنه يخالف ما جاء فيها عن خلود الروح ومفارقتها خصال البدن ، وثبات حركتها الدائرية. (ميلاد ووفاة) ويرى أن حركة الروح فى صيرورة أزلية ترتبط فيها إرتباطاً وثيقاً بالأبدان التى تحل فيها محملة بالطبائع والغرائز التى

اكتسبتها من حيواتها السابقة فى أجساد الحيوانات أو البشر. ويؤكد أن هذه الحركة لا تتوقف إلا بالاستنارة التى تؤدى الى النرفانا أو الخلاص . وإن كان لم يجزم بتوقف عملية التناسخ كلية بعد الوصول للنرفانا ، ولم يجب كذلك عن مصير الروح بعد تخلصها من قيد التناسخ ذلك فضلاً عن سكوته تماماً عن الأسئلة المطروحة حول طبيعة الروح وعلة وجودها(٤١) .

الكارما :

يوافق بوذا الهندوس على صحة قانون الكارما << الجزاء من جنس العمل >> ويبدو ذلك بوضوح فى الأسطورتين اللتين وردتا فى كتاب السلال الثلاث المقدس .

فأولهما تروى أن زاهدا جلس تحت شجرة وأطال التأمل والنظر فى عالم الملكوت ، ولما انتهى من تأمله هم بالقيام فصدمه غصن الشجرة فى رأسه فتألم ثم حمله الألم على قطع الغصن ولكنه لم يكد ينتهى من قطعه حتى وافته المنية وتقمصت روحه فى الحال جسم ثعبان وكانت صيرورته هذه ثمرة لعمله السيئ الذي هو الخضوع للغضب .

وتروى الأسطورة الثانية قصة زاهد طلب إلى أحد زملائه أن يعيره مصفاه يصفى بها المياه ،فلما رفض زميله فضل أن يموت عطشا على أن يشرب الماء بما فيه من حشرات فيقتلها فى بطنه وظل ظمآن حتى فارق الحياة مدفوعاً بإشفاقه على تلك الحشرات فانتقل فى الحال إلى جوار الآلهة .

وقد عقب بوذا على هاتين الأسطورتين بقوله << أن أثر الأعمال علي مصيرنا من الأمور غير القابلة للنقاش فما هو كائن ثمرة ما كان وأن كل إنسان يولد من جديد حسبما فعل >> .

ويضيف بوذا أن كف الأذى والتعفف عن الوقوع فى الرذائل والزهد والتقشف والاعتزال والتنسك لا يكفى لتحقق النرفانا والانعتاق من التناسخ بل فى معاونة الآخرين على إصلاح سلوكهم وإرشادهم الى طريق الإستنارة . الأمر الذى جعل دعوته تنحو نحواً إصلاحيا جديداً تأثرت به الهندوسية بعد ذلك ولا سيما عند مدرسة البراهمة الثانية (٤٢) .

وهناك بعض التأويلات للبوذيين حول هذه النظرية منها أن بوذا

أنكر خلود الروح الفردي ومن ثم خلاص الأنا المنعزلة عن المجتمع وحجته في ذلك بأنها لم تعش الحياة الإنسانية الكاملة ولم تختبر فى معتركاتها وعلى ذلك لم يكتب لها الخلاص لأنها لم تكفر عن ما ورثته من الآثام السابقة .

ويؤولها فريق آخر من البوذيين ، وهم الشخصانيون الذين ذهبوا إلى أنه علي الرغم من إنكار بوذا بحقيقة الروح الفردى فلابد أنه أكد حقيقة الشخص بوصفه الأساس الدائم للوجود أى أن أفعال الشخص الخيرة تجاه الآخرين لابد أنها سوف تعتقه من التناسخ بوصفها كفارة قام بها لنفسه وذلك بعد اكتشافه لجوهر شخصيته وتنقيتها من الشهوات والغرائز والرذائل وتهيئتها لتكون مركزا لعالم إنسان جديد مفعم بالروحية (٤٣) .

النيرفانا والخلاص :

ذهب البوذيون إلى أن النيرفانا هى << الطريقة التى يمكن بها إنقاذ الإنسان إنقاذا نهائياً من ربقة الكارما ، وعدم اضطراره لأن يحيا أو يولد مرة أخرى ، وذلك بأن تصفو روحه ، وتتخلى عن الأوزار التى تطلب تناسخها وانتقالها إلى كائن آخر تسلك فيه مسلكاً خلقياً طيباً يبرئها من تلك الأوزار أو يجعلها صالحة للاتصال بالملأ الأعلى وفقاً لمبدأ النيرفانا . وكان يقصد بالنيرفانا فى أول الأمر : انتقال الروح إلى الملأ الأعلى بعد أن يحى حياة خلقية صافية راقية لا تضطره لأن يحيا حياة أخرى كما قلنا من قبل .

ولكن هذا المبدأ طرأ عليه فيما بعد معنى جديد إذ قصد به : وصول الفرد الى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته المادية . والفرق بين المعنيين واضح ؛ فالمعنى الأول يقضى بأن هذا المبدأ لا يتحقق إلا بعد الموت . أما الثانى فيقضى بأنه من الجائز أن يصل المرء إلى مرتبة النيرفانا فى حياته إذا أفلح فى الوصول إلى الدرجات العليا من درجات الرقى الروحاني ولم يكن سمة داع إلى تناسخ روحي >>.

التنسك والاستنارة :

اجتمع رهبان البوذية على أن طريق الخلاص يتمثل في اقتفاء

خطوات بوذا ، وعدم الانحراف عنها حيث ارتداء الثوب الخشن الأصفر وحلق الرأس ، والنظر لجميع الموجودات والآلهة المعبودة باعتبارها خاضعة جميعاً للصيرورة أى للعذاب (التناسخ والكارما) وليس هناك سبيل للانعتاق إلا بتخطي المظهر والنفاذ إلى الجوهر بكثرة تأمل الذات الذى يفضى حتماً إلى الاستنارة . (٤٤)

فكرة المهدي المنتظر :

وهى فكرة الخلاص الهندوسية وقد أضاف عليها البوذيون أن هذا المخلص يأتى كل خمسة آلاف عام ليهذب الديانة السائدة ، وأن بوذا أحد المخلصين وقد سبقه أربعة وعشرون مخلصاً وتبدو البوذية بذلك ديانة عريقة يرجع تاريخها إلى ١٢٠ ألف سنة . ويبشر البوذيون – ولا سيما جماعة الهينايانا – بقدوم مهدى جديد يدعى ماتريا ليهدى الناس ويقوم المعتقدات الفاسدة ويخلص العالم من الشرور .

الخطوات الأربعة للسعادة :

١- الاعتقاد بأن العالم فى حالة من الشر والمرض والضيق والسخط والنقص والداء والعلة وهى تعرف " بالدوكا " .
٢- أن علة هذا الشر ترجع إلى الشهوة الإنسانية وتسمى "بالسامودايا".
٣- الإيمان بأن طريق الخلاص فى قمع هذه الشهوة وتعرف "بالنيروذا" وهى أولى خطوات النيرفانا .
٤- الإيمان بوجود طريق الطهارة الذى يفضى إلى الغبطة والصحة والتبرؤ من الأمراض ويسمى " ماجا " .

الرهبنة :

وهى لون من ألوان التنسك الجماعي يلتحق بها الأفراد طواعية ويخرجون منها أيضاً بمحض إرادتهم ، أو عنوة إذا ما انتهكوا أنظمتها (٤٥) .

وصايا السنغا العشر :

وتتمثل فى التعاليم الأولى لبوذا وهى الأسس التى قامت عليها البوذية وهى :- لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تكذب ، لا تتناول المخدر ولا السم ، كل باعتدال ولا تتناول طعاماً بعد حلول الظهيرة ، لا تحضر

حفلات الرقص والغناء والتمثيل ، لا تستعمل الزينة ولا العطور ، لا تنام على الأسرة المرتفعة أو العريضة ، لا تقتنى الذهب أو الفضة .

ويقضى على من يعصى إحدى هذه الوصايا الاعتراف بخطيئته وسط جمع غفير من الناس حتى يتحقق خلاصه من الإثم الذى ارتكبه ولا يلتزم بالوصايا العشر إلا الرهبان أما العوام فيجب عليهم الالتزام بالوصايا الخمس الأولى فقط (٤٦) .

المبادئ الأخلاقية الثمانية

وهى بمثابة الدستور المكمل للوصايا العشر والمتمم للعناصر الخمسة التى تتكون منها النفس وهى :-

- الإيمان الحق بأن الحياة والتناسخ هو العذاب بعينه وأن الخلاص من هذا العذاب لا يتأتى إلا لمن يقمع غرائزه .
- الرجاء الحق يتمثل فى حب الآخرين وعدم السعي لإيذائهم وتجنب قتل الروح أينما كانت وأينما حلت .
- الكلام الحق والسلوك الحق يتمثل فى الصدق مع الآخرين وتقدير النفس حق قدرها واختيار العمل المناسب لقدرات المرء ثم الإخلاص فى آداء المهام المنوط بها .
- السعي الحق وهو التمييز بين الجيد والرديء فى الرغبات والعلاقات .
- التفكير الحق يتمثل فى توجيه العقل نحو المواضيع المفيدة .
- التأمل الحق وهو تتويج لكل المبادئ السابقة وهو الحرص على عدم العودة مرة ثانية فى دورة روحية أخرى للحياة .

وصايا أسوكا :

تشتمل على عدة وصايا نقشت على خمسة وثلاثين حجراً منها احترام الوالدين والعطف على الكائنات الحية والصدق ومحبة الناس.

البوذيستفا : أى (التسامح العقدي)

لا يرى البوذيون أدنى تجديف فى جمع بعض معتنقيها بين الإيمان بتعاليم بوذا ، والحفاظ على ديانتهم السابقة وعبادة معبوداتهم المتباينة .

وقد أدخلت فرقة المهايانا هذا المعتقد على الأصول البوذية رغبة منها فى انتشارها ، والتأكيد على أن الوصول للحقيقة وغبطة بوذا

والنيرفانا الأبدية أى الخلاص لا يحدث دفعة واحدة بل يسير اليه المرء تدريجيا بداية من تحرر المرء من فكرة الذات والأنانية حيث الحياة الروحية المفعمة بالفضائل والسمو الأخلاقى وتعرف عندهم بالأراهات ومرورا بالإيمان بصيرورة عالم الآلهة وانتهاءً بمعرفة جوهر الأديان الواحد (٤٨) .

الفضيلة :

يعرفها البوذيون بأنها وسط بين رذيلتين << الفهم :طرفاه التصديق لكل ما يقال ، وإنكار كل ما يقال ، والوسط بينهما التمييز بين الباقى والزائل والظاهر والباطن والثابت والذى ليس له ثبوت . والعزم : طرفاه التهافت ، والإهمال . والوسط بينهما إرادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح . والكلام : منه المهجور، ومنه المطروق . والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والمحاباة . والسلوك : طرفاه المحاباة مع الغرض، والإجحاف مع الغرض . والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذاك >>.

العدالة والمساواة :

لم يكن هناك شيء أبغض لبوذا من البراهمة الذين نصبوا أنفسهم مناصب دينية مرموقة وتبؤوا أرفع المراتب الاجتماعية بغير حق ومن أجل ذلك لم يخلف وراءه نظام كهنوتي ولم يعترف بنظام الطبقات الهندوسي (٤٩) .

الوجود والعالم :

ينكر بوذا فى بعض شذراته وجود الفيداتا أى الجوهر الحق علة كل المحدثات ويرد نشأة الكون إلى عناصر جزئية متغيرة سرعان ما تتحد وتنفصل تبعا لدورات الحياة .

بينما يتحدث فى شذرات أخرى عن النيرفانا ويعدها طريق الخلاص حيث الإتصال بالمطلق ، غير أنه يؤكد فى عديد من أحاديثه على أنه " لا أدرى " أى أنه لا يعرف شئ عن مصير النفس بعد الموت أو عالم الخلود أو وجود الله (٥٠) .

وحسبنا أن نسوق فى هذا المقام بعض الشذرات التى كتبها بوذا

معبرا عن حيرته << هناك حيث الوجود واللاوجود يصبحان أمراً واحداً حيث الصيرورة التى تجمع بين الإثبات والإنكار القبلى والبعدى الماضى والمستقبل والأعلى والأدنى والفناء والخلود والنهار والليل والنور والظلمة . ولم يكن سوى الحقيقة الحية ودونها موتى ، فمنها انبثقت الحياة بباعث من الحب المستمد من العقل السرمدى الذى تدركه القلوب قبل العقول بهدى من الحكمة والإشراقية الكامنة فيها . وأصبحت الموجودات تحمل نواة قوتها وضعفها وقدرها وخلاصها ولا أحد يعلم من أين جاء ولا أين يصير ثم جاءت الأرباب وهى لا تعلم أيضا خبر ما جرى فمن إذن عنده الخبر أهو الذى أحدث المحدثات أم تراه لا يعلم سوى ذاته ولا يشغله سواه >> .

الدير البوذي :

الدير البوذى يختلف عن أديرة المسيحيين .فالأول ليس تفرغ تاماً للعبادة والتنسك والانقطاع عن العالم بل إن الرهبنة البوذية وثيقة الصلة بالمجتمع المحيط بها إذ يقوم الرهبان بتعليم الأطفال القراءة والكتابة بالإضافة إلى واجب الإرشاد والتنوير بالقواعد العقدية البوذية وطقوسها فى الانتقالات والأعياد والجنازات (٥١) .

المجترؤن والملحدون

لقد أفضت أحاديث بوذا المشوشة عن نسبية وجود الأشياء وقانون الحركة والصيرورة الذي يسير بمقتضاه العالم الأرضي والسماوي . وتأرجحه بين مذهب اللاأدرية وبين الإلحاد الكامل عند تصديه لقضية الألوهية ، ومسألة مصير الروح بعد إنفاصلها عن البدن . وكذا عجز شراحه عن صياغة نظرية كاملة تقوم بتفسير وتبرير معتقداتهم . كل ذلك أدى لظهور الاتجاهات الإلحادية البوذية . ولعل ما يميز الملحدين البوذيين هو تمسكهم بالجانب الأخلاقى من تعاليم بوذا . الأمر الذى جعلهم لا يشعرون بالجحود نحو العقيدة البوذية . بل يعتقد كل منهم بأنه البوذا المجدد والمهدي المنتظر (٥٢) . وسوف نعرض فى

السطور التالية أهم هذه الاتجاهات الإلحادية بحسب ظهورها .

مذهب سانك أو سانكهيا (أى مذهب التعدد)

ويرد الى الحكيم كابيلا وقد عاصر بوذا وذهب إلى القول بتعدد النفوس والأرواح وجحد عقيدة التناسخ ، وأنكر وجود إله واحد يتصرف وحده فى الكون . وقد حاول بذلك الإجابة عن الأسئلة التى عزف عنها بوذا .

مذهب اليوجية * الحديثة :

ويرد للحكيم " باتانجالى " وظهر فى القرن الثاني قبل الميلاد ويؤمن أتباع هذا المذهب بوجود وخلود الكائنات الروحية الكامنة في الجمادات والنباتات والحيوان والإنسان والكائنات النورانية (الملائكة) والكواكب والكائنات النارية (الجن والعفاريت) ويعدون الأشكال المادية للأشياء مجرد أعراض زائلة ليس لها وجود حقيقى . وأكدت فى تعاليمها على ضرورة التمسك بعمل الخير والإحسان لكافة الخلق والسعى فى إخضاع الشهوات البدنية للقوة النفسية . وجاء عن البيرونى أن أتباع هذا المذهب كانوا من الموحدين والمؤمنين بوجود إله مجرد ترد اليه كل المخلوقات (٥٣).

مذهب الفيسيشيكا : (أى الفلسفة التحقيقية)

ويرد الى الحكيم البوذى كانادا فى القرن الثانى الميلادى وهو مذهب منطقى مادى يشبه المذهب الذرى الذى أذاعه ديمقريطس اليونانى الذى ذهب فيه إلى أن الكون يتكون من ذرات مختلفة الأنواع ينضم بعضها إلى بعض بطرق مختلفة فتنشأ الكائنات .

---

* اليوجا كلمة سنسكريتية تعنى الإتحاد وهى إحدى المدارس الهندوسية ومن أشهر كتبها المقدسة " سونر الليوجا "وهى فلسفة عملية أكثر منها نظرية ويبدو ذلك فى صلاتهم وطقوس عبادتهم التى تتمثل فى ضبط التنفس والجلوس فى وضع معين والامتناع عن الجنس وهى تختلف عن مدرسة اليوجا كارا البوذية التى تمثل الإتجاه المثالى فى جماعة المهايانا الذى نقد جل الإتجاهات البوذية وترد تعاليمها إلى الفيلسوف البوذى " فاسو بندو " وشقيقه " أسانجا " الذين أعليا من شأن العقل والمنطق . وكلا المدرستان اليوجا الهندوسية واليوجا كارا تختلف عن مذهب اليوجية الحديثة .

مذهب المنكرين :

ويرد إلى ناجارجينا الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى وينكر أصحابه حقائق كل الأشياء ويجحدون المدركات العقلية التى كان الأولون قد استخلصوها من المذهب البوذى ويعتقدون بأن المعرفة العليا هى الإعتقاد بالعدم العام المطلق وقد أطلق عليهم اللاأدريين وسفسطائى البوذية لاتخاذهم من الشك منهجا للتعرف على ما عساه أن يكون موجوداً فى عالمهم (٥٤)

مذهب نيابا: (أى المنطق)

ويرد الى جوتم أو جوتاما الثانى وظهر فى أخريات القرن الثانى وبدايات القرن الثالث الميلادي ذهب إلى أن الإحساس هو أساس الحياة العقلية وأن الحواس الخمس هى أبواب المعرفة وليس الحدس كما ذهب بوذا . وقسم الإنسان إلى الحواس والعقل والروح فالحواس تنقل المحسات إلى العقل فيدركها ثم ينقلها العقل إلى الروح فتؤولها وتتصرف فيها ويقر بصحة كل ما جاء فى مذهب سابقه كانادا عن الذرات الروحية . ويخالف بذلك أيضاً بوذا الذى قام بتقسيم الإنسان إلى خمسة أقسام هى الجسد والإدراك الحسى والمشاعر الواعية والمشاعر غير الواعية والعقل .

مذهب اللامية :

وهم جماعة من رجال الدين البوذى أطلقوا على أنفسهم اللاميين أى الفقهاء المتفوقين وظهر هذا المذهب فى التبت نحو القرن السابع الميلادى ويعدون (دالاى لاما) . أى البحر العميق - الذى عاش فى القرن السادس عشر الميلادى مرشدهم وهاديهم . وقد استباح رجالاته الزواج للرهبان وخلطوا الدين بعناصر سحرية مثل << عجلة الصلاة التى تشبه برميلاً يدور على قاعدة ويحمل فى جوفه كتابات مقدسة وأدعية وهو مغلف بجلد ثور الياك ونقوش مذهبة ويحمل المؤمنون نماذج مصغرة منه أينما ذهبوا. >> وقد نجح أصحاب هذا المذهب فى إدخال نظام الطبقات على البوذية وخلقوا لأنفسهم مكانة رفيعة وسط البوذيين الذين كانوا يلتمسون منهم البركات ، ويقدمون لهم

القرابين فى المواسم والأعياد .

الأمر الذي يتعارض تماما مع دعوة بوذا الأولى(٥٥) .

وإذا ما استعرضنا أشكال الإلحاد السابقة سوف نجد جل مذاهب المجترئين قد انحصرت - كما ذكرنا قبل ذلك - فى المسائل التى رغب عن مناقشتها بوذا ومن ثم ينحصر تجديفهم فى الخوض فى الأمور التي نهى عن البحث فيها .

أما البعض الآخر فقد جحد بعض تعاليم بوذا دون أن ينكرها كلية ومن ثم ينتفى فى البوذية شكل الإلحاد التام وذلك باستثناء مذهب المنكرين الذين كفروا بكل شيء بما في ذلك تعاليم بوذا نفسه.

وهناك شكل من أشكال الإلحاد البوذي يجمع أصحابه بين مفهوم الردة والتجديف معا ألا وهو البراهمانية الثانية ويمثل جماعة من الهندوس قد اعتنقوا البوذية في ازدهارها وعادوا إلى هندوسيتهم بعد ضعفها وأفول نجم رهبانها وراحوا يجارون العامة في دياناتهم الشعبية وعملوا على إحياء الفيدا من جديد(٥٦) .

وسوف نتحدث عن هذه الفرقة ومعتقداتها في موضع آخر من هذا الكتاب باعتبارها إحدى ديانات الهند التي مزجت في عقائدها بين الهندوسية والبوذية .

تعقيب

- إن فكرة المهدي التي تعتقدها البوذية تعد من الأفكار المتناثرة التي ذاعت في الديانات القديمة وهي ليست من الأصول الإيمانية الخمسة التي أقرها الجمهور . بيد أنها تعد من جملة العقائد الإيمانية التي وردت بها بعض نصوص السنة التي أكدت أن لامهدي إلا ابن مريم. أما ما جاء في كتابات الشيعة والمتأخرين من فرق البابية والبهائية والقديانية لا يعتد به من وجهة نظر الإسلام . والمهدي بالمفهوم الإسلامي يختلف تماماً عن مفهوم المجدد أو المصلح الديني وكذا عن مفهوم المهدي في البوذية وسائر الأديان الوضعية فالمهدي موفد من قبل الله لحكمة شرعية ، وهو يدعو إلي نفس ما دعا إليه نبي الإسلام محمد ﷺ .

والمسألة تحتاج لمزيد من البحث الذي سنرجأه إلي موضع آخر .

- إن ما ذهب إليه الأستاذ حامد عبد القادر حيال شخصية بوذا واعتباره إياه أحد الأنبياء يعد في رأينا محض اجتهاد لا سند له يقويه من الناحية الشرعية ولا دليل يبرره من الوجهة المنطقية وذلك لأن معظم التفاسير قديمها وحديثها لم تأول الآية علي النحو الذي يجعل من بوذا نبياً وتجعل من لفظة التين رمزاً له وذلك للخلل التاريخي الواضح فيها إذ جعل التأويل سالف الذكر من بوذا سابقاً علي عيسي ومتقدماً علي موسي هذا فضلاً علي أن مثل هذه التأويلات الرمزية لا يعتد بها في مجال العقائد أما من الناحية المنطقية فإن تعاليم بوذا تخالف تعاليم الإسلام ولاسيما في حديثه عن التناسخ والكارما وتجاهله لحقيقة الله وغير ذلك من المعتقدات الفاسدة التي أوردناها . الأمر الذي يخرجه من زمرة الأنبياء .
- أن تسامح البوذية المفرط ولا سيما في قضية تحديد مفهوم الألوهية يجعلها واحدة من الفلسفات المبكرة التي دعت لفكرة وحدة الأديان وهي في الوقت نفسه تخرجها من مفهوم الدين بمعناه الصحيح أي المؤمن بوجود إله واحد ترد إليه كل الأمور وتتضائل أمامه كل الموجودات كما أنها تعطينا دليلاً واقعيا علي فساد دعوى وحدة الأديان . وعلي ذلك فالبوذية لا تعدو أن تكون من وجهة نظر الإسلام إلا أحد الفلسفات الوثنية الفاسدة ولا يمكن الجمع بين بعض تعاليمها في سياق واحد مع الإسلام حتى في المسائل الفرعية والتأويلات الرمزية التي انتحلتها بعض الصوفية من معتقداتها مثل وحدة الأديان عند الحلاج ووحدة الوجود عند ابن عربي.

مراجع الفصل الخامس

مرتبة حسب ترتيب الورود

(١) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٤١ ، ٤٢.
(٢) نفس المرجع ، ص ٧٤ : ٩١.
(٣) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٧٨.
(٤) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص ٣٩.
(٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص ١٥٤.
(٦) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٣٧.
(٧) محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، ص ١٠٤.
(٨) جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص٧٨.
(٩) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص٦٤ ، ٦٦.
(١٠) نفس المرجع ، ص ٦١ ، ٦٢.
(١١) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٠م.
(١٢) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص ٦٤
(١٣) مصطفى الكيك : تناسخ الأرواح ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٠م.
(١٤) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ، ص٥٩ ، ٦٠.
(١٥) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص١٤٠.
(١٦) نفس المرجع ، ص ١٤٤: ١٥٧.
(١٧) أديب صعب : الأديان الحية نشوؤها وتطورها ص٣٨.
(١٨) جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ص١٥٥.
(١٩) نفس المرجع ص ١٥٦.
(٢٠) نفس المرجع ص١٥٩
(٢١) نفس المرجع ص١٤٠ ، ١٤١، ١٤٨.
(٢٢) نفس المرجع ص١٤٢.
(٢٣) نفس المرجع ص١٤٣.
(٢٤) نفس المرجع ص١٥٠ ، ١٥١.
(٢٥) نفس المرجع ص١٦٣.
(٢٦) نفس المرجع ص١٦٧ ، ١٦٨.
(٢٧) اورسيل بول ماسون : الفلسفة فى الشرق ص ١١٥ ، ١١٦.

(٢٨) أحمد شلبى ، أديان الهند الكبرى ص ٥١، ٥٢.
(٢٩) محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، ص ١٠٨ ، ١١٣ :١١٦.
(٣٠) أديب صعب ، الأديان الحية نشوؤها وتطورها ص٤٢.
(٣١) نفس المرجع ص ٣٩، ٤١.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول (مفهوم الدين ونشأته)	٥
الفصل الثاني (الديانة المصرية القديمة)	٣٣
الفصل الثالث (الديانة الهندوسية)	٩٣
الفصل الرابع (الديانة الكونفوشيوسية)	١٢٧
الفصل الخامس (الديانة البوذية)	١٥٩